

الامداد

الى والدي : جرجي وعزيزة

تحقيقا لامنية التماسها مني ،

ورجا في الافصح عن حب عظيم وتقدير لا يحد .

د ع د

محتويات الرسائل

- ١ - مقدمة
- ٢ - مدخل دراسة
- ٣ - القسم الأول : بواعث الرفق

- الفصل الأول : مسؤولية ونضج مبكر

في الطفولة
الضيق من المدرسة
حرمان من ملامح الحياة
اليتيم المبكر
مع الناس
فقر الشدياق ومسؤولية العائلة
مأساة عائلية

- الفصل الثاني : مأساة اسعد الشدياق وما رافقها

في الجو العام للمأساة
نشوء قضية اسعد
في المعتقدات والبراهين
بعد خروجه من لندن البروتستانت
ما دار بينه وبين البطريك حبش
موقف العائلة
موقف فارس الشدياق
اعتناق فارس البروتستانتية
مصير اسعد الشدياق
في خلفيات قضيته

- الفصل الثالث : تشرد الشدياق وعائلته

تشرد اجداد الشدياق
ظلم السلطة
ظلم السلطة الشهابية لاسرة الشدياق
الظلم وتشرد والد فارس
معارضة اخوة فارس للسلطة وتشردهم
تشرد فارس الشدياق
معاناة الشدياق للتشرد
المعاناة الاشد
عداء فارس لنظام الحكم
تشرد من نوع آخر
رحيل الى اقطار اخرى

- الفصل الرابع : الشدياق وتيارات النهضة العالمية

في نتائج الهجرة
في مدرسة الوقائع
في اوروبا
احتكاك الشدياق بالثقافة الاوروبية
في قلب المجتمع الاوروبي
عيشه بين المتناقضات
في ختم البواعث

٤ - القسم الثاني : الرفض

أ - الرفض الاجتماعي

- الفصل الأول : الاسرة

- الرجل : الرجل والتقاليد
الرجل والبيت
توعية الرجل
- المرأة في الاسرة : وضع المرأة
درجة استعباد المرأة -
البكارة
ثقافة المرأة
شخصية المرأة وحدودها
- الطفل في الاسرة : مسؤولية الابوين
مسؤولية الدولة في تربية
الطفل
- الزواج : فشل الزواج
تعدد الزوجات
الزواج الاصلح
التقارب بين الزوج والزوجة
الطلاق
علمنة الزواج

- الفصل الثاني : الحب والجنس

- فلسفة الحب
الحب والمادة
قيمة الحب
مذاهب الحب
الجنس والكبت
الجنس والشرف

الخداع والجنس
بكاراة المرأة والجنس
السلوك والجنس
الشذوذ الجنسي
انهيار الامم والجنس
الشديان " فرويد " القرن التاسع عشر

- الفصل الثالث : المجتمع

الطبقيية : ازالة الفوارق الطبقيية
تحرير العبيد
شرعة حقوق الانسان

الاخلاق : الاخلاق والتخنث
المسارح والملاهي
فلسفة سلوك الانسان

الثقافة : انشاء المطابع
قيمة الكتاب
مسؤولية الفرد الثقافية
الثقافة والتمدن

- الفصل الرابع : الاقتصاد والمجتمع

البطالة والاخلاق
البطالة والسوقت
المقاهي والبطالة
قدسية العمل
الطاقة البشرية
الطاقة الانتاجية في المرأة

قيمة العامل
تنظيم المهنة
تشجيع الصناعة المحلية
ضياع اقتصادى

مسؤولية الاصلاح : مسؤولية الدولة
مسؤولية الصحافة

ب - الرفض الدينى

- الفصل الأول : رجال الدين

جهل رجال الدين
دور رجال الدين
استغلال رجال الدين
العلاقة بين رجال الدين

- الفصل الثانى : الاديرة

التقشف فى الاديرة
التحليل والتحرير
الدير وسيلة لا غاية
مفهوم الرهبنة

- الفصل الثالث : الكنيسة

الطقوس الكنسية
سلطة البابا
جمود الكنيسة
المسيح فى الكنيسة
تجاوزات السلطة الكنسية

سلطة الكنيسة في أوروبا
غنى الكنيسة
غنى الاساقفة
العلاقة بين الكنيسة والشعب

- الفصل الرابع : الحرية الدينية

مفهوم الدين
الدولة والدين
الدين والثقافة
الشدياق بين كالفن ولوثر

ج - الرقض اللغوى

- الفصل الأول : ثورة على القديم

قصور القدماء
خلل التأليف والمنهجية

- الفصل الثاني : مصاعب العربية

عوامل المصاعب
خلافات اللغويين ومزالقهم
ابهام المؤلفات اللغوية
تداخل اللغات
المولدون واللغة
تبسيط اللغة

- الفصل الثالث : فلسفة اللغة عند الشدياق

نشأة اللغة
فلسفة ارتقاء اللغة
النحوت

د - الرفض في البيان والبديع

- في البيئان : الحقيقة والمجاز
الاستعارة والتشبيه

- في البديع : ثورة على المقامات
نظرية في السجع

هـ - الرفض الشعري

مقدمة

الضرورات الشعرية

الشعر والذوق

الملكية الشعرية

الشعر والسجع

x x x
x x
x

مكة

مقدمة

لما عزمت على خوض غمار بحثي " الرفض المبدع في ادب احمد فارس الشدياق " كنت اعلم ان صعوبة ما سوف تواجهني . وقد لفتني الى هذه الصعوبة احد اساتذتي في الجامعة ممن يبحثون في ادب النهضة وفي رجالاته الافذان . وكان ذلك حين استعرض ممي موضوع البحث فيما يتعلق " بالرفض " و " بالرافض معا " .

كانت صعوبة " الرفض " تكمن في تشعب هذا الموضوع عند الشدياق ، ان هو يدخل عنده في اللفظة والشعر والبيان والاقتصاد والسياسة والمجتمع والدين ... الخ . كما يشكل كل تشعب من هذه التشعبات موضوعا قائما بذاته لا يتعلق بكان معين او زمان معين .

وكانت صعوبة " الرفض " تكمن في شخصية الشدياق الفذة والانسانية المبدعة ، وفي الظروف التي كونت تلك الشخصية . هذا الى جانب تمخض القرن التاسع عشر عن أجنة النهضة بمختلف نواحيها ، ومحاولة كل جنين في ان يكون له دور في التغيير والانقلاب اللذين كانا يتمشيان في مفاصل العالم العربي بصورة خاصة ، ومفاصل العالم الشرقي بصورة عامة .

الا ان صخب " الصعوبة " هذه لم يشل بي رغبة اقتحام مجاهل ذلك " الفارس " وهو الذي تودد الي بصورة غير مباشرة ، وعرفني بذاته وانا في السنة الجامعية الثانية ، ان يتوجه الطلاب في تلك السنة الى " النهضة كبيئة ، وكمعامل دافعة اليها ، وكشخصيات مثلوا فوق مسرحها " . فقد طلب الي في تلك السنة ان يكون لي موضوع في كتاب الشدياق " كشف المخبا في فنون اوربا " . وكان ذلك الكتاب وسيلة الالتصاق المبدئي بذهنية استقلالية فريدة لم تر كع امام مغريات التيار الاوروبي بكل زخم نهضته ، بل وقفت امام ذلك التيار تحركه بعضا ساحر ومقتدر ، وتوجه الانظار الى ما هو صحيح ويواكب النهضة ، والى ما هو غير صحيح وتترا منه النهضة .



ذلك التيار تحركه بعضا ساحر ومقدر ، وتوجه الأنظار الى ما هو صحيح ويواكب النهضة ، والى ما هو غير صحيح .

فالشدياق في كتابه ذاك ، لم يؤخذ بالفرب كسواه ، وانما جرده من مظهره البراق ، وكشف عن حقيقة المجتمع الاوربي واقتصاده ومذاهبه وسياسته ، فلم يجمال ولم يهادن ، ولم يقبل ما فيه على انه مقدس تجب عبادته . فقررت حينها ان اتابع الرفض عنده من جميع نواحيه اذا سمحت الظروف بذلك .

بالنسبة الى صعوبة الموضوع ، كان التعثر في انني لم اكن اكتب تاريخا ادبيا عن الشدياق ، ولا اقوم مؤلفاته . كما انني لم اكن بصدد جمع معلومات عن بيئته وعصره ، منافسة سواى حول دقة تلك المعلومات وصحتها ومصادرها .

كانت الصعوبة تكمن في الدخول الى " ثورة الشدياق " من خلال مؤلفاته . فالشدياق ترك مجموعة هامة من المؤلفات ، بعضها مفقود . وحقق عملا صحفيا ضخما في جريدته " الجوائب " التي اصدرها في استامبول ، واستمر اصدارها عشرات السنين . وكانت الصعوبة ايضا في فقدان بعض مؤلفات الشدياق ، وعدم وجود جميع " اعداد الجوائب " التي كتب فيها مقالاته النقدية الشهيرة .

فأنا لم استطع الاطلاع الا على بعض اعداد من " الجوائب " على شكل مجلدات في " المكتبة الشرقية " وعلى شكل مصورات في " مكتبة الجامعة الاميركية " . لكنني تتبعت ما جاء في " كثر الرغائب في منتخبات الجوائب " والذي يلخص أهم ما كتبه الشدياق في صحيفته خلال سنوات حياته . وبرغم ذلك الاطلاع ، بقيت هناك بعض الجوانب التي لم يتيسر لي القاء نظرة عليها ، وقد قيل لي ان بقية " الجوائب " موجودة في استامبول المسهد الذي رأته فيه النور .

وعليه ، ولما انتهت من البحث والاستقصاء الذي استغرق
مني مدة اطول مما كنت اتوقع ، وجدت ان ما بين يدي من
" رفض شدياقى " يتناول ناحيتين :

- الرفض في اطار البيئة العربية والشرقية
- الرفض في اطار البيئة الاوروبية

هذا الى جانب " البواعث " التي ادت الى ذلك الرفض .

وقد حصرت بحثي هذا في قسمين : القسم الاول يتناول
بواعث الرفض عند الشدياق ، والقسم الثاني يتناول الرفض في اطار
البيئة العربية والشرقية . اما الرفض في اطار البيئة الاوروبية
فسوف يكون بحثا مستقلا سأعمل على انهاءه في مستقبل قريب .
ويدخل في اطار هذا الموضوع " الرفض السياسي " عند الشدياق .

في دراستي هذه التي وقفت فيها على الرفض الاجتماعى
والدينى واللغوى والشعرى . لا بد لي من ملاحظة حول " الرفض
الدينى عند الشدياق " . ذلك ان هذا الرفض عنده كان نتيجة الالم
المفجع الذى احسه تجاه قضية اخيه اسعد . فبالرغم من انه كان للشدياق
رؤى عقلانية تجاه الدين ، الا ان الحملة " العاطفية " التي شنّها
على المؤسسات الدينية ورجالها ، جعلتني اتحفظ بعض التحفظ في طرح
كل ما قاله حول الدين . وقد اكتفيت بسرد بعض تلك الآراء
دون التعليق عليها .

ولا بد من التنويه هنا بأنني لم اتطرق الى مراحل حياة
الشدياق ، لانني لست في صدد التأريخ لحياته ، وانما شددت على
ما هو اكثر أهمية في الحياة والبيئة ، والذي دفع اديه وفكره الى
الرفض . هذا الرفض الذى يلح نقيا ضمن مؤلفاته ، والذي يستطيع
تبينه من يكسب بتوادة على تلك المؤلفات . من ناحية أخرى ، هناك

كثير من الفهارس والمصادر والمراجع تتبعت فيها لمحات موجزة عن الشدياق ، ولم اجد حاجة لذكرها في مكانها من هذا البحث ، لعدم اهمية ما يوجد فيها مما يتعلق بالموضوع .

والآن وقد انتهيت من بحثي ، ووضعت امام منصة الحكم ، لا بد لي من ان اتقدم بخالص شكرى وعميق تقديرى الى استاذى الدكتور سعيد البستاني الذى كان دقيقا فأفاد ، وكان موجهها فدل على الطريق ، وكان صعبا فحرص على القيمة ، حتى خرجت من العمل معه بخبرة ضخمة ومراس هام ، جعلاني احب الصعوبتين معا ، صعوبة العمل الذى قمت به ، وصعوبته هو ، تلك التي لا ينعم بحقيقتها الا من سلك دربها ، وقطع اشوائها .

دعم قناب عائدة

مدخل دراسة

يرى "مارون عبود" في كتابه "صقر لبنان" ان ادب القرن التاسع عشر هو ادب "احمد فارس الشدياق".

وهذا الحكم لم يأت جزافاً من قبل اديب كبير كما رون عبود . ذلك ان القرن التاسع عشر كان زمن المخاض الفكري والتوتر النفسي والعقلي لرعييل كبير من الادباء والمفكرين والسياسيين الذين حاولوا ان يحققوا معجزة نهضوية للشرق العربي الغارق في السبات . وقد اتى "احمد فارس الشدياق" على رأس هؤلاء جميعاً ، واستطاع ان يتبوأ مركز الزعامة ، كما استطاع ان يحقق لهذا القرن من العطاء الفكري والسياسي والاقتصادي واللغوي والتربوي ما تعجز عنه مجموعة من اصحاب المواهب المتنوعة . وليس انتاجه الموسوعي في مختلف انواع الادب والفكر والصحافة الا دليلاً صريحاً وواضحاً على ذلك .

الا ان هذا الاسم الضخمة الذي رافق القرن التاسع عشر منذ بزوغ فجره وحتى غياب شمسهِ ، يكاد يطمس بين صفحات التاريخ ، ولم ينبر أحد من الباحثين عن التجديد لكشف الغطاء عن كنوزه رغبة في اظهار حقيقة ذلك الفكر المبدع والنائر الرائض .

لقد مرّ الشدياق كاسم ادبي وكمفكر جدلي في صفحات كتب بعض المؤلفين ، الا ان المرور باسمه كان عابراً ، والوقوف عنده كان غالباً من قبيل التعريف الموجز به لا من قبيل دراسة ادبه وتقويم فكره وعطاءه .

درس الشدياق اذاً من حيث الولادة والنشأة ، ومن حيث الترحل من مكان الى آخر ، ومن حيث عدد المؤلفات الضخمة التي تركها بعد وفاته (١) .

(١) بعض الذين مروا بسيرة الشدياق : مارون عبود في "صقر لبنان" . الاب انطونيوس شبلي في كتابه "الشدياق واليازجي" . محمد يوسف نجم في رسالة في احمد فارس الشدياق . حسن السندوبي في "اعيان البيان" . حنا الفاخوري في تاريخ الادب العربي . محمد احمد خلف الله في محاضرات عن الشدياق . جرجي زيدان في مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر . مارون عبود في جدد وقدماء .

ولكن هذه الدراسات لم تعتن بالاتجاه الشدياقي الفكري الراض والمجسدد الذي خلفه في قلب التراث . هذا الاتجاه الذي يؤلف بعد ذاته مدرسة فكرية ناضجة وغنية يمكن ان يطلق عليها اسم " المدرسة الشدياقيية في عصر النهضة " .

ولعل اسباب اهمال دراسة الشدياق بعمق تعود الى عدة عوامل :

١ - تحرر الشدياق من الطائفية وتمرده على الموروثات الدينية . وقد برز هذا التحرر في تغيير انتماءاته الدينية مرة بعد اخرى . فالشدياق كان مارونيا ثم اصبح بروتستانتيا ، وبعدها مسلما . وقيل انه مات على الدين المسيحي على صعوبة الاخذ بهذه الفكرة التي ذكرها الاب " لويس شيخو " (١) .

وهذا التقل ، الذي ربما كانت تقتضيه مصلحة الشدياق الشخصية اكثر مما تقتضيه قناعاته ، كان سبب طمسه واهماله من قبل الطوائف فلم يعم احد به .

٢ - صعوبة مؤلفات الشدياق . فأحمد فارس ترك ما يزيد على خمسة عشر مؤلفا ، بعضها في نقد اللغة والادب ، وبعضها الآخر في المجتمع والسياسة والاقتصاد ، وسواها في الترجمة وادب الرحلات . وان اى مؤلف من مؤلفاته هذه يصلح لدراسة مفصلة وشاملة ، وبخاصة تلك التي ألّفها في باريس في المرحلة الثانية من حياته (٢) .

(١) لويس شيخو . الآداب العربية في القرن التاسع عشر . الجزء الثاني . ص ٨٦ .

(٢) من هذه المؤلفات الضخمة : " الجاسوس على القاموس " و " سر الليال في القلب والابدال " و " الساق على الساق " .

أما القول بأن البعد عن دراسة الشدياق يعود الى بذاهة بعض
الفاظه وبخاصة في كتابه " الساق على الساق " ، والى تحامله على
رجال الدين ، فان هذا القول مردود لأن الزمن قد تجاوزه .

من هنا ، كان على دارس الشدياق الاديب الموسوعة الا يحييد
كثيرا عن مؤلفاته . ففي تلك المؤلفات تبرز سيرته ، ويبرز فكـره
العميق و خزينه الثقافي الواعي . وفي تلك المؤلفات يظهر الشدياق
المحاكي للقديم ، المسائر لرواسمه كابرع المقلدين ، كما يظهر الشدياق
الرافض لذلك القديم ، الداعي الى ثورة في اللغة والادب ، في المجتمع
والدين ، في السياسة والاقتصاد .

ولا شك في ان بواعث الثورة او الرفض ، كما تظهر في مؤلفات
الشدياق ، كثيرة . بعض هذه البواعث كان في المحيط العائلي ، وبعضها
الآخر كان في المحيط الاجتماعي والسياسي والديني الراسف في اغلال
الجهل والانحطاط .

هذه البواعث اختلنت تدريجيا في قلب الشدياق منذ كان صغيرا ،
وتراكت في نفسه على مر السنين ، الى ان حصلته في مرحلة معينة
من حياته على التمرد ثم الانفجار .

كان انفجار الشدياق ورفضه وثورته ما بعد سنة ١٨٤٨ ، اى
في الفترة التي اقام فيها في باريس ، وقيل ان يذهب الى تونس اثر
دعوة الباي (١) . في تلك الفترة اكتملت عوامل الرفض في نفسه
نفجرها ثورة اجتماعية ودينية ولفوية ، وذلك في كتبه الثلاثة :
" الساق على الساق " و " الجاسوس على القاموس " و " سر الليال في
القلب والابدال " . وفي " جوائبه " .

(١) الشدياق ولد في عشقوت سنة ١٨٠٥ . سافر الى مصر سنة ١٨٢٥ . والى
مالطة سنة ١٨٣٤ . والى اوروبا سنة ١٨٤٨ . ورحل الى تونس بعد ان قضى
مسدة عشر سنوات جائلا في اتحاد اوروبا .

في هذه المؤلفات ، ظهر الشدياق قائدا اجتماعيا متحررا ، وناقدا لغويا مترنا ، وناثرا دينيا مثمسا . أما الشدياق الناقد السياسي والمحلل البارع للاحداث العالمية في زمنه ، فقد برز في " جريدة الجوائب " التي انشأها في استامبول سنة ١٨٦١ ، وترأس تحريرها الى ما قبل وفاته بسنوات قليلة .

ولم ينف الشدياق المجتمع الاوروبي من نقده اللاذع . فقد ترسم هفوات ذلك المجتمع وشين سلوكه في كتابه " كشف المخبا " . كما ثار على المجتمع المالطي في كتابه " الواسطة في معرفة احوال مالطة " .

ان المتوغل في دهاليز " الادب الشدياتي " يقف معه عند مرحلتين :

١ - مرحلة ما قبل الرفض

٢ - مرحلة الرفض

ففي المرحلة الاولى يتأمل المتوغل تلك البواعث التي ادت الى الرفض . وفي المرحلة الثانية يجني المتوغل ، ثمار ذلك الرفض .

لذلك كان تقسيم الدراسة يشمل هاتين الناحيتين :

١ - بواعث الرفض

٢ - الرفض

وهذا ما سنراه في الفصول القادمة

x x x

x x

x

القسم الأول

بواعث الرفض

الفصل الأول

مسؤولية ونضج مبكر

ففي الطفولة

الضيقة من المدرسة

حرمان من ملاحى الحياة

اليتيم المبكر

مع الناس

فقر الشدياق ومسؤولية العائلة

مأساة عائلية

في الطفولة

في اعترافات " احمد فارس الشدياق " خلال كتابه " الساق على الساق " تبرز شخصية المتميزة والمتأثرة بتفاعلات الحياة ومآسيها حوله . في هذه الاعترافات التي تقرب من اعترافات " Jean - Jacques Rousseau " ، مع وجود الفارق في الطريقة والمنهج بين الاثنين ، يرسم الشدياق ملامح طفولته الاولى بموضوعية وصدق . وقد لا يخلو عرضه لملامح تلك الطفولة من بعض السخرية والتهكم اللذين لازماه في الكتاب المذكور .

ونحن نستنتج من ذلك العرض الذي هو أقرب الى التلميح منه الى الايضاح ، أن " مولد الشدياق كان في طالع نحس النحوس " (١) لكننا نستنتج أيضا أن نحسه هذا لم يكن من نوع " النحس المقيم " ، فهو ان لازمه فترة طويلة من حياته الاولى ، الا انه على ما يبدو فارقه في الفترة اللاحقة من تلك الحياة (٢) .

والدا الشدياق كانا من " ذوى النباهة والشأن وكانا من ذوى الصلاح والوجاهة " . أى كانا من طبقة اجتماعية رفيعة لها شأنها . وقد عوضه مركز العائلة الاجتماعي عن احساسه بنقص ما قد يحسه تجاهه من هو أعلى طبقة منه ، الا أنه لم يشجع له - على ما يبدو - حاجته الاساسية الى العلم والتعلم ، ولا وقّر له المتطلبات الضرورية من اجل نموه وارتقائه بصورة عادية وطبيعية .

(١) الساق على الساق . احمد فارس الشدياق . ص ٨٣ - ٨٤ .

(٢) المصدر السابق نفسه . ص ١٢٠ .

ويذهب الشدياق في اعترافاته الى القول بأن والديه لم يستطيعا ارساله الى مدرسة ذات شأن في ذلك الحين من أجل تحصيله العلمي . ولعل السبب يعود الى معاناة أهله المادية برغم مركز العائلة الشدياقية ، وبرغم صيت تلك العائلة والجاه الذي كانت تتمتع به (١) .

(١) يقول الشدياق : (٠٠ فدينهما كان أوسع من دنياهما ، وصيتهما اكبر من كيسهما . وكان لطبل ذكرهما دوى يسمع من بعيد ، ولزوابع شأنهما عجاج يثور في الجبال والبيد . ولتكرار العفاة عليهما واعتشاء الوفود لديهما تعطلت سبل دخلهما ، ونزحت بئر فضلهما فلم يسبق فيها الا نزازات يلقى فيها المخفق المحروم سدادا من عوز ، فكانا يجودان به أيضا من عوز السداد . فلذلك لم يعد في دلاقتهما أن يبعثاه الى الكوفة والبصرة ليتعلم العربية . وانما جعلاه عند معلم كتاب القرية التي سكنا فيها .) الساق على الساق ص ٨٣ - ٨٤ .

الضيقة في المدرسة

اختلف الشدياق - كحامة الصغار - الى كتاب القرية . ويظهر أنه لم يكن سعيدا في مدرسته الاولى . فقد بدا متضايقا منها ، متبرما من معلمه ، ومن كتاب " الزبور " الذي لا يتعلم الا اولاد سواه في ذلك الكتاب .

وربما كان ضيق الشدياق بمدرسته ناتجا عن ذكاء عرف به الشدايقة بصورة عامة (١) . وقد تبلور هذا الذكاء في اصطدامه بالمعلم الذي كان يمثل المفاهيم الثقافية الركيكة في عصره . هذه المفاهيم التي تتلخص بما ذكره السياسي الاسباني " Lobeth De Cordoba " عن التربية والتعليم في القرن التاسع عشر ، ان قال " ان الجهل الكثيف يسيطر على التربية " (٢) . وهذا الجهل كان سائدا في سوريا ومصر وسائر تركيا ،

(١) (٠٠٠) الشدياق من اسرة مارونية تتسلسل منها فروع عيال شهيرة اتحفتنا برجال عظاما خدموا العلم والوطن . وحسبنا أن نذكر منهم يوسف سمعان السمعاني صاحب " المكتبة الشرقية " وسائر العلماء السمعانيين . ومنهم المطران جرمانوس فرحات الحلبي الشهير ، ثم البطاركة الموازنة يعقوب عواد ، وسمعان عواد ، وبولس مسعد ويوحنا الحاج وغيرهم ممن المطازنة والكتبة . ومن عائلته اشتهر اخوه اسعد وأخوه الآخر طنوس مؤلف كتاب " أخبار الاعيان في جبل لبنان " واخيرا سليم فارس الشدياق (٠٠٠) تاريخ الصحافة العربية - الفيكونت فيليب دي طرازي . الجزء الاول . ص ٩٦ - ٩٨ .

(٢) جاء هذا في وثيقة خطيرة تصف تطاحن الدول الكبرى في لبنان على أثر نفي الامير بشير الكبير . وهذه الوثيقة تحمل الرقم ١٢٦٥ من الملف ١٧٧١ في تلك الرائد . وهي عبارة عن تقرير طويل وضعه السياسي الاسباني Lobeth De Cordoba سنة ١٨٤٤ . كشف رقم اسمه الاب بولس مسعد . وهو منشور في " الاصول التاريخية " ص ٥٤١ .

وقد تناول كل الطبقات ، وتجلى في كل العوامل الادبية والطبية
وفي الفنون الجميلة ٠٠ على ما ذكره " Volny " الرحالة الفرنسي
المشهور (١) .

وقد نفهم مما أخبرنا به الشدياق عن طفولته في المدرسة ، أن
سبب اصطدامه بالمعلم ناتج عن مسائل كان يطرحها التلميذ الصغير
عليه ، وكان المعلم المذكور يعجز عن الاجابة عنها ، مما دفعه الى أن
يشير على والده - أى والد الشدياق - كي " يخرج من الكتاب
ويشغله بنسخ الكتب في البيت (٢) .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية - جرجي زيدان - ج ٤

ص ١١ - ١٥ .

(٢) الساق على الساق . ص ٨٦ .

حرمَان من مِلاهي الحياة

كان على الشدياق أن يفعل شيئاً بعد تخرجه من مدرسة المعلم المذكور . فانصرف الى تجويد الخط حارماً نفسه من أبسط مِلاهي الحياة ، تلك التي يتوق اليها من كان في سنه . وقد تدرّ أن هذه الحرفة قد تقيه غائلة الايام ، وبخاصة وأن شقيقه الاكبر طنوس كان يمتن النساخة . ولكن ظنه خاب مع سوء حظه . فقد تيقن بأن الحكام لا يستخدمون في مكاتيبهم أصحاب الكفاءة والمقدرة ، بقدر ما يستخدمون من يسير في فلهم ولو كان أجهل الجاهلين . وتيقن أيضاً أن الرزق الذي يأتيه من القلم لا يكون الا ضيقاً وزائداً في حرمانه (١) .

الا أنه مع هذا الحرمان من مِلاهي الحياة الذي لاقاه في أول حياته ، ومع الصدمة التي لاقاها من " القلم " ، كانت تلك الفترة خيراً عليه . إذ اكتسبه حرفة النساخة القدرة على أن يفصل ما بين الكلمة المرسومة باتقان ، والمعنى التافه الذي كانت ترمز اليه .

وهذا الالتزام المِلاهي نفسه هو الذي فتح له فيما بعد باب النقد اللغوي على مصراعيه مجتزئاً الامور على مراحل . بدأت هذه المراحل بمحاولته التمييزية الاولى ما بين الكلام الفصيح وغير الفصيح ، وأرشدته بمعاونة الكتب العديدة ذات الفنون المختلفة التي كانت تحويها مكتبة والده ، الى التقاط الالفاظ الخريسة التي كان يجدها في تلك الكتب .

لقد لقي الحرمان موهبة الشدياق الفذة تلك ، بلقاح الصبر والجلد على التبحر في فنون اللغة ، واندفع الى التصدي للمعاجم والموسوعات اللغوية الضخمة يتقلب صفحاتها ، وينبش كل كلمة من كلماتها ، متخذاً فيما بعد هواية جمع المترادفات الأبدية ، وكأنه ينافس أصحاب المعاجم بجمعها وعرضها على قرائه ، ليريهم أنه الاقدر والاوسع لو شاء الانصراف الى هذا الموضوع .

(١) الساق على الساق ص ٨٦ .

اليتيم المبكر

يتمّ الشدياق باكرا ، وكان لا يزال يافعا وفي أمس الحاجة الى الحنان الابوى (١) . هذا الموت لم يمر عابرا في حياته . كان توقيته في مرحلة ذات أهمية بالنسبة الى عمر فارس ، وكان ذا تأثير بالغ في تكوين شخصيته (٢) . فالوالد الذي راح ضحية سوء السياسة ، ألقى على كاهل الابن مسؤوليات معيشية ضخمة ، وجعله يحس بمرارة اليتيم المبكر ، وبشكل جعله يبكي أحيانا ، وان راح يحاول التظاهر برباطة الجأش أمام والدته المفجوعة .

كان الشدياق يرى أمه تنفرد في كل صباح وتندب زوجها وتحسر عليه وتذرف الدموع لفقده . " ومنذ ذلك الوقت عرف أنه لا ملجأ له بعد الله غير كده ، فعكف على النساخة " (٣) .

هذه الحرفة قادتته سرغما الى من كان اسمه على وزن " بعير بيصر " (٤) فقد استدعاه هذا " لنسخ دفاتر كان يودعها كل ما كان يحدث في زمانه " (٥) . ولم يكن أمامه الا القبول .

-
- (١) توفي والد فارس سنة ١٨٢١ ، واسمه يوسف منصور الشدياق . وقد تزوج من بنت الشيخ يوسف زيادة عممة البطريك بولس مسعد الشهير . وصرف شظرا من حياته في تدبير شؤون حكام لبنان من الامراء الشهابيين .
 - (٢) كان فارس في السادسة عشرة من عمره حين توفي والده .
 - (٣) الساق على الساق ص ٩٩ .
 - (٤) " بعير بيصر " يرجح أنه الامير الشهابي " أحمد حيدر " صاحب كتاب " الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان " .
 - (٥) الساق على الساق ص ١٠١ .

الاحساس بالطبقيّة

ربما قربت المهنة الجديدة الشدياق من اميره الشهابي ، وعرفته بنفسية الامراء في عصره . هذه النفسية التي لا تحس الا بانفعالاتها ، ولا تتيقظ لحاجات الآخرين الذين يكابدون المصاعب في سبيل لقمة العيش . ولعل عدم الاحساس هذا ، الناتج عن بعد الشقة بين الحاكم والمحكوم ، كان نعمة وخيرا على الشدياق من حيث لا يدري ، هياها للثورة على الطبقيّة .

ومن المرجح أن الشدياق لم يشعر بالامان النفسي عند "بغير بيعر" . ولما فكر في البحث عن مصدر جديد للكسب ، لم يحاول البحث عنه في أحضان السلطة كما كان الامر عند الكثيرين من أفراد عائلته . وربما كان الشدياق ناقما على السياسة التي كان يعامل بها الشعب الذي "لم يكن يجد ما يسد الرمق ويمنعه من التضور جوعا" (١) .

وإذا كنا نحن نلح على السبب الاقتصادي في قائمة المؤثرات في حياة الشدياق ، فلان هذا السبب يؤدي من حيث مردوده على البعض واجحافه بحق البعض الآخر الى تفاوت طبقي معيشي . وهذا التفاوت الطبقي نفسه يخلق بصورة طبيعية وجود الرئيس والمرؤوس ، أي وجود الاعلى والادنى . وعليه ، تتعرض الطبقة الادنى من جراء ذلك الى مختلف انواع التعسف ، ودون ان تتمكن من الاعتراض .

لذا ، بدا الشدياق متقززا حين وجد نفسه في وسط جاهل ومتكبر ، وهو الشاب الذي كان يتوق الى عطاء البواكير الفكرية . كان يعتبر أن هناك جماعة أشبه بالبهائم تعيش في ذلك الوسط ، وكان يعجب كيف أن الانسان الحقيقي يستطيع أن يعاشر مثل اولئك الهمج - على حد تعبيره - (٢) .

(١) تقرير " Lobeth De Cordoba " عن الوضع الاقتصادي في البلاد .

" الاصول التاريخية " ص ٥٥٢ .

(٢) المساق على المساق . ص ١٠٧ - ١٠٩ .

مع الناس

ترك الشدياق الوسط الجاهل والتكبر ، ونزل الى ساحة الحياة العامة ، حيث جميع الناس . امتهن التجارة مع صديق له ، وطمح من وراء المهنة الجديدة الى شيئين : التعرف الى البشر والغوص في مشاكلهم أولاً ، والرغبة في الكسب المادي ثانياً (١) .

نجح الشدياق في دراسة الطبائع الانسانية عن كثب ، ودراسة المنهج اليومي الحياتي للكائن البشري ، لكنه لم ينجح في التجارة . فقد كسدت بضاعته على ما نستنتج ، أو كان هو السبب في كسادها على ما يمكن استنتاجه .

في محاولته التجارية الثانية ، استأجر خاناً مع شريك التجارة ، واستبضع له ما يلزم من الادوات والمعدات . وصار يمارس العمل التجاري بما تيسر له من مال بين يديه ، كما صار يستقبل الناس من كل حذب وصب ، ويقوم مع صاحبه " مقام الفيصل بينهم " (٢) .

ولا شك في أن قيام الشدياق بمهمة الفيصل بين الناس فتح له الطريق نحو اكتشاف المعايير الانسانية ، ثم دفعه الى كتابة الفصول الهامة عن التأثير والتأثير ، تأثير الاشياء القريبة منا والبعيدة عنا . فالمخالطة للانسان - برأيه - أفضل وابلغ من تأثير غيرها ، و " ان تأثير الطعام والنوم والسهر والغضب والشهوة ونحو ذلك ، أولى من تأثير الاجرام البعيدة عنا " (٣) .

-
- (١) الساق على الساق . ص ١١٠ - ١١٢ .
 - (٢) المصدر السابق نفسه . ص ١١٣ - ١١٤ .
 - (٣) كثر الرغائب في منتخبات الجوائب . ج ١ ص ٦ - ٧ .

فقر الشدياق ومسؤولية العائلة

عانى الشدياق الموز، ووعى أساليب الكدح والعمل بين أفراد أسرته، فوالده صرف شطرا كبيرا من حياته في تدبير شؤون حكام لبنان من الشهابيين (١) . كذلك تنقل اخوته من عمل الى آخر (٢) . أما الازمة المادية فقد أخذت بخناق الاسرة الشدياقية بشكل اكثر مرارة بعد وفاة الوالد . ولما هاجر فارس الى مصر هربا من ظلم السلطنة، رافقه شطف العيش، وتوزع عمله ما بين مدارس المرسلين الاميركيين وجريدة النوائح المصرية (٣) . وفي مالطة سكن الكوخ، وصار مستخدما في الجامعة الكائنة بمالطة لتعليم العربية (٤) .

كان عوز الشدياق واضحا من خلال الرسائل التي تبادلها مع شقيقه طنوس أثناء وجوده في مالطة . وقد حملت تلك الرسائل صدى اعبائه النفسية وصدى ثقل المهمات المادية الملقاة على عاتقه . كان عليه أن يتدبر شؤون عائلته في لبنان وشؤون معيشتهم مع أفراد أسرته في مالطة .

- (١) مقدمة كتاب " الشدياق واليازجي " للاب انطونيوس شبلي . ص ١٥ - ١٦ .
- (٢) اخوة الشدياق أربعة : طنوس (١٧٩١ - ١٨٦١) . عمل استاذا للغة العربية ونسخ الكتب وعانى التشرد وصددمات الحياة . ومنصور (١٧٩٥ - ١٨٤١) ، نسخ الكتب وعمل قيا على أملاك الامير سلمان سيد أحمد شهاب وكاتبا في ديوانه . وأسعد (١٧٩٨ - ١٨٣٠) درس وعمل كاتبا ومدبرا للشيخ علي العماد ، ثم عند المرسلين الاميركيين . وغالب (١٨٠٠ - ١٨٤٢) عمل في مصر أثناء نزوحه اليها ، كما عمل كاتبا في ديوان الامير بشير قبل نفيه من قبله) .
- الشدياق واليازجي . ص ١٩ - ٢٠ .
- (٣) هاجر الشدياق من لبنان الى مصر سنة ١٨٢٥ ، وقد لحقه اليها شقيقه غالب . كما رحل الى مالطة سنة ١٨٣٤ .
- (٤) من رسالة كتبها الى أخيه طنوس سنة ١٨٤٠ . وهي منشورة في كتاب " الشدياق واليازجي " ص ٣١٥ - ٣١٦ .

وزع معاشه الضئيل ما بين مالهاته وادبائه . تكفل بعائلة أخويه
غالب ومنصور بعد وفاتهما (١) . واشتدت عليه الهموم حتى راح معها
يتمنى الموت ليسترىح من هم العيال والاهل (٢) .

ولا شك في ان فقر الشدياق وقف حائلا أمام ابداعه ونبوغه
في تلك الفترة الزمنية من حياته ، اى أثناء وجوده في مالطة . فخطامحه -
كما ذكر المستشرق Henri Pérès كانت محدودة ، ولم تتعد كونها
استاذا للغة العربية . وقد حملت مؤلفاته التي نشرها في مالطة بين ام
١٨٣٤ - ١٨٤٨ ، الطابع المدرسي المحض (٣) . وربما درّت عليه
تلك المؤلفات بعض المال .

-
- (١) توفي الأخ الاول غالب في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٨٤١ عن اولاده
القاصرين : يوسف وهيفاء وعبله وهدلا . أما منصور فتوفي في
٦ كانون الثاني سنة ١٨٤٢ عن اولاده القاصرين : ظاهر وبشاره
ومريم . (وقد نقلنا تاريخ الوفاة عن " اعلام " بتوقيع الخوري
ارسانيوس الفاخوري وكيل مطرانية بيروت المارونية . وقد أقام
بموجبه طنوس وصيا) .
اوراق لبنانية ج ٧ ص ٣٢٣ - ٣٢٥ .
(٢) اوراق لبنانية ج ١ . كانون الاول سنة ١٩٥٥ . ص ٥٦٩ - ٥٧١ .
(٣) مؤلفات الشدياق التي ألفها أثناء وجوده في مالطة والتي حملت الطابع
المدرسي الصرف كانت :

- الباكورة الشهية في نحو اللغة الانكليزية ، والمحاورة الانسية
في اللغتين العربية والانكليزية - مالطة سنة ١٨٣٦ .
- اللغيف في كل معنى طريف . ١٨٣٩ . وهو كتاب حوى كل
ما يحتاجه المبتدئ في تعلم اللغة العربية .
- شرح طبائع الحيوان (محرب) مالطة ١٨٤١ .
- السند الراوى في الصرف الفرنساوى ١٨٤٢ .
- كتاب قراءة للصغار .

ازداد هاجس المال الحاحا على الشدياق بازدياد سوء ولياتيه نحو أفراد عائلته ، بالرغم من وفاة والدته التي كان يحيلها أيضا ، وذلك بعد أن نكبت عائلته خلال حروب ١٨٤٢ ، وبعد أن نهبت بموت اخوته أجمع ، ولم يسبق لهم شيء يدفعون به الاضطرار والحاجة (١) . ولعل الكارثة المالية ازدادت وطأتها على الشدياق حين أحس بافتقار أخيه طنوس الى " ما يحفظ حرمة ويصون ماء وجهه بعدما حلّ به من مصائب الدهر " (٢) ، وحين شعر هو بأنه أصبح العائل الوحيد تقريبا لجميع افراد العائلة (٣) .

راح الشدياق في غمرة قلته المادي يتوسل أفراد عائلته في مالطة ولبنان ، الاقتصاد في المصروف ، وعرض على أخيه طنوس المجهي السي

(١) من رسالة كتبها الشدياق بتاريخ ٣ آذار سنة ١٨٤٢ من مالطة الى ترجمان قنصل الانكليز في بيروت ، والمنشورة في اوراق لبنانية ج ٣ عدد آذار سنة ١٩٥٥ ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) اوراق لبنانية ج ٣ . (رسالة بتاريخ ٣ آذار سنة ١٨٤٢) .

(٣) " ٠٠٠ " والان ارسلت له هذا المكتوب من مستر ويس ليدفع لكم حال تسليمه ليدكم خمسة عشر ريالا ، ثم يواصل الدفع ستمائة ريال في كل شهر الى ختام السنة من أجل عيال المرحومين ، وبعد ذلك نتظر ماذا ينبغي أن يعمل به ٠٠٠ ولكن ينبغي أن تعلموا أن هذا القدر انما قطع من نصيب عيلتي هنا ، فان حالنا في هذه البلاد الغالية الاسعار أنحس من أحوالكم ٠٠٠ فارس الشدياق ١٣ تموز ١٩٤٣ .

" اوراق لبنانية ج ١٢ . كانون أول ١٩٥٥ . ص ٥٦٩ - ٥٧١ .

مالطة ليصبح زوجته هـ - اى زوجة فارس - وابنه الى ايطاليا ويعيش الى جانبها هناك ، حيث الاسعار أرخص ، ومتطلبات الحياة أقل كلفة (١) . كما انه فكر ببيع بعض ما يملكه في لبنان لتدبير أمورهِ ، وسد ثغرات العوز الذى كان يعانيه (٢) .

لقد جاع الشدياق ، و " الجوع كافر " بطبعه . لكن هذا الجوع قد يضاف الى جملة البواعث الاخرى التي جعلت منه رجلا من رجال الاصلاح الاجتماعي في القرن التاسع عشر ، وعلى مستوى رفيع .

(١) (٠٠٠) ثم اعرض الان لكم قضية قد عذمت عليها منذ زمن وهي أن أنقل بيتي الى احدى بلاد الافرنج العامرة الرخيصة الاسعار نحو ليكورنو وبيزا واشباههما ٠٠ فأما مصروفكم وجميع ما يلزمكم فانه يكون من البيت ٠٠٠ ثم من حيث أن أسعار مالطة ومصاريها اكثر من سائر بلاد ايطاليا ، فتفرق المصروف اذا جعلته في ليكورنو وعلى اذا أقمت هنا ، بما لا يزيد على ما نصرفه ونحن مجموعون) .

من رسالة الى طنوس مؤرخة في ١٧/٥/١٨٤٣ . اوراق لبنانية . ج ٩ ص ٤٢٦ - ٤٢٧ .

(٢) اوراق لبنانية . ج ٧ ص ٣٢٣ - ٣٢٥ .

مأساة عائلية

تأتي مأساة أسعد الشدياق وموته في ثوبين تكفيرا عن حرية عقيدته ، دافعا مهما بل شديد الاشمية في تحول فارس الديني الى البروتستانتية ، وفي صبّ نغمته على رجال الدين ، وفي ايمانه بحرية الانسان في التفكير والمعتقد .

هذه المأساة هزّت الشدياق في الصمم ، اذ رافق العذاب النفسي والجسدي الذي لاقاه أخوه في سبيل حرية التفكير الذي اقتنع به . كما هزّه وقوف الاخ الاكبر طنوس مع الاشقاء الباقين ضد أسعد . هذا الموقف الذي اتخذ طابع الحدة اما خوفا من السلطة الدينية ، واما عن ايمان بأن الاخ أسعد سار في الطريق الضال .

كان فارس يحب أسعد ، وكان التقارب بينهما كبيرا وعميقا . وقد تلقن على يديه شيئا من اللغة والنحو ، ومنحه ثقته ووثق الى جانبه ، دون أن يدري بأن التلاؤم النفسي بينه وبين أخيه سيثير عليه حنق أفراد عائلته ، وغضبهم الشديد لموقفه .

مأساة عائلية كانت نتيجة الظلام الفكري الذي كان يفرق فيه العصر . وكان نتيجة هذه المأساة لجوء فارس الى الاميركيين الذين أرسلوه الى مصر سنة ١٨٢٥ ، ومواجهة أسعد الصوت بعد أن وجد البطريرك حبيش في اعتناقه البروتستانتية جرما عظيما ، يحكم على من يقترفه بالاعدام .

فما هي مأساة أسعد الشدياق ؟

الفصل الثاني

مأساة أسعد الشدياق وما رافقها

في الجو العام للمأساة

نشوء قضية أسعد

في المعتقادات والبراهين

بعد خروجه من لدن البروتستانت

مادار بينه وبين البطاريك حبش

موقف العائلة

موقف فارس الشدياق

اعتناق فارس البروتستانتية

مصير أسعد الشدياق

في خلفيات قضيته

في الجور الممار للمأساة

من الأرجح أن مأساة أسعد الشدياق ترتبط بالقلق الديني في عصره ، ذلك القلق الناتج عن حركة النزاع بين الطوائف — لا مسؤولية ، وعن موقف الدولة ازاء ذلك النزاع . فالدولة لم تكن تتقف على الحياد . اذ هي أحيانا كانت تعاضد السلطة الدينية بشكل صريح وعلني ، بمقدار حاجتها الى هذه السلطة لتنفيذ مآربها في الحكم وحبابة الضرائب .

ونحن نشعر بمأساة ذلك القلق الديني اذا راقينا عن كسب التعصب الطائفي البغيض بين أبناء الملة الواحدة ، هذا التعصب الذي كان يذكيه الرؤساء الدينيون أنفسهم . وكان انتياد أبناء الطائفة الى رؤسائهم بشكل عاطفي وأعمى ، يزيد من قوة ذلك القلق ، كما كان يزيده ذلك الظلام الفكري المخيم على العصر (١) .

(١) (٠٠٠) في حوادث سنة ١٨١٢ الدينية مثلا ، اغتيل بطريرك الكاثوليك من قبل الياس عماد واولاده على طريق بسكسنتا ، لان البطريرك المذكور — على ما قيل — عمل على ترغيب بعض أبناء طائفة الروم الدخول في المذهب الكاثوليكي) . النسر الحسنان في أخبار أبناء الزمان ج ٣ ص ٥٨٥ . (كما نرى في الموضوع نفسه أن الاوامر الشريفة تصدر الى الوزير خورشيد أحمد باشا والي حلب سنة ١٨١٧ ، من قبل الباب العالي في الاستانة — يمنع رعاية الروم من اتباع مذهب الافرنج الكاثوليك ، لان هذا برأيهم باعث على اختلال نظام الرعية . هذا المنع السلطاني كان نتيجة شكوى سلطان الروم في حلب . وكانت النتيجة نفي الهيئة الموجودين وعددهم ١٧ كما هنا ، فخرجوا الى كسروان . كما انتهت العملية بقتل ١٢ شخصا من أكابر طائفة الكاثوليكين) . النسر الحسنان ص ٦٢٤ — ٦٢٦ .

ملاحظة : هكذا جاءت نصوص هذه الحاشية في الاصل .

وربما كان من نتيجة ذلك القلق الديني ، تقاطر البعثات الاميركية الى سوريا سنة ١٨٢٠ ، واستغلال غياب اليسوعيين عن المسرح اللبناني بعد أن غادروه بأمر من البابا . وقد تعرض هؤلاء البروتستانت الى المضايقة بعد ثلاث سنوات من مجيئهم الى لبنان . فبالاضافة الى الصعوبات التي لاقاها المبشرون الافراد في نشر مذهبهم الذي لم يستقبل سوى القلة من الناس ، نجد الامير بشير الشهابي يصدر أمرا للمجتمعين منهم في عينطورة سنة ١٨٢٢ ، يقضي بمنادرتهم المكان الى بيروت ، كما يقضي بوقف توزيع مطبوعاتهم تجنباً للشقاق والمنازعات بين الاثالي . وكان هؤلاء ممثلين عن جمعية لندن لشؤون الاراضي المقدسة وممثلين عن المجمع الاميركي (١) .

أما موقف السلطنة الدينية من قضية البروتستانت ، فيمكن تلخيصه بالمنشورين اللذين أصدرهما البطريرك حبيش في حق كل من يتعامل مع البروتستانت في ذلك الحين . فقد جاء في المنشور الاول ما يحتم على الكليروس والطلمانين الموارنة ألا يقتنوا كتب البروتستانت وألا يبيعوها او يشتروها او يأخذوها هبة ، وألا يطالساها لأى سبب كان . أما هذه الكتب فهي التوراة والانجيل وغيرها من كتب صلوات ومواظ وجدل ديني . وقد أمر البطريرك المذكور كل من عنده شيء منها أن يحرقها أو يرسلها الى الكرسي البطاريركي . كما أمر ألا يتعلم أحد في مدارس البروتستانت وألا يطالع مؤلفاتهم ، وان خالف ذلك الكليركي تان " مربوطا " أو علماني كان " سحروما " .

وجاء المنشور الثاني الصادر في ٤ كانون الثاني سنة ١٨٢٦ أشد لهجة . فقد أمر البطريرك الحبيشي فيه أبناء ملته أن يتجنبوا البروتستانت التجنب التام دينيا ومدنيا . فلا بيع ولا شراء ولا قرض ولا استقراض ولا مؤاكلة ولا محادثة . وباختصار لا سلام ولا كلام . ومن يخالف ذلك يسقط في " الحرم الكبير " المحفوظ حله للسلطان البطريركي (٢) .

(١) Tibawi P. 146 - 148 .

(٢) جدد وقدماء . مارون عبود . ص ١٥٦ . استنادا الى تاريخ المقابلة

الكسروانية للخوري " بمنصور العذوثي " .

قضية أسعد الشدياق

في هذا الجو المكفهر من الاضطهادات الدينية ، نشأت قضية أسعد الشدياق . القضية التي تحولت الى مأساة راح فيها اسعد ضحية المتصلب في عقيدته . وقد بدأت المأساة سنة ١٨٢٥ ، حين سار أسعد الى دير القمر ليعلم المرسل الاميركي Louis Keynes للغة السريانية (١) .

ولم يؤخذ على اسعد قبل اتصاله بالبروتستانت تهاونه في الدين . وهو قد اخترع دائرة مشجرة في درجات النسب المحرمة والمحللة في الزواج لم تنزل محفوظة ومعولا عليها عند الموازنة في هذا الباب (٢) . ولكن هذا لا يعني أن اسعد كان شديد التعصب لمارونيته ، بل على العكس كان لا يرضخ الا لما يمليه عليه العقل والمنطق .

وما يذكر عنه في هذا الصدد ، انه هرب في سنة ١٨٢٦ الى قنوبين يحتمي عند البطريرك يوحنا الحلو ، وأقلم عنده مدة . ثم لم يلبث البطريرك المذكور أن طرده من هناك اجابة لطلب الامير بشير الشهابي الذي كان يتهم اسعد بأنه من حزب اعدائه . فتوجه أسعد حينها الى طرابلس نزحياً على

(١) ولد اسعد الشدياق سنة ١٧٩٨ وتوفي سنة ١٨٣٠ . درس على أخيه دنوس آداب السريانية والعربية . وفي ١٥ حزيران سنة ١٨١٢ دخل مدرسة عين ورقة الأليركية . وفيها درس اللغات والمنطق والفلسفة والطبيعية والخطابة واللاهوت . وفي سنة ١٨١٨ عهد اليه تدريس السريانية واللاهوت في دير القديس انطونيوس بجبدا للرهبان الانطونيين . واختصر اللاهوت الادبي للعلامة انطوين . ونسخ كتاب الاحسان السريانية وجمع منظوماته . وتولى الكتابة في ديوان البطريركية ، ثم في ديوان اسقفية بيروت فترة من الزمن . وفي سنة ١٨٢٢ عين مديراً للشيخ علي العماد الى سنة ١٨٢٤ حيث مكث بعده اتصاله بالمرسلين البروتستانت .

(٢) اعتمدنا في سرد مأساة أسعد الشدياق على " قصة اسعد الشدياق " بقلم المعلم بطرس البستاني . وهي المرجح الوحيد الذي يتحدث بتفصيل عمن تلك المأساة . ص ٩ .

الشيخ محمود الدسوقي ، وكان الشيخ المذكور اماما للامير سلمان الشهابي عند ولايته . وصدق أن حدث بين اسعد وبعض علماء الاسلام جدال في المديانة ، قيل حينها أنه تساهل فيه معهم ، حتى أن البعض اتهمه بأنه وعدمه باتباع مذهبهم . " وربما كان هذا يعود لما وجدته أسعد في مذهبه مما لم يكن يستلج الحماية عنه لكونه مردودا بنصوص الديانة المسيحية نفسها - على حد قول المعلم بطرس للبستاني " (١) .

مع هذه الحادثة ، يمكن الافتراض أن اسعد الشدياق كان ذا فكر حر غير منقاد ، وأنه كان جريئا في قضية الصراع التي تنشأ بين الدين والعقل ، والتي تضح ألم أعيننا مسألة الايمان التي تقبل الشك الى جانب مسألة اليقين التي تتجاوز كل شك .

لذا كان من البدهي أن تجرى محاورات ومجادلات كثيرة في أمر المذهب بينه وبين Louis Keynes المبشر البروتستاني الذي كان اسمه أن يطرح قضاياها معه ويناقشها . كذلك جرت مثل هذه المحاورات مع Ysaac Boeurd المرسل الاميركي المشهور ، الذي أخذ أسعد يلمسه اللغة العربية بعد سفر Keynes .

من أهم الاعتراضات التي قبلها اسعد للشدياق اثناء حوارهم مع Louis Keynes الاعتراض على منع الكنيسة الرومانية اولادها من قراءة الكتاب المقدس . وقد اقتنع اسعد بقوة هذا للاعتراض ، كما أخذ يقتنع تدريجيا بالبراهين والادلة التي كانت قد قدمت له من اجماع الكتاب المقدس لدحض بعض آراء الكنيسة الرومانية وتعاليمها . ومن ثم راح يجادل كل من جلسه ميثا مذهب البروتستانت ، مستعينا بشهادة اشعيا النبي على وجوب مطالعة الكتاب المقدسة (٢) .

(١) قصة اسعد الشدياق - بقلم المعلم بطرس للبستاني ص ١١ .

(٢) قصة اسعد الشدياق ص ١٦ .

وكانت الكارثة ، ان اسعد لم يرد أن يحضر تبشيره في البيئة العلانية . بل أراد أن ينقل صدى ما يفكر به الى رجال الدين أنفسهم . وربما كان هذا أحد الاخطاء الكبرى التي ارسلته الى نهاية مخزنة ومؤسفة ، في عصر كانت ممارسة الشائر الدينية فيه وحرية المعتقد كانيتين لجلب الحرم الكنسي والتكامل .

كانت ردة الفعل ان رقت السلطة الدينية في وجهه ، مما اضطره الى ترك الانجلييين ، وما حمل السلطة الانكليزية على اعطاء ورقة حماية صيانة له من غضب البطارك والسلطة الشهابية (١) .

لم يستطع أحد أن يشني أسعد تيد شعرة عن عزمه على البقاء نسي البروتستانتية . هرب من وجه السلطة واختفى وتشرذم . الا أن كل اللعنات التي صبت عليه زادت ايمانا بما يفتقه . حتى بعد أن نقل الى زنزانة ضيقة في الدابق السفلي من دير قنوبين ، وبعد أن حددت له كمية الطعام والشراب ، ومنع عليه الخروج منها اطلاقا ، بقي على موقفه .

كان طول الزنزانة التي لاقى فيها أسعد مصيره مترا ، وعرضها مترا ، وارتفاع سقفها مترا . وكانت مظلمة لا يدخل اليها النور الا من نافذة صغيرة جدا . لم يكن مع أسعد في تلك الزنزانة الا امبريق من الماء . وقد ربط عنقه بحبل وعلق الى النافذة . وكان كل من يمر به من الناس يشده من رقبته بواسطة الحبل ويبصق عليه .

وقد تحمل أسعد كل عذابات النفس والجسدية بصبر بالغ أدهش ظالميه . وتأكد للجميع بعد هذا ، أن النقاش مع أسعد لم يعد مجديا . وتحمل أسعد آلامه والاضانات الجارحة التي وجهت اليه بجرأة نادرة ، كما تحمل بالجرأة نفسها القرار الصادر عن البطريرك بحرمانه من الدفن الكنسي .

مات أسعد الشدياق خان الكنيسة المارونية ، ولم يرجع قبل موته الى حضن الكنيسة البابوية ، كما يزعم البعض .

(١) قصة اسعد الشدياق . ص ٢١ .

في المعتقدات والبراهين

ومن أهم المعتقدات التي آمن بها أسعد الشدياق وبرهن عليها ،
وقادته الى الموت ، كانت التالية :

١ - ان الاسفار المضافة الى الكتب المقدسة ، والتي تقبلها الكنيسة
الرومانية كأسفار قانونية ، ليست هي من وحي الروح القدس ، وأنه لا يصح
الاعتماد عليها في اثبات القضايا الدينية .

٢ - دحض عبادة الايقونات (١) .

٣ - وجود أغلاط كثيرة في الكنيسة الرومانية ، وبعض أغلاط عند
المرسلين (٢) .

٤ - البابا ليس معصوما عن الخط .

٥ - ان الايمان الحقيقي الحي يجب أن يكون الهيا ممزوجا بالرجاء
والمحبة والندامة ، وليس فقط حسب ما توحي به الكنيسة الرومانية .

٦ - قضية القربان المقدس ، واعتقاد أسعد أن أكل جسد المسيح
ليس جسديا (٣) .

٧ - الايمان بالكتاب المقدس وبيسوع المسيح ، ورفض عبادة أمه مريم
العذراء والقديسين (٤) .

٨ - عدم اكرام الصليب ، وان عبادته غير واجبة (٥) .

٩ - الدين الحقيقي لا يكون بالاكراه والاعتصاب ، بل هو الذي يكون من سماع
كلام الله وتصديقه واردة العمل بموجبه لمجد الله .

(١) وقد قدم أسعد الشدياق على هذا الموضوع براهين كثيرة من الكتاب المقدس

والمجامع والآباء . وجاء ذلك في رسالة كتبها الى المطران بطرس كـ

مطران بيروت . " قصة أسعد الشدياق " ص ٢٠ .

(٢) قصة أسعد الشدياق ؛ ص ٢٣ .

(٣) المصدر السابق نفسه . ص ٥٤ .

(٤) المصدر السابق نفسه . ص ٩٦ - ٩٧ .

(٥) المصدر السابق نفسه . ص ١٠٥ .

موقف السلطة الدينية منه (البطريرك حبيش)

كان لا بد لهذه المعتقدات التي آمن بها أسعد الشدياق من أن تثير غضب البطريرك يوسف حبيش ، بطرك الطائفة المارونية في ذلك الحين . واعتبر أن أسعد ضلّ طريقه وخرج عن رسالة كنيسة آباءه وأجداده . فأرسل اليه تحريرا يأمره فيه بالامتناع عن كل معاطاة مع اتباع الكتاب المقدس - أي البروتستانت وهدده بالحرم الكبير وبالشكوى الى الامير بشير الشهابي .

ويذكر بولس مسعد في تبريره لتصرف البطريرك حبيش ، أن المرسلين الاميركيين انتهزوا فرصة اختلاط أسعد بهم وتردده عليهم لاستمالة الى معتقدتهم ، ولم يطل به العهد حتى أنس من نفسه الانقياد الى آرائهم . ولما اتصل خبره بالبطريرك حبيش ، شق عليه الامر ولاسيما أن أسعد من تلاميذ عين ورقية البطريركية الاكليركية ، وخرجه على الدين في مثل ظروفه هذه يعد في نظر البطريرك رجال الدين جرما عظيما ، ولاسيما أن لبني الشدياق فضلا على هذه المدرسة الطائفية يرجع الى عهد عميدها بطرس الشدياق الذي وقف عليها بقاعا واسعة من جبل موسى الذي كان يمتلكه (١) .

وسواء أخذنا بالمجرات التي حملت البطريرك حبيش على الغضب من أسعد الشدياق أم لم نأخذ بها ، فان أسعد الشدياق أجاب البطريرك الى طلبه . ولكن باعتبار أن الخلاف الجذري بين أسعد والسلطة الدينية الممثلة بالبطريرك هو خلاف على جوهر القضية في الاساس ، فالبطريرك اعتبر أن الجدل في قضايا الدين - بالنسبة الى أي كان - خالية يجب العقاب عليها حتى درجة التكفير نفسيا وجسديا عن تلك الخطيئة . بينما شعر أسعد بوخز الضمير في القبول المطلق لقضايا قابلة للحوار .

ولم يخش أسعد من شرح وجهة نظره للبطريرك حبيش . فذهب اليه في سنة ١٨٢٦ مع الخوري نقولا حبيش برغم نصيحة أصحابه . وقد أظهر للجمع ثقتهم بالبطريرك وعدم خوفه من أن يلحق به أذى ، مؤكدا أنه ليس من عادة الموارنة أن يقتلوا أحدا بسبب الديانة (٢) .

(١) الشدياق واليازجسي . ص ١٩ .
(٢) قصة أسعد الشدياق . ص ٢٥ .

ويخ البطاريرك حبيش أسعد على عمله . وحين رآه مستظبا ، تركه يظلو
لنفسه فترة ليعيد النظر في ذاته . وبعد أن قضى أسعد أياما في الرياضة
الروحية ، استدعاه البطرك ثانية وثالثة لكنه بقي مسيرا على رأيه أمامه
حتى رأى البطرك نفسه مكرها على معاملته بالشدة (١) .

من البدهي أن تكون القضايا التي ناقشها أسعد الشدياق مع البطاريرك
حبيش خلال لقاءاته المتعددة معه ، تقوم في الأساس على اتاحة الفرصة للإنسان
كي يختار المذهب الذي يشاء . وبرغم أن أسعد اثبت للبطاريرك بالادلة والبراهين
صحة ما يؤمن به ، إلا أن هذا الأخير سدّ في وجهه ابواب الفرج ، وقابله
بالرفض التام لكل أقواله .

ولا شك بأن أسعد وضع نصب عينيه قضية " التعسف في استعمال
حق الجدل " التي مارسها معه البطاريرك المذكور . ولا منه لأنه لم يأخذ
بالروية والتفهم ، ولم يدحض معه العجة بالحجة . وإنما استعمل سلطته التي
لا ترد في سبيل تحويله عن آرائه . ومن اللبيخي أن تشير مثل هذه الامور
الحد الاقصى من التمرد عند الذين يبنون آراءهم على الوثائق ويقتنعون
بمنطقها (٢) .

وكان على أسعد بعد هذا ، اما التراجع عن موقفه والتماس المغفرة من
البطاريرك ، بعد أن حمله اليه أقاربه من جديد في ٣٠ آذار سنة ١٨٢٦ في دير
مار جرجس علما ، واما الاصدار على ذلك الموقف، وفيه الموت المحتتم (٣) .

اختار أسعد الموت . وربما اراد البطاريرك حبيش أن يجعله عبرة لكل من
تساوره نفسه التزام جانب البروتستانتين ، وبعد أن ارسل اليه جماعة من الدوارنة
في محاولة اخيرة لاثائه عن عزمه ، دون أن يفلح أحد منهم بذلك (٤) .

- (١) الشدياق واليازجي . ص ١٩ .
- (٢) (. . .) قال أسعد : لكنني أنا أيضا اتمجب كيف بعد ما رأي البطاريرك ذلك ،
ما رضي أن يسألني بأنس ووعي واستفهام صبور عن السبب الذي لاجله لا أريد
ان اتبع تعليم البابا ، بل ولا رضي ان يحضر ذلك القس الارمني الذي ذكرت
له عنه قبلا انه يريد مجادلتني ، بل عوض هذا جميعه وضع حرما على كل من
يحادثنني او يجادلني في امر الدين (. . .) قصة أسعد الشدياق . ص ٤٦ .
- (٣) قصة أسعد الشدياق . ص ٨٢ - ٨٨ .
- (٤) المصدر السابق نفسه . ص ٩٦ - ٩٧ .

موقف العائلة

كان لابد لعائلة اسعد الشدياق من أن تتخذ موقفا جذريا من قضية ، في الوقت الذي كانت فيه السلطان الدينية والمدنية تضطهد المبشرين البروتستانت وتجبرهم على مغادرة البلاد .

ومن الطبيعي أن يكون موقف العائلة سلبيا تجاه أسعد ، فلا تقره - ولا بأي شكل - على معتقداته . بل ان الامر ذهب بها الى حد اتخاذ سبيل مناهضة والتنصل من مسؤولية الافعال التي يقوم بها ، والمنتقادات التي صار يؤمن بها ويعمل على ترويجها .

وقد يعود سبب موقف العائلة المتصلب تجاه اسعد الى ناحيتين :

- اولاهما ، العلاقة غير الودية التي تربط عائلة الشدياق بالسلطة الشهابية الحاكمة ، والتي اتحدت مع السلطة الدينية على مناصبة البروتستانت العداء ومنعهم من القيام بالتبشير .
- وثانيتها ، ما كان للشدايقة انفسهم من أهمية وفضل على الطائفة المارونية . فمنهم انحدر رجال دين أنفذا خدموا طوائفهم المارونية بثقافتهم ومحبتهم وتقواهم (١) .

لذلك ، " فبعد رجوع اسعد الى بيروت من عند البطريرك حبيش في ٢ آذار سنة ١٨٢٦ ، جاء عمه واثنان من اخوته لاجل اخراجه من عند المرسلين الذين عاد اليهم من جديد " (٢) .

-
- (١) منهم الذين انتسبوا الى الجد الجامع شاهين المشروقي ، والذي تتسلسل منه فروع عيال شهيرة . . . نذكر من ابنائهم : المطران جرمانوس فرحات الحلبي الشهير ، ثم البطاركة الموارنة يعقوب عواد وسمعان عواد وبولس مسعد ويوحنا الحاج وغيرهم (. .) .
- تاريخ الصحافة العربية . الفيكونت فيليب دي طرازي . ج ١ ص ٩٦ - ٩٨ .
- (٢) قصة اسعد الشدياق . ص ٦١ .

ولكن اسعد الذي تحمل مسؤولية معتقداته أمام البطريك ، وترى أن يتحمل نتائجها مهما بلغ به الامر ، لم يكن في مقدوره أن يصغي لسمعه واخوته الذين تملكهم الرعب من تصرفاته ، ولا لتوسلاتهم وتهديداتهم . وكانت حجته انه لا يستطيع أن يذهب معهم ويميش بينهم كأخرس . بينما كانت حجة عمه واخوته ان هذه البلاد ليست بلاد حرية (١) .

وسواء أكان العم والاخوة مدفوعين الى اخراجه بعامل الخوف من البطريك حبيش ، أم من تلقاء أنفسهم ، فان اسعد لم يستجب لرغبتهم ، لانه كان يدرى ما يمكن أن ينتظره لو أنه فعل ذلك . فعادوا من لدنه حانقين وخائبين ، ولكن ليرسلوا اليه أمه - التي وقفت ضده أيضا - ومعها ابنا الاصغر فارس ، في محاولة أخيرة للتأثير عليه واعادته الى طائفته المارونية من جديد .

جاهر أسعد بمعتقداته أمام أمه . قال لها ان الديانة يجب ألا تقيد ، وأخص موقفه بما يلي : " من أحبّ أبا وأمّا اكثر مني فلا يستحقني " (٢) . وكان هذا القول كافيا لاحتقارها وايقافها عند حد معين من الجدل والحوار معه . أما فارس فأخذ يصغي جيدا الى جميع احتجاجات اسعد لاثبات آرائه وعزمه ، ويجتهد في اقناع امه بتخلية سبيله ولكن من دون نتيجة .

-
- (١) قصة اسعد الشدياق . ص ٦٣ .
(٢) المصدر السابق نفسه . ص ٦٨ .

في موقف فارس الشدياق من أسعد

بدأ تأثر فارس بأخيه أسعد - اذا أخذنا بصحة كل ما ذكره بطرس البستاني من وقائع - لحظة انصراف والدته من عنده . ان أن أسعد حينها طلب من فارس أن يأخذ الانجيل ويقرأه باصغاء (١) . ففعل ذلك متأثراً بحبه الشديد لأخيه ، وبحق الانسان في حرية المعتقد .

جاء تأثر فارس بالانجيل في الوقت الذي كانت فيه العائلة قد بلغت الذروة في الثورة وفقدان رباطة الجأش . وكانت اية بادرة من فارس تظهر فيها ميوله كافية له ليلقى مصير شقيقه في الاضطهاد . وربما كان من الحكمة فسي فارس أن يسبقي انحيازه الى آراء أخيه أسعد ظي الكتمان حتى تتاح له فرصة البوح به . وبخاصة ، أن انظار العائلة باتت رقيقاً على تصرفاته خشية أن يناله ما هو اكثر شراً من الذي نال أخاه .

ولا شك في أن فارس أحس ببوادر الخطر ، فأراد أن ينضي بمشاعره التي Isaac Boeurd ، علمه يؤمن له حماية كافية قبل أن تصل روائح بروتستانتيته الخفية الى انوف المضطهدين . فحضر اليه في بيروت في ٢٤ آذار سنة ١٨٢٦ ، وواجهه سرّاً واخبره بأن أخاه منصور دخل عليه بنقطة بينما كان يقرأ الانجيل . فاستل سيفاً وضره بقفاه على عنقه ، ثم عمد الى صندوق أخيه أسعد وأخرج كل ما فيه من الكتب العبرانية والسريانية والايطالية وأحرقها أمام عينيه (٢) .

كانت النتيجة الطبيعية بالنسبة الى Isaac Boeurd الاخذ بيد فارس واحتضانه السعي لاجراجه من البلاد ، بعد أن تحدّى العائلة ووقف الى جانب أسعد ، ومال الى معتقداته .

(١) قصة أسعد الشدياق . ص ٦٩ - ٧٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه . ص ٧٢ - ٧٣ .

في اعتناق فارس البروتستانتية

ان كل الذين مروا بحياة فارس الشدياق بصورة شبه عابرة من المؤرخين والادباء ، اتفقوا جميعا على القول انه اعتنق البروتستانتية وهو في الثالثة ، وبعد أن علم بموت شقيقه اسعد في سبيل عقيدته ومذهبه . ويذهب " بولس مسعد " الى القول أن فارس لم يحتنق البروتستانتية الا انتقاما لاخته اسعد من جبروت البطريك حبيش (١) .

والواقع أن فارس الشدياق اعتنق البروتستانتية قبل هجرته الى مصر ، ونستدل على ذلك بما اورده في " فارياقه " - عن طريق الرينز - حول مجيء المبشرين البروتستانت الى لبنان ، واعتناقه البروتستانتية بعد جدال يشبه الى حد كبير الجدل الذي داره شقيقه اسعد حول حرية المعتقد (٢) .

فقد اتانا بتفاصيل قدوم " العنقاش " الذي هو واحد ولا شك من المبشرين البروتستانت الذين يطوفون في القرى كأنهم البياعون المتجولون ، وان ما جاء به ذلك " العنقاش " لاقى صدى مقبولا في نفسه . كما حكى لنا عن ثورة الاهل والمحيط عليه ، وغضب المطران الشديد لما وصله النبأ . أما ردة الفعل العنيفة عند الشدياق فكانت في المثابرة على الجدل حول اساس العقيدتين المارونية والبروتستانتية ، والانصياع للمقل (٣) .

(١) الشدياق واليازجي . ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢) يقول فارس الشدياق في كتابه " الساق على الساق " : (وافق وقتئذ ان قدم عنقاش يفتد على شراء السلع القديمة وعلى اصلاحها او على مقايضتها او على صبغها ... وانه - اي العنقاش - لما بلغه في بلاده فساد تلك السلع اقبل حفدا الى تلك البلاد وهو يحمل خرجا كبيرا فيه من الاصباغ والادوات ما يرفأ كل خرق ويصيد كل لون نافض . فسار اليه الفارياتي عجلا الى المقايضة ، وواطأه على ابدال ما عنده من السلعة القديمة باخرى جديدة راقية لسينه . فقد يقال لكل جديد بهجة . ثم قفل الى منزله مسرورا بصفته . فلما علم أهله وجيرانه بذلك استشاطوا عليه غيظا وقالوا ، لصر رب الجنود ما جرت العادة في بلادنا بتغيير البياعات ولا بمقايضتها ولا باصلاح ولا بصبغها . ثم لم يلبث الخبر ان بلغ مطران الصنع ، وكان من الضواطرة الكبار ، فكأنما كان سكيننا سقط على حلقومه ، او خردلا دخل في خردلومه ، فهان وأزبد (...) .

الساق على الساق . ص ١٧٥ - ١٧٧ .

(٣) الساق على الساق . ص ١٧٥ - ١٧٧ .

في ذيول قضية اسعد الشدياق

ابرز ما تركته قضية اسعد الشدياق وراءها من ذيول ، كان امتزاز فارس العميق لها ، امتزازا اختلطت فيه العاطفة مع العقل حتى تحول الى ثورة فتمرد .

- في العقل ، تركزت ذيول القضية على حق رجال الدين بالتدخل في حق الحياة والموت . ان أن البطريك - كما يقول فارس - ليس له أن يخطف من بيت أحد درهما لو شاءه ، فأنى له ان يخطف الارواح (١) . ويرى فارس أيضا ، أن لا ضير على أخيه اسعد ان جادل في الدين وناظر واتهم رجاله بالضلال . فالرأى الحر لا يقود صاحبه الى الموت . وكان على البطريك برأيه . أن ينقض ادلة اسعد ويدحض حجته بالكذب والكتابة اذا ما انزله منزلة عالم يخشى تبعته (٢) .

كما تركزت ذيول قضية اسعد على حق الانسان المشروع في الحرية ، وعلى وجوب محافظة السلطة على هذه الحرية . " فالاضطهاد والاجبار على شيء لا يزيد المضطهد وشيئته الا مكلفاً بما اضطهد عليه . (٣) .

- في العاطفة ، تركزت ذيول قضية اسعد الشدياق على صدمة الموت ، موت الانسان بالرغم ، وفي سبيل ما يحتقده الانسان انه حق . هذه الصدمة حملت فارس على الهذيان المفجع وقد تلقى نعي أخيه في الغربة ، (٤) كذلك

(١) الساق على الساق . ص ١٨٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) (٠٠٠) قال فارس : " وأن أخي رحمه الله وان يكن قد مات فذكره لن يموت . . ألم تأخذكم يا غلاظ الاعناق رأفة في شبابه وجماله . . . ألم تشفقوا عليه ان رأيتم أنامله قد ضنيت لعوز ما كان يتمتع به حمز ديركم ، ولقد طالما والله أخذت القلم فخطت ما يعجب الملوك . . ولقد طالما والله صعد المنبر فخلب فيكم ارتجالا ، ولاشد ما أبكى سامعيه تذكيرا وتزجيذا . وطالما ألقف وعرب لكم كتبا ركيكة وعلم خمتقى رهبانكم واخرجهم من ظلمات الجهل (٠٠) . الساق على الساق . ص ١٨٨ .

وقد علم بأن موته جاء بعد ست سنوات من الذل والتعذيب والتنكيل (١) .
وبلغ صراخه العاطفي مداه حين أحس بأن الكنيسة المارونية تنفرد بين الكنائس
الآخري في الحكم بالموت على من يخالف عقيدتها من ابنائها (٢) .

من ناحية أخرى ، وجهت قضية اسعد فارس الشدياق نحو تسقط هفوات
رجال الدين في لبنان ، في مالطة ، في أوروبا . كما قادت الى التفريق ما بين
الدين كمعتقد وبين الرجل القائم على تطبيق ذلك المعتقد ، والمؤسسات الدينية
التي ينتمي اليها .

هذا يعني ان فارس الشدياق الذي تركزت في اعماقه فكرة حرية المعتقد
قبل سفره الى مصر تأثرا بما ذهب اليه اخوه اسعد ، بقي يرافق فكرة تلك الحرية
ويدعو اليها حتى آخر حياته . فهو يؤمن بأن الانسان يملك عقيدته كالسلحة ،
وهو حر في ان يساوم على عقيدته وفي أن يبدلها بالعقيدة التي يشاء (٣) .
فلو " شاء ربك لجنس الناس أمة واحدة ، ولهذا قال الله تعالى لا اكراه
في الدين " (٤) .

يبقى ان نذكر هنا ، ان الشدياق فارس ، الذي تنقل بين الاديان على
اساس حرية المعتقد ونصرة العقل ، ونقد المؤسسات الدينية على اساس ذلك ،
انما كان له هذا من ذيول قضية مرّة اسمها " قضية اسعد الشدياق " .

-
- (١) الساق على الساق . ص ١٨٦ .
(٢) قال فارس : " ٠٠٠ اذا ما بال الكنائس الفرنسية والنمساوية والانكليزية
والمسكوية والرومية الاورثوذكسية والروحية الملكية والقبطية واليعقوبية
والنسطورية والدرزية والمتولية والانصارية واليهودية لا تفعل هذه
الفضاعة والشناعة التي تفعلها الكنيسة المارونية . أم هي وحدها على
الحق والناس اجمعون على الباطل " . الساق على الساق . ص ١٨٦ .
(٣) الساق على الساق . ص ١٧٧ - ١٧٩ .
(٤) الجواب . عدد ٣٨٩ . السنة التاسعة سنة ١٨٦٩ .

الفصل الثالث

تشرد الشدياق وعائلته

تشرد اجداد الشدياق

ظلم السلطة

ظلم السلطة الشهابية لاسرة الشدياق

الظلم وتشرد والد فارس

معارضة اخوة فارس للسلطة وتشردهم

تشرد فارس الشدياق

معاناة الشدياق للتشرد

المعاناة الاشد

عداء فارس لنظام الحكم

تشرد من نوع آخر

رحيل الي اقطار اخرى

تشرذم اجداد الشدياق

لم يعيش الشدياق مستقرا ، ولم يعرف اجداده الترييون ولا البعيدون ذلك الاستقرار . فالمتتبع لتاريخ الشدايقية بمختلف فروعهم ، يجد ان هؤلاء لم يعرفوا الاقامة المستقرة في مكان . وانما كانت الازمات الاقتصادية والازمات السياسية تلاحقهم ، فتضطرهم الى الرحيل اما سعيا وراء لقمة العيش ، واما هربا من ظلم السلطة .

ومنذ انحدار الشدايقية من جدهم الاكبر شاهين المشروقي تشعبت فروعهم الى اكثر من ستين فرعا ، وتوزعوا في انحاء شتى من لبنان وسورية والعراق ومصر وسواها (١) . وقد هجر المشروقي جدهم الشدايقية موطنهم حصرون الى صدد الشرق في جوار حمص مع من هجرها من سكانها فرارا من ظلم المقدمين الذين حكموا البلاد قبل عهد حفيده المقدم خاطر الحصري ، ثم عاد اليها سنة ١٤٢٠ بعد ان استتب الامن فيها (٢) .

واذا نحن اعتبرنا ان التشرذم هو نوع من الهجرة غير المنظمة ، نسرى ان الاسباب التي كانت تدفع بالاسرة الشدايقية الى التنقل من مكان الى آخر ، هي ذاتها الاسباب التي كانت تدفع باللبنانيين الى ترك مكان اقامتهم ، وترك افراد عائلاتهم وتراب وطنهم ، والرحيل الى حيث نوع من الاطمئنان السياسي والهدوء الاقتصادي .

ولا شك في ان العامل السياسي هو دافع اقوى للتشرذم من الدافع الاقتصادي . ذلك ان العامل الاول يرتبط تلقائيا بالخوف من السلطة ، ومن اجحاف تلك السلطة بحق من يحمل رأيا يخالفها ولا يسير في خذلها السياسي ، وهذا ما لا يحدث في العامل الاقتصادي .

(١) مقدمة كتاب " الشدياق واليازجي " المأخوذ عن كراس خاص بقلم المؤرخ " بولس مسعد " . طبع مطبعة الاخاء بمصر سنة ١٩٢٤ . ص ١١ . تأليف الاب اندلونيو س شيلي .

(٢) المصدر نفسه . ص ١١ - ١٢ .

في هذه الحال يتجه التشرد الى ناحيتين : اولاهما تتأتى عن المتشرد نفسه الذي يضطر ملزماً ، وبسبب الحرص على عقيدته وحرية في اختيار الاتجاه السياسي الذي يشاء ، ان يترك مكان اقامته الى مكان آخر يستطيع فيه ان يمارس حرية بارتياح ، دون ان يفسح لنفسه مجالاً للاضطدام بالسلطة .

وثانيتهما ، يأتي فيها التشرد بحكم من السلطة نفسها . هذه السلطة التي تستطيع ان تأمر من ينامضها سياسياً ، ان يترك مكانه وينادر وطنه . وقد يكون في هذا الحكم القسري على المتشرد نوع من الرحمة . ومبعث الرحمة فيه ، ان السلطة بدلا من ان تستعمل السجن والتعذيب وحق القضاة على من يخرج عن طاعتها ، تستعمل حق الطرد من البلاد .

ولعلّ تشرد الشدايقة يعود الى رفضهم ظلم الحكام ، فحتموا هم على انفسهم بالتشرد تلقائياً ، هرباً من وجه السلطة . وكان الشدايقة تبعاً لذلك يرحلون لما يضطرب الامن ، ويعودون لما يستقر .

هذا الرحيل يرتبط اذا بالخط البياني السياسي للقرون الخمسة التي عاشها الشدايقة - بدءاً من القرن الخامس عشر الميلادي زمن الجد الجامع الشديساق شاهين المشروقي ، وانتهاءً باواخر القرن التاسع عشر ، زمن وفاة ادينا أحمد فارس الشدياق سنة ١٨٨٢ (١) . ومن البدهي ان ترتبط هذه القرون الخمسة بالاحتلال التركي الظالم للبلاد العربية ، وما تركه هذا الاحتلال من بصمات الاستبداد السياسي وبصمات قتل الروح الوطنية في نفس الشعب . وقد انعكس هذا الاستبداد بصورة خاصة على لبنان ، حيث السلطة

(١) عن كراس خاص " لبولس مسعد " والمنشور في مقدمة كتاب " الشدياق واليازجي " للاب انطونيوس شبلي . ص ١١ - ١٢ .

تتدرج بصورة عمودية : من الوالي التركي الذي يستمد سلطته من السباب
العالي ، وانحدارا الى الامراء المحليين الذين يتوالون على الحكم بفرمانات وخلع
ذلك الوالي (١) .

(١) (٠٠٠) جاء في كتاب " الفرس الحسان في اخبار ابناء الزمان " للامير
حيدر أحمد شهاب . ج ٣ . حوادث سنة ١٨٢٠ ما يلي : ٠٠٠ وأما
الامير بشير عندما تحقق ذلك ، التزم انه قبل كلما أمر به الوزير .
ورجع بطرس كرامة ثالثا الى عكا وبيده سند التمهيد . وفي ايراد الفين
كيس في ضمن ستين يوما . وفي وصوله انشرح خادما عبد الله باشا
على الامير بشير واكرم المعلم بطرس البستاني بخلعة سننية . .
وجاء في مرسوم عبد الله باشا الى الامير بشير ما يلي : " ٠٠٠ والان لاجل تأكيد
اشهار تمام رضانا وتوجهنا القلبي لنحوه موجبين له خلعة رضا من طرفنا - بنش
سمور مورث البهجة والحبور من خاص ملبوسنا وعلية مجومرة عن يد قدوة الاماثل
والاقربان خزينة دارنا حالا شاهين آشا زيد مجده . فالمراد الجميع منكم تتحتقوا
توجه رضانا ودفقوا خاطرنا على الامير المومنا اليه . . والان لاجل تأكيد رضانا عليه ،
مسلمين له خلعة الرضا (٠٠) ص ٦٥٢ - ٦٥٨ .
ملاحظة : هكذا ورد هذا النص في الأصل .

في ظلم السلطنة

كان الشعب زمن الشدايقة يقاسي اشد انواع الظلم السياسي ، وبشكل اهدر امكاناته البشرية التي يجب عليه ان يتوسلها في سبيل الانتاج الاقتصادي . فهو كان يعمل بارادة مشلولة لارضاء اميره اقتصاديا دفعا لظلمه وبطشه . وهذا الاخير كان يصل الى ظلم شبه ارضاء لواليه التركي الذي بسببه ان يعزله متى يشاء وان يثبته في ولايته متى يشاء . والوالي التركي كان يهدف بدوره الى ارضاء الإدارة العظمى . وهذه بدورها كانت تسعى جهدها الى ابعاد الشبح الاوروبي عن الهيمنة على مقدرات البلاد العربية تحت ستار حماية الاقليات الطائفية الدينية فيها .

وكان الظلم السياسي الواقع على الشعب ذا نوعين : مباشر ، وغير مباشر . ونعني بالمباشر ، ظلم الاسرة الشهابية الحاكمة . هذه الاسرة التي كانت تحكم الشعب بصورة تعسفية ولا انسانية . ونعني بغير المباشر ، ظلم الاتراك ، وفيما بعد ابراهيم باشا . والسلطة الشهابية التي كانت هي ايضا تعاني ظلما سياسيا من هؤلاء ، راحت بدورها تنقل صدى معاناتها تلك الى الشعب المسكين .

ولعل التقريرين اللذين كتبتهما Charles Joinine وترجمان القنصلية الفرنسية في بيروت ، و " Lobeth De Cordoba " السياسي الاسباني المشهور ، يعطيان اصدق معلومات عن طغيان السلطة الشهابية ، وعن ظلم الاتراك وابراهيم باشا وتطاحن الدول الكبرى في البلاد

ما بين ١٨٤٠ - ١٨٤٤ ، فالاستعباد - على ما جاء في تقريرهما - هو فوق كل تعبير ، والبلاد محكومة بطريقة فاسدة ، فإلا حكومة الا بالاسم فقط ، ولا يستفيد منها الا عدد قليل من الاتباع المتبرسين (١) .

(١) ذكر " Charles Joinine " في تقرير سرى عن لبنان ، وضعه سنة ١٨٤٠ ، والمنشور في " اوراق لبنانية " ، ج ١١ - السنة الثالثة - تشرين الثاني ١٦٥٢ ، ص ٤٦١ - ٤٩٥ ما يلي : (٠٠) ان طنيان الامير بشير قد قضى على بقية الامل ويجب ان تقال الحقيقة كاملة ، ولا أخشى ان يكون فيها شيء من المبالغة . فطنيان الامير بشير واستبداده الذي هو فوق كل تعبير ، والبؤس البالغ الناجم عن هذا الطغيان ، قد قضيا عن بقية الامل في صدور هؤلاء النساء حتى انسيان ما ضياع كلهم وقد اراني بعضهم في (معلقة الدامر والشويفات) منازلهم نصف المحرقة ، وديارهم المخرب . وقالوا ان نساءهم وبناتهم قد انتهكت حرمتين ، وان كهناتهم قد ذهبن امام الهياكل ، وان حقولهم قد احترقت واتلنت كلبسا ، واملاكهم قد نهبت . وكان الجميع يؤذون انهم سرهتون بضرائب تجسبي منهم ظلماسبع مرات او ثمانى مرات في السنة ، وسرهتون بتسخير ربتجنيد مستمرين ، مما اودى بهم الى اقصى البؤس ، وانه لم يبق عندهم مسكن يعيشون به

- وذكر " Lobeth De Cordoba " في وثيقة تحمل الرقم ١٢٦٥ من الملف ١٧٧١ في رباء وزارة الخارجية الاسبانية في مدريد ، منشور في كتاب " الاصول التاريخية للاب بولس مسعد ص ٥٤١ - ٥٥٣ ما يلي :
١- من جراء الحكم التعسفي اصبحت البلاد لا تنتج ما يسد حاجة السكان ، والايادات لا تغطي النفقات او اسراف الادارة ، حتى وجب على العاصمة ان تساعد السلطات الاقلية بمبالغ كبيرة لتقوم بالتزاماتها . وليس بتعريب أن نظاما يخضع لضغط البلس الاستبداد ، يخضب ويثير الذين تحلموا الآلام مدة اربع سنوات ونتائجها المرة كما انه ليس بحجيب ايضا أن كراهية الاتراك وبخسهم سيلنجان درجة قريية من المقاومة والهياج العام

كما نشير الى القصاص الذى انزله الامير بشير الشهابى ببني
الشدياق الذين اتهموا بالتعصب لاقاربهم حين ضربوا نفرين
من خدم الامير " (١) .

(١) وفي سنة ١٨١٣ ارسل الامير بشير رجلا لقصاص بني
الشدياق الذين اتهموا بالتعصب لاقاربهم الذين ضربوا نفرين من
خدمه . ففر فارس بولده انطوس الى الشويفات ملتجئا بالسك
حبوس الارسلانية وفر يوسف وولداه طانوس ومنصور الى قنوبين
ملتجئين بالبطرك حنا الحلو وفر باقي اولاد فارس ويوسف الى بعض
الامراء الشهابيين . ولما بلغ الامير فرارهم أمر أن تحرق منازل اقاربهم
الذين ضربوا النفرين وجرحوهما . فتوسطت الست حبوس والبطرك حنا
امرهم فطيب الامير قلبهم فرجعوا الى اوطانهم . ورجع فارس واخوه يوسف
الى خدمة الامير كما كانا . وتسلم فارس قرية شمسطار في بلاد بعلبك
وبسكنتا وتسلم يوسف الشوير ثم زحلة لجمع الاموال
" اخبار الاعيان " ص ٢٣٨ .

الظلم وتشرد والد فـارس

بعد تشرد طويل ، سمحت السلطة الشهابية لعائلة الشدياق بالدخول الى ديارها سنة ١٨٠٥ . ففي تلك السنة سمح للشدياق يوسف والد فـارس بالاقامة في كسروان ، فأقام في عشقوت بعد ان اشترى داري ابيه منصور وعمه بطرس فيها من بنت الشيخ صليبي الخازن ووالدتهما (١) .

وعلى الرغم من أن يوسف الشدياق عرف شطرا من حياته في تدبير شؤون حكام لبنان من الامراء الشهابيين ، الا انه لم يكن يهادنهم ، بل تصرد على ظلمهم ، واشترك في بعض الثورات ضدهم ، وبخاصة ضد الامير بشير الشهابي (٢) .

وتدبر عن ذلك التمرد بانضمامه الى احزاب كانت تناوى السلطة الشهابية الحاكمة في شخص الامير بشير ، الذي كان يقرض الاموال ، ويرفق كاهل الشعب بالضرائب الباهظة من أجل شراء خلق الولاية من الوالي العثماني والحصول على رضاه (٣) .

-
- (١) الشدياق واليازجي . ص ١٤ - ١٦ .
 - (٢) الساق على الساق ص ٩٦ ، واخبار الاعيان ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .
 - (٣) (٠٠) وابتدى الامير بشير في تدبير الالفين كيس التي تعهد بها . فاقترض من بازركان البلاد وغيرهم مكنن هو على قدر امكانه بموجب سندات منه بان يرجع لهم في الموسم القادم . واللب من النصارى ما هو مترجم عليهم من المعرى والخراج حسب عاداتهم ، وانا يكون في المعاجلة لاجل الايسراد الى خزينة عكا . واقترض من الشيخ بشير جنبلاط خمسمائة كيس ، ورجعها في الحال الى الخزينة واعرض الى الوزير انه مهتم بما يرضى خاطره الشريف . فرجع الجواب من عبد الله باشا يشكر من حسن اهتمام الامير واطاعته . فجمع الامير حالا خمس مئة كيس واوردها فرجع له الجواب تلمسين كالاول (٠٠ الف) .
- الغفر الحسنان في اخبار ابناء الزمان ج ٣ ص ٦٥٩ .
- ملاحظة : هكذا جاء هذا النص في الأصل .

وفي سنة ١٨٢١ ، صدف ان عجز الامير بشير الشهابي عن تدبير الاموال للوالي عبد الله باشا ، فترك بلاده وعياله وتوجه نحو بلاد الشام يتنكر صنفه خادرا للوالي عليه . وقد آلت الولاية حينها الى الاميرين حسن علي وسليمان سيد احمد . فاتخذ هذا الاخير يوسف الشدياق مديرا له . ولما كانت عامية لحفد في السنة ذاتها (١) اضطر الاميران الى محاربة الشيخ حمود النكدي ووزمائه .

(١) (٠٠) وقد كان عندما طلب الامير بشير من النصارى الخراج والاموال الاميرية بنير وقته آبوا عن الايراد واجتمعوا على نهر انطلياس وتحالفوا جميعا ان لا يوردوا في كل عام غير خراج واحد وميرى واحد في وقته ٠٠٠ وارسلوا عرض حال لعبد الله باشا ، وان الامير ظلمهم دون غيرهم . فرجع لهم جواب طيبان خاطر وانهم لا يوردوا غير مال واحد حسب عادتهم القديمة ٠٠٠ الخ .

ف عندما نظر الامير بشير انحراف خادرا عبد الله باشا باطنا لزود الطلب منه ، وتحقق امتناع اهالي البلاد عن ايراد المطلوب ، فحقق انه لا يد له من العجز عن تكميل ما تعهد به من الايراد ويكثرون سببا الى غضب عبد الله باشا عليه ظاهرا ٠٠ فحرر عرض حال الى عبد الله باشا يتضمن انه عجز عن معاطاة الاحكام . فترك بلاده واعياله وتوجه نحو بلاد الشام ينتظر صفاوة الخاطر نحوه ٠٠٠ وأما ما كان من عبد الله باشا ، فانه في الحال وجه المشايخ اليزبكية المقيمين عنده وخبثتهم عسكر وخلع الى الامير حسن والامير سلمان فالتقوا في جسر صيدا فلبسوا الخلع على حكم جبل الدروز) .

"الغمر الحسان في اخبار ابناء الزمان" ج ٣ ص ٦٦٠ - ٦٦٢ .

ملاحظة : هكذا جاء في الأصل .

وكان يوسف الشدياق واولاده طنوس ومنصور وغالب وبعض من أقاربه ، من جملة الذين ابلوا بلاء حسنا في القتال . ولما فشلت الثورة ، فرّ الاميران وصحبهما الى قرية تل منين قرب دمشق . وكان من جملة الفاريين معهما ، يوسف الشدياق واولاده الثلاثة وأقاربه . وكان يوسف مريضا ببلية الربو ، فاشتد المرض عليه هناك ، واصيب بداء الاستسقاء ، فمات عن ٥٨ عاما (١) .

وقد انتقم الامير بشير الشهابي من عائلة يوسف وأقاربه ، فأرسل جنوده الى موطنهم وبيوتهم ، فنهبوا الاثاث ، واحرقوا الاراضي ، والقوا الذعر والهول في القلوب . ففرت زوجة يوسف ومعها ابنها الصغير فارس الى دار آمنة تعود الى بعض الامراء . فلما هدأت الحال ، عادوا الى بيوتهم فوجدوها قاعا صفصفا (٢) .

-
- (١) الشدياق واليازجي . ص ١٥ - ١٦ . واخبار الاعيان في جبل لبنان لطنوس الشدياق . ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .
- (٢) الساق على الساق . ص ٩٧ .

في معارضة اخوة فارس للسلطنة وتشريد هم

وفي تتبعنا للوقائع التي تكشف عن علاقة السلطنة الشهابية بالشدياق ، نجد ان اخوة فارس لم يقفوا مكتوفي الايدي ازاء الاحداث التي اشترك فيها والدهم . فقد ساءموا بدورهم في الثورات ضد الامير بشير ، وتحرضوا للملاحقة من قبل السلطنة ، كما تعرضوا للنفي والتشريد والتعذيب ايضا .

فطنوس ، الشقيق الاكبر لفارس ، فر مع الاميرين حسن علي وسلمان سيد احمد من وجه الامير بشير امير البلاد وقتئذ على اثر فشل ثورة عامية لعهد المعروفة بعامية النصاري والتي اشربنا اليها في الفحات السابقة . كما ان اسعد الشقيق الثالث لفارس لم يستقر به مكان منذ اعتناقه البروتستانتية (١) . ونزح غالب الى مصر سنة ١٨٢٧ وعاد الى لبنان سنة ١٨٣٤ . وفي سنة ١٨٤٠ اشترك مع اعيان اللبنانيين وزعمائهم بعامية النصاري ، برغم من ان الامير بشير كان قد عينه كاتباً في ديوانه بعد عودته من مصر . وقد نفى غالب الى السودان من قبل الامير بشير نفسه بعد فشل العامية . ومات سنة ١٨٤٢ بداء الاستسقاء في فتوح كسروان . كذلك كان الامر مع الشقيق منصور (٢) .

وتحدثنا الرسائل التي تبادلها فارس شدياق من منفاه القصري في مالطة مع أخيه طنوس ، والتي نشرت في : اوراق لبنانية *

(١) يرجى الرجوع الى الفصل الثاني المتعلق بمأساة اسعد الشدياق .

(٢) الشدياق واليازجي . ص ١٩ - ٢٢ .

سنة ١٩٥٥ ، عن مواقف اخوته الجريئة في الثورة ضد السلطة الحاكمة (١) وعن نفيهم وموتهم ، وعن النكبات التي حلت بهم ، من مصادرة املاكهم وحرقتها ، ومن كيد الزمان لهم واضطرارهم الى الرحيل ابدا .

كما تحدثنا تلك الرسائل عن الألم العميق الذي كان يحز في نفس فارس من جراء ما حلّ باخوته ، دون ان يكون قادرا على المشاركة بقسم من محنهم وشو في البعد ، اللهم الا تلك الدريهمات التي كان يرسلها لهم بين الحين والآخر (٢) .

-
- (١) (٠٠٠) قال فارس في احدى رسائله : " وان اخي المذكور - يعني طنوس - كان يتجر ببعض شيء في منزله وسلب ما كان عنده من المتاع ايضا ، واصبح والاكدار محيطة به من كل جانب ، ولقد عز علي مصيره الى هذه الحال ، فضلا عما فقدناه وهو اعز من المال " (٠٠٠) . مالدلة - ٣ آذار ١٨٤٢ .
- منشورة في : " اوراق لبنانية " ج ٢ - آذار ١٩٥٥ - ص ٩٦ - ١٠٠ . (وقال فارس في رسالة أخرى : " ٠٠٠ ولم يبلغني شيء منكم او عنكم بعده ، سوى مكتوب من أخينا منصور ذكر فيه توعنكم بالحصى ، ومرضه بدهاء الاستسقاء ، ورحيل اخينا غالب من الحارة الى شزير ، وكل ذلك زاد في الوحشة وضاعف البلبال ، كذلك تواردت الاخبار بالحروب التي جرت بين الدروز والنصارى ، مما افضى الى احتراق الساحل كله ٠٠٠ الخ) مالدلة ٢٥ كانون اول ١٨٤١ . ومنشورة في " اوراق لبنانية " ج ٤ نيسان ١٩٥٥ - ص ١٤٩ - ١٥١ .
- (٢) راجع الفصل الاول ، الفقرة المتعلقة بـ " فقر الشدياق وسوءوليتيه العائلية " .

تشرّد فارس الشدياق

• تعود اسباب هجرة فارس الى ثلاثة عوامل : السياسة ، الاقتصاد ، الدين

بالنسبة الى العامل السياسي ، تعود هجرة فارس الى خوفه من انتقام الامير بشير ، بعد أن اشترك بنو الشدياق في التآمر عليه (الامير بشير الشهابي) ، واحباط الامير المذكور مساعيهم . وكان فارس يومها شابا تلمح نفسه الى الجهاد ، فدفعه الله الى الرخيل انقادا له من جور السلطة (١) .

بالنسبة الى العامل الاقتصادي ، يبرز الوضع المادي السيء الذي كان يأخذ بخناق عائلة الشدياق ، كما كان يأخذ بخناق الناس جميعا في ذلك الحين . وكان فارس يفكر في مغادرة لبنان الى الخارج من اجل طلب الرزق والعلی (٢) ، ان لم يكن " يرك في ما حوله ما ينشطه على ذلك وينهض به من حضيض الفقر لقلّة الوسائل واستبداد القوى بالضعيف " (٣) .

بالنسبة الى العامل الديني ، هناك قضية اعتناق شقيقه اسعد للمذهب البروتستانتي ، ونقمة البطريرك يوسف حبيش عليه ، ووقوف السلطة السياسية ممثلة بالامير بشير الشهابي الى جانبيه ، وتأثره هو بالبروتستانتية واعتناقه اياها قبل هجرته خوفا على حياته .

ومن المؤكد بعد هذا القول ، ان الاسباب التي حملت الشدياق على التشرّد وان كانت ترتبط في بعضها بالاسباب التي شردت عائلته ، الا انها كانت بالنسبة اليه أقوى فاعلية ، واعمتق تجرّبه ، ان جعلته يقيم في مطارح الخربة مرغما .

(١) الشدياق واليازجي . ص ٢٣ .

(٢) المصدر نفسه . ص ٢٢ - ٢٣ .

(٣) مجلة الهلال . ج ١٤ - السنة الثانية - ١٥ ايار ١٨٩٤ . ص ٤١٧ .

محنة الشدياق للتشرد

كان رحيل الشدياق عن لبنان مصحوبا باليأس . فقد كان يعتقد أنه حمل على الهجرة حملا ، برغم كل المبررات السياسية والدينية والاقتصادية التي تذرع بها . وكان في لحظة من لحظات يأسه يتمنى لو انه انصاع للتيارات السائدة وارتضى بها ، ويتمنى لو انه اقتنع بعدم قدرته على تجديد ما لا يمكن تجديده ، وتقويم ما لا يمكن تقويمه ، وهو الذي " ولد في الدنيا وعاش زمانا دون أن يخطر بباليه ما اختلف فيه فلان وفلان . . . " (١) .

والشدياق كان يدري حين ترك بلاده ، أنه لن يستطي العودة اليها قريبا ، وأن الارض التي عاش فوقها ، والاهل الذين ترعرع بينهم ، سينيب كل منهم عن عينيه وربما الى الابد . فهو منذ ان غادر لبنان في العشرين من عمره ، لم يعد اليه الا مرتين . المرة الاولى كانت في سنة ١٨٢٧ ، وقد جاء اليه سرا ولبضعة أيام (٢) ، والمرة الثانية كانت سنة ١٨٨٢ محمولا على نعش .

في هذا يكون الشدياق قد قضى سبعة وستين عاما في بلاد الغربة (٣) ، توزعت بين مصر ، مالطة ، اوروبا ، تونس ، وتركيا . ومن المرجح ان الشدياق لم يستطع العودة الى وطنه في فترة التشرد الاولى لاسباب عديدة . منها ، خطورة ما يمكن ان تحمله له العودة من مصير اسود كالذي لاقاه شقيقه اسعد ، ومنها ما يمكن ان تحمله له العودة من شعور بالنزد من الاهل والمقربين الذين تخلوا عنه . وعن شقيقه اسعد في لحظات شداد . يضاف الى هذا ، عجز الوطن الذي أحب عن تقديم حاجاته المعيشية في وقت كان فيه من تبقى من افسراد عائلته يرزح تحت وطأة حاجاته ، " وحتى لم يبق لهم شي " يدفعون به الاضطرار والعوز " (٤) .

(١) الساق على الساق " ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٢) جدد وقدماء . مارون عبود . ص ١٥٧ . والساق على الساق . طبع باريس ص ٤٦٣ .

(٣) ولد الشدياق سنة ١٨٠٥ . هاجر الى مصر سنة ١٨٢٥ . توفي سنة ١٨٨٧ .

(٤) رسالة لفارس الشدياق من مالطة ، منشورة في كتاب " الشدياق واليازجي " ص ٣١٧ .

المعاناة الأشد

ويقينا أن معاناة الشدياق في مالطة كانت اوجع منها في مصر .
فعلى ما يبدو ، احتضنت مصر الشدياق ، وعوضته بشكل ما عن الاحساس
بمرارة التشرد ، وغدت دلموحه الثقافي ، وشحنته بكتسبات حضارية جديدة
كانت - اى مصر - تسعى اليها في ظل محمد علي باشا .

فالشدياق اختلط بملء مصر ، واحرز ثقة رجال الخديوى ، وتعرف
بالفاضل نصرالله الحلبي ، وبالشيخ محمد شهاب الدين محرر الوقائع المصرية (١) .
وقد لازم هذا الاخير ، وقرأ عليه طائفة من كتب اللثة والادب ، وتخرج
عليه أفضل تخرج . وحرر في " الوقائع " وانشأ فيها فصولا رائعة بأسلوب
ينير ما الفه كتاب الحصر ، وقد أدى به الامر الى ان يتسلم تحرير
" الوقائع " بدلا من العلامة رفاعه الطهطاوى ، والى انتساب اعترام
الحكام وجهابذة العلم ، والسمو الى مكانة رفيعة عجز عنها الكثيرون ممن
جوله (٢) .

وعذا ما لم يحدث له في مالطة . فالرسائل التي تبادلها مع أخيه
طنوس اثناء وجوده فيها ، حملت صدق ارغامه على البقاء مدة اربعة عشر
عاما في جوم لم يستطع ان يتألف معه نفسيا او ثقافيا او اجتماعيا او صحيا .
ونحن نستقد ان الرسائل المشار اليها لم تحمل الا البض القليل ما كان
يعانيه الشدياق في مالطة . وبقي الكثير في نفسه غامضا ومبهما ويسكه عن
العودة الى الوطن .

(١) اعيان البيان . السندوسي . ص ١١١ - ١١٣ .

(٢) الشدياق وانيازجي . ص ٢٤ .

- في مالطة - وكما اشارت تلك الرسائل - تمنى الموت اكثر من مرة ،
وتمنى اللحاق بأخويه فيستريح (١) . فالشدياق لم يتلامم مع المناخ
القاسي في مالطة . المناخ الكثير التقلب ، الكثير البراغيث ، العظيم
الآفات (٢) . وقد اصاب بدء المفاصل الذي ندر أن يسلم منه أحد ،
في اول سنة . كان يقوم في الصباح موجع الاعضاء لا ينشط الى شيء ، وما
زال الامر يتزايد به حتى لزم الفراش (٣) . ولم يتلامم الشدياق مع السكان
المالطيين الذين يكرهون الغرباء ولا سيما العرب ، بحيث لا يتدر أحد ان
يستخلص منهم عشيرا (٤) هذا فضلا عن كثرة المتسولين والارباش فيها (٥) ،
وفضلا عن تعلق المالطيين كثيرا بالدين وبالكنائس والقساسة وايمانهم الشديد
بالاوهم والخرافات تحت تأثير المعتقدات الجاهلة والبيدة عن الضلوق (٦) .
ومع ذلك بقي الشدياق يقوم بمهامه في الجزيرة حتى ضاق باهلها ذرعا .
فهو لم يحصل من علاجهم على فائدة ، واصبح يحاول التخلص من عظمه (٧) ،
والتفكير في السفر الى استامبول علّ الله يفتح له فيها باب شغل (٨) .

-
- (١) (٠٠٠) ولعوت واحد خير من ميتات متعددة وبذلك كفاية ٠٠٠ ان احوالكم
يا أخي واحواننا لا تتحمل مزيد ضحك ونعس ٠٠) من رسالة منشورة في
" اوراق لبنانية - ج ١٢ - كانون الاول ١٩٥٥ ص ٥٦٩ - ٥٧١ .
(٢) الواسطة في مرفة احوال مالطة - فارس الشدياق - ص ٩ - ١٢ .
(٣) المصدر نفسه . ص ١٠ .
(٤) المصدر نفسه . ص ٤٠ .
(٥) المصدر نفسه . ص ٢٧ وما يليها ، وص ٤٦ .
(٦) (قال فارس في احدى رسائله : " ٠٠٠ ان المطبعة هنا لا يطبع فيها الا
كتب دينية لا تعلق لها بالمعارف أصلا . القسيسون الروحانيون بمالطة انشر
من العدد ، فهم يشنون افواجا افواجا ، وقل ان يرى في العالم كله بلدة
فيها ما في هذه الجزيرة من القسيسين والرهبان القانونيين . نكل اثني
عشر رجلا من الصوام عليهم قسيس ٠٠٠) رسالة منشورة في كتاب -
الشدياق واليازجي ٠٤ ص ٣١٠ - ٣١١ .
(٧) الساق على الساق . ص ٥٧٠ .
(٨) رسالة منشورة في " اوراق لبنانية " ج ١٢ . كانون اول ١٩٥٥ ص ٥٦٩ -
٥٧١ .

وقد يكون من المستغرب الا يشير من مَرَّ بسيرة الشدياق من الادباء
والمؤرخين الى تلك الفترة من تشرده الا بشكل عابر (١) . فقد اجمع
هؤلاء على أن الاسباب الداعية الى رحيل الشدياق من مصر الى مالطة
تعود الى ان صلته بالمرسلين البروتستانت لم تفرح ، فما ان سأله التوجه
الى مركزهم في جزيرة مالطة حتى سار اليها بأسرته . وكان الداعي لذلك
انهم كانوا قد انشأوا في تلك الجزيرة مطبعة عربية ، احتاجوا للإشراف على
منشوراتها الى اديب لغوى نظيره ، فوجهوه اليها . وبقيت في هذا ،
حقيقة المعاناة الانسانية مطموسة في قلب الشدياق ، دون ان يحاول أحد
الكشف عنها وتحليل انعكاسها على انتاجه الفكري وثورته .

(١) الشدياق واليازجي . ص ٢٦ - ٢٧ . اعيان البيان للسندوبسكي

ص ١١١ - ١١٣ . تاريخ الادب العربي لحنا الناعوري ص ١١٣٨ .

• مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر . جرجي زيدان ج ٢ ص ٨٢ الخ .

عداء الشدياق لنظام الحكم

كان الشدياق من اعداء نظام الحكم الميثاقى في بلاده . وقد ظهر هذا العداء في رسالة كتبها من مالطة الى نسيه " ضاهر الشدياق " بالخط الكرشوني خوفا من ان يطلع عليها أحد . وفي هذه الرسالة اظهر عداءه لنظام الحكم بشخص ناظر الخارجية ، هذا العداء الذي لم يستطع الكشف عنه خوفا على اقاربه في لبنان (١) .

ومن المؤكد ان هذا العداء الذي لم يظهره الشدياق ، هو ما حمله فيما بعد على طلب الجنسية الانكليزية التي انجمت عليه الحكومة بها ، والتي لم تكن تمنح الا لمن يستحقها (٢) ، و التي كانت ايضا متقيدة بشروط يتعذر توافرها في رجل ما لم يكن نظير فارس الشدياق (٣) . وقد احتفظ بهذه الجنسية ، خشية غدر السلاطين العثمانيين ، ربما لانه كان ينتقد سياستهم ضمنا ، وكان اتجاذه وهواه السياسي مع مصر (٤) .

وما يؤكد عداء الشدياق لنظام الحكم ، تسلمه الى الوطن سرا سنة ١٨٢٧ (٥) . وقد أشار الى هذا التسلم في كتابه

-
- (١) صقر لبنان . مارون عبود . ص ٩٨ . (وقد جاء ان هذه الرسالة ظهرت في مجلة المكشوف بخط الشدياق ، السنة الرابعة . ص ١١ . عدد ١٧٠ . تاريخ ١٧ تشرين الاول ١٩٣٨) .
 - (٢) شاهير الشرق في القرن التاسع عشر . جرجي زيدان . ج ٢ ص ٨٢ .
 - (٣) الشدياق واليازجي . ص ٢٦ - ٢٧ .
 - (٤) صقر لبنان . مارون عبود . ص ٩٨ .
 - (٥) (يرى مارون عبود انه في سنة ١٨٢٧ جاء احمد فارس الشدياق الى لبنان سرا . مما قاله لجماعة حينها : " ان رأس الفقير ليس بأضيق ولا أضمر من رأس الامير ، وان يكن اكبر عمامة منه واغلظ قذالا ") .
جدد وقدماء . مارون عبود . ص ١٥٧ .

"الساق على الساق" (١) ، كما اشار الى الانحطاط الجسمي والنفسي الذي كان يعانيه من جراء الغربة والبعد عن الوطن مكرها .

وربما زاد من عداة الشدياق لذلك النظام ، ما وتمت عليه عيناه اثناء وجوده على ارض الوطن . لقد رأى أن أهل الجبل قد خلعوا ربقة الطاعة لوالي مصر ، وعسكروا حول مداخل الناصبة ، ورأى ما عليه أهل المدينة من اضطراب وشفب . وتألم لرؤية التشرذم واليسوس والضياع يأخذ بالناس من مختلف الدبقات وفي كل مكان . وتأكد ان الذي دفعه الى ترك ذلك الوطن الحبيب قبل سنين ، قد زاد سوءا ، وزاد معه بطش العثمانيين وظلمهم واخذهم بخسناق الشعب (٢) .

(١) الساق على الساق . ص ٤٦٠ .

(٢) المصدر نفسه . ص ٤٦٩ - ٤٧٠ .

تشرذ من نوع آخر

ونحن نقصد به ما يسمى بالتشرذ النفسي الذي عصف بالشدياق ،
والذي كان اكثر مضا و ايلاما من اى تشرذ آخر .

وتشرذ الشدياق هذا ، يعود الى العلاقة الخاصة التي كانت تربطه
بزوجته ، والتي لم تسمح له بحياة عائلية مستقرة تخفف عنه آلام الغربة ،
وارهاق العمل (١) . ولا شك في ان القصول الرائعة التي كتبها الشدياق
عن المرأة ، ليست الا صدى لتلك العلاقة التي سببت له تشرذا نفسيا
من نوع خاص .

ما استطعنا استنتاجه ، ان الشدياق كان يعيش حياة زوهمية
يغلفها الرياء والمداهنة والخيانة . فزوجته خارجة عن دماغه ، لا تتصرف
الا بما تستصوبه ودون اية مراعاة لشعور شدياقها . والزماء قد أفلتت من
بين يديه ، فلم يعد بمقدوره كسح جراح حرية زوجته ، حتى صار يتمنى لو
يستطيع الانفصال عنها ، او ارسالها الى اى مكان ليرتاح من عنائهما ببعض
الشيء (٢) .

ونحن لا نستطيع الجزم بالاسباب التي ادت الى وجود تلك العلاقة
المتوترة بين الشدياق وزوجته . الا أننا وقعنا على اشارات في كتابه

(١) (٠٠) ألم يكف ما كنت أقاسيه معك في البيت حين كنت اغدو منسه
كادحا وارجع اليه رازحا ، وكانت همومك كلها علي ولومك كلسه
متوجها السي . فكنت انصب لراحتك . . . فقد تبين الآن اينا ذو أمانة
ومداهنة وخيانة (٠٠) الساق على الساق . ص ٤٦٤ .

(٢) من رسالة منشورة في " اوراق لبنانية " ج ١٢ . تاريخ كانون اول ١٩٥٥ .
ص ٥٦٩ - ٥٧١ .

"الساق على الساق" ، أمكنتنا ان نستخلص منها اصابة الشدياق بالمرض والنحول والضعف الجنسي (١) ، وخيانة زوجته له .

ولعل أكثر ما ألم الشدياق ، ان زوجته لم تحترم قدسية العلاقة الزوجية ، ولم تحترم اصابته بهذا الضعف نتيجة الظروف القاسية التي كان يمر بها ، بل راحت تشهر بمماناته هذه لدرجة جعلته مهيبا يتحطم نفسيا .

ولم يتردد الشدياق في تحميل زوجته (٢) مسؤولية الضعف الجسمي والنفسي الذي وصل اليه ، ولم يتردد في اتهامها بالكفر بقدسية الحياة الزوجية ، وفي تهديدها بالضرب وبمعاملتها بالقسوة ان هي ثابتت على اذاعة عيبه بين الناس (٣) .

في خضم الألم النفسي هذا ، اختمرت التجربة في اعماقه وتبلورت . وكان عليه أن يبحث عن مخرج يخلصه من الازمة قبل أن تقضي على البقية من جسده وروحه . وكان الرحيل الى اقطار أخرى .

(١) قال الشدياق : " ٠٠٠ أمن أجل هذا حسنت لي السفر بأن قلت لسبي ذات ليلة اني اري بك يا رجل فتورا . فلو سافرت الى ارض طيبة لعاد اليك نشاطك القديم فعدنا الى ذلك النعم . أفكانت هذه حيلة منك على تفريقي ليخلو لك الميدان فتمرحي فيه كيفما شئت وتتعاطي على جس النبض وحركات الاعضاء . الم يكن لي نبض كسائر الناس فتحملي به هذا العلم الجليل . أم تزعمين انه ضعيف لا يصلح لأن يتعلم عليه . على انه ان يكن قد ضعف فانما ضعف بسبك . وعهدى به من تبيل ليلة عرسنا له ضربان وانتفاض ، افهكذا يفعل المتفارقون ، وبمثل هذا يخون المترفقون . ايحل لك من الله ان تتعمي الآن وأنا نفسي حالة البؤس والشقاء " . (الساق على الساق . ص ٤٦٤) .

(٢) تزوج الشدياق من بنت الصولي من اعيان السوريين أثناء وجوده في مصر . الشدياق واليازجي . ص ٢٤ .

(٣) قال الشدياق : " ٠٠٠ وانت ان ابنت الالجهد والمكابرة ، فالهراوة لدى حاضرة ، واليد للطم واللحم مبادرة . فاذا امسكت ناصيتي ارجيبي ، واذعت بين الجيران عيبي ، جعلت لك من الشجاب صليبا " . (الساق على الساق . ص ٤٦٦) .

رحيل الشدياق الى انكلترا آخرى

لم يتردد الشدياق بعد هذا في السفر الى بلاد الانكلترا للقيام بالمهمة التي اوكلت ، وهي مهمة ترجمة الكتاب المقدس (١) . وربما رافق الشدياق الى هناك طموح اكبر جعله يقارم اية مشكلة يحملها في نفسه ، او قد تواجهه من جديد في بلاد الانكلترا ، وهو الذي ألف او كاد يالف اوجاع التشرد التي عاناها في مالطة .

كان الشدياق يعلم انه مسافر الى بلاد جديدة لا تطلع عليها الشمس (٢) ، والى غربة جديدة لا يعلم ماذا تخبئه له من مفاجآت . لكن الدافع في نفسه كان أقوى من مشبطات العالم أجمع . وقد قضى الشدياق عشرة اعوام متجولا في اورزبا (٣) ، ولم تعفه تلك الاعوام المشرة من متاعب كثيرة حلت به (٤) ، حتى دخل في خلده انه لا يمكن له أن " يدخل بلدا خصيبا الا ويفارقه ممحلا " (٥) .

لكن في باريس ، ملتقى الكثيرين من الرأئحين والفادين ، وموطن لا مارتين وشاتوبريان ، والعديد من المستشرقين والباحثين والساعين وراء المعرفة ، والتي قرأ رأى الشدياق على الإقامة فيها ، يحدث ما يغير الظروف ويقلبها من حال الى آخر .

فقد صدف ان حضر الى باريس " المولى المعظم أحمد باشا باي والي أيلة تونس المفخم " ، ووزع على فقراء مرسيليا وباريس وغيرهما اموالا جزيلة ، ثم عاد الى بلاده . وقد تأثر الشدياق بأريحيته أعظم التأثير . فنظم قصيدة يهنئه فيها ، وارسلها اليه . فما كان من الباي الا ان ارسل له بارجة حربية تحمله الى تونس ، وحيث لاقى الاكرام والتعظيم ، ولاقى الفنى بعد فقر ومرارة . وحيث اعتنق الاسلام هناك (٦) .

(١) الساق على الساق . ص ٥١٧ .

(٢) المصدر نفسه . ص ٥٢٥ .

(٣) الشدياق واليازجي . ص ٢٦ - ٢٧ .

(٤) (منها وفاة ولد صغير له في انكلترا) . الساق على الساق . ص ٦٠٥ - ٦٠٦ .

(٥) الساق على الساق . ص ٦١٥ - ٦١٦ .

(٦) المصدر نفسه . ص ٥٦٥ .

ومع أن الفرج اتى الشدياق في تونس وبعدها في تركيا خاتمة
مدطاف تشرده ، وهو الذى خاف ان يذهب عمره هدرا قبل أن يأتيه
ذلك الفرج ، الا انه يبقى ذلك الانسان الذى طاف انحاء كثيرة من
العالم ، وفي عينيه صورة ودلن تلاحقه اينما حل ، ويتوق الى لقياه
حتى وهو في ذروة النعيم .

ولئن كان ذلك التشرد نكبة نفسية على الشدياق ، الا انه من
ناحية أخرى فتح له آفاقا جديدة ، ووجهه نحو رؤيا جديدة
كانت من أهم البواعث على رفضه وثورته فيما بعد . .

x x x
x x
x

الفصل الرابع

الشدياق وتيارات النهضة العالمية

في نتائج الهجرة

في مدرسة الوثائق

في أوروبا

احتكاك الشدياق بالثقافة الأوروبية

في قلب المجتمع الأوروبي

عيشه بين المتناقضات

في ختام البواعث

في نتائج الهجرة

شكلت الهجرة ، بأسبابها السياسية والدينية والاقتصادية ، مرحلة بالغة التأثير في حياة الشدياق . ونحن نستطيع الوقوف على أهميتها من ناحيتين :

أولا : أهمية هجرته الى مصر ، في وقت كان فيه نابليون بونابرت قد ترك بذور النهضة تتفاعل فوق ارضها ، وفي وقت كان فيه محمد علي باشا قد استلم مقدراتها الثقافية ، وراح يدفع به الى الامام .

وكانت مصر حين جاء اليها فارس الشدياق ، تفتح ذراعيها لكل الوافدين التائمين الى البذور النهضة الجديدة . وكانت في الوقت نفسه تعمل على الاحتكاك احتكاكا قويا وشديدا بالتيارات الاوروبية . فترسل البعثات الى الخارج ، وتفتح المدارس على اختلاف فروعها ، وتشجع الترجمة من اللغات الاجنبية الى العربية . وكان يمكن القول ان شعلة النهضة بدأت ترسل شرارها من مصر لتصل الى كل من يريد الخلاص من الظلم الدامس .

وكان على فارس ان يتفاعل مع هذا التيار الناشط الذي فتح له ذراعيه ، وان يعمل على التكيف معه بقوة . فهو حين أتى مصر ، كان مزودا ببعض الثقافة وبكثير من الضيق والتبرم . كان مزودا بما تيسر له من ثقافة تلقاها في مدرسة الاولى ، وفي مكتبة ابيه وحضن أخيه ، ومن حرفة النساخة . لكنه كان غير مقتنع بما يحمله ، وكان يتلمس شيئا جديدا ومختلفا ، فلم يستطع الحصول عليه في بلده ، فوجدته في مصر .

ثانيا : الصعوبات التي لاقها اثناء وجوده في مالطة طوال ١٤ سنة .
من سنة ١٨٣٤ - الى سنة ١٨٤٨ . وبقاؤه في مهنة التعلم في مدارس
الاميركان (١) ، ورتابة عمل التصنيف والتصحيح والطباعة في مطابعهم ،
ومواجهة متاعب عائلية مع زوجته ، وصدامه مع الواقع الذي بقي عليه
لبنان منذ مغادرته اياه . هذا الى جانب الكوارث العائلية الجديدة التي
داهمت عائلته الكبرى في الوطن ، والتي تسببت في فقد اثنين من اخوته
والكثير من اقاربه . ثم الضيق المادي الذي كان يعانيه ، والتوترات العقائدية
التي زافت وجوده مع البروتستانت لمدة طويلة ، والمناقشات التي كان
المجادلون يفرقون فيها دون ان يصلوا الى موقف موحد . وهذه المناقشات
كانت تنتهي احيانا بأن يكفر الناس بعضهم البعض ضمن الطائفة الواحدة ،
وبخاصة تلك التي سببتها المسائل الدينية التي تقف منها النصوص موقفا
غير واضح .

كل هذه الصعوبات ، جعلت من فارس الشدياق نموذجا من
نوع خاص ، يواجه تيارات النهضة بشقة ، فيقبل منها ما يشاء ،
ويرفض منها الذي يشاء .

(١) اعيان البيان . السندوبي . ص ١١١ - ١١٣ .

بين تيارين : واجه الشدياق فوق ارض مصر تيارين متكاملين :
تيار المدارس الاميركية ، و تيار المدارس الوندانية المحلية .

الاولى تحمل التفكير الغربي في ارض الشرق ، والثانية تحتضن آمال
الرعي العربي الذي بدأ يضح كل امكاناته في سبيل تغيير ثقافي شرقي منطلق .

مع الاولى ، التبشير الثقافية الجديدة الآتية من الغرب ، ومع الثانية تبشير
الازهر النواة الاصلية للثقافة التي ابقت على الفكر العربي وحالت دون طمس
معالمه خلال قرون الظلام الطويلة . ومع الازهر وبقية المدارس التي انشأها
محمد علي باشا ، والتي بلغت حوالي ٥٠ مدرسة او ما يزيد ، يتحتم الترجيح بأن
المنطلقات الجديدة فيها ستركز على اللغة العربية ومقدار ما يمكن ان تحمله من
منطلقات ثقافية حيوية ، وعلى التفكير الاسلامي الذي تعتبر اللغة العربية احدي
ركائزه المتينة .

بين هذين التيارين المتلازمين ، تيار المدارس التبشيرية ، و تيار المدارس
الوطنية المحافظة على التراث ، كان الشدياق يمارس تفكيره الشاب ، ويلزم معه
الصراع بين اصحاب الاساليب الجديدة الذين ذهبوا الى اوروبا ببعثات محمد علي باشا ،
وبين الاساليب القديمة التي كان يحافظ عليها شيوخ الازهر . وقد كانت المواقف
بين الاثنين عنيفة ، وهذا العنف كان مبعثه تلك النظرة التقديسية التي يتدلع بها
المسلمون الى لغة القرآن (١) .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية - جرجي زيدان - ج ٤ ص ٣١٥ .

كان يترأس حملة التجديد في الفترة التي حطّ فيها الشدياق اقدامه في مصر ، رفاعة الطهطاوي (١) ، الذي رافق البعثة المصرية الى باريس وكان اماما ومعلما لها . وبالرغم من الحملة الثقافية التي قام بها محمد علي باشا ، وجد الشدياق ان هذا الاخير الذي كان لا يزال يهادن العثمانيين متأثرا بعقليتهم بحكم المنشأ والتربية ، يتجه الى محاولات ترمي الى جعل اللغة التركية لغة التعليم . وقد أصدر " الوقائع " في بادئ الامر باللغتين العربية والتركية (٢) . لكن هذه المحاولات ماتت في مهدها نتيجة اتساع انتشار اللغة العربية بين سكان مصر الكثيرى العدد .

وامام هذه التيارات المتلاطمة من محاولات الاصلاح على مختلف المستويات ، كان على الشدياق ان يتصل باصحابها ، وان يندمج في تياراتها ، ويرافق مجتمعاتها ومنندياتها ، وان يبحث عن ينتسب له تلميذا وبحاجة فكر .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية . جرجي زيدان . ج ٤ ص ٢٩٦ .
ترجمة الطهطاوي .

(٢) تاريخ الصحافة المصرية . ج ١ ص ٤٩ .

في مدرسة الوقائع

ولا خيار في القول هنا ، ان " الوقائع " كانت مدرسة صحافية وفكرية اعطت الشدياق القدرة على صبّ خزينه الثقافي ، والقدرة على ترمين اسلوبه وتحريكه بعد فترة التقليد التي مرّ فيها اثناء ممارسته لحرفة النساخة . وقد كانت " الوقائع " هذه احدى ارائل الصحف التي انشئت في الشرق العربي .

ولا شك في ان " الوقائع " منحت الشدياق الفرصة كي يكتب باسلوب جديد يخالف الاساليب القديمة التي اعتادها كتاب عصره . وكما ذكرنا سابقا ، فقد التقى الشدياق في الوقائع " برفاعة الطهطاوي " والشيخ " محمد شهاب الدين " . ولنا ندري الى أي حد استطاع الشدياق التأثر " برفاعة " هذا ، والذي تشقّف بثقافة غربية واسعة ، لكنه لم ينجح بكتابة عربية متميزة او على الاقل مختلفة عما كان سائدا في بداية القرن التاسع عشر . من هنا ، يمكن القول بأن تأثر الشدياق به كان في الاسلوب الصحافي ، لا في الاسلوب الانشائي . بينما كان تأثره واضحا بالشيخ " محمد شهاب الدين " الذي تخرج على يديه أحسن تخرج ، على ما قاله السندوبي (١) .

ولعلّ الشدياق كان يزور الى اسلوب جديد يبدعه ويمارسه ، في الوقت الذي كان يتابع فيه مطالعته في مصر ، والتي ذكر لنا بعضها ، ككتاب " بحث المطالب " و " التلخيص في المعاني " و " السلم للاخضري " و " الكثر " و " الرسالة السنوية " في الفقه وعلم الكلام ، و " شرح الكافي " في علم العروض . الخ (٢) .

ولم تكن هذه الكتب التي طالعتها الشدياق في مصر تختلف في اساليبها عما قرأه في لبنان . وقد آمن بأن هناك اسلوبا جديدا يتطلبه العصر ، ويتجاوز التقليد ، ويستطيع ان يعبر عن الواقع الحياتي المتغير الذي بدأت ممارسته مع تبشير النهضة . فكانت " الوقائع " خير مدرسة كتابية استوعبت جديد الشدياق وابداعه ، هذا الابداع الرصين الذي حمله الى سدة تحرير " الوقائع " بدلا من شيخها " رفاعه الطهطاوي " .

(١) اعيان البيان . السندوبي . ص ١١١ - ١١٣ .

(٢) الساق على الساق . ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

في اوروبا

والخربة وان كانت على تعدد مطارحها قد آلت الشدياق من ناحية ،
الا انها كانت نعمة وخيرا عليه من ناحية اخرى . فتد دفعته الى الاحتكاك
بالنهضة الاوروبية عن كثب ، سواء أكان ذلك على الصعيد الاجتماعي أم الصعيد
الثقافي . واذ كانت فترة اقامة الشدياق في مالطة لم تجعل منه اكثر من
مكافح في سبيل لقمة العيش ، ولم تجعل منه اكثر من استاذ ومصحح
في مطبعة ، فان فترة اقامته في اوروبا تعتبر بمثابة لقاح جديد لثق
الشدياق الطموح بلقاح نهضة غربية متطورة ، ودفعه الى المقارنة ما بين
واقع بلاده وواقع البلاد الاوروبية والى الخروج من ذلك بمعطيات قيمة على
صعيد الرفض الاجتماعي والديني والاقتصادي وسواه .

اكتسب الشدياق في اوروبا خبرة جديدة وعادات جديدة ، بعد
أن " رأى بلدا غير بلده واناسا غير اناسه " (١) ، وبعد أن سمع
بانبيته ما لم يسمعه ، واختبر احوال غير قومه وعاداتهم واطوارهم .
وتعرف الى اخلاقهم ومذاهبهم وسياساتهم ، وبعد أن قابل ما بين
الحسن عندهم وغير الحسن عنده (٢) .

كان هناك ما يجب اكتسابه من مفاخر اوروبا ، وكان هناك
ما يجب رفضه من موجوداتها التي لا تتناسب وروح الشرق وقيمه .

(١) الساق على الساق . ص ٥٠٦ .

(٢) المصدر نفسه . ص ٥٢١ - ٥٢٢ .

ومن أهم المقاصد الأوروبية التي يحتم الاطلاع عليها والاخذ بمثلها ،
المدارس والمطابع وخزائن الكتب والمستشفيات والمخالب - ان الاماكن
التي يخطب فيها العلماء في كل العلوم والفنون - (١) . فكما أن
"الانسان يشتري من الافرنج الخبز والمتاع ، فعليه ان يشتري منهم
العلم والحكمة والآداب " (٢) .

هكذا كان الشدياق يرافق التطور في اوروبيا ، مؤمنا بأن
التغيير يجب ان يشمل بلاده ، من حيث ان الدنيا في عهد الاجساد
والآباء لم تكن كما هي الآن . فلا سفن نار في ذلك العصر ، ولا دروب
حديد تستطيع تقريب المسافات ، وصهر العطاء والابداع الانسانيين (٣) .

-
- (١) الساق على الساق . ص ٥٢٢ .
(٢) المصدر نفسه . ص ٥٢٤ .
(٣) المصدر نفسه . ص ٥٢٤ .

في ثقافة الشدياق الاوروبية

ومن المؤكد ان الشدياق حرص خلال اقامته في اوروبا على تخزين ثقافة غربية عميقة . اذ انه اطلع على نتاج الكثيرين من المثقفين الغربيين المعاصرين وغير المعاصرين ، كما التقى بعضهم وناقشه .

اقام الشدياق اثناء وجوده في انكلترا بمدينة Cambridge حيث دعي لترجمة الكتاب المقدس (١) . وزار Oxford واحتك بثقافة مساهدا . ولا شك في ان هاتين المدينتين كانتا تحتبران محجيين لطلاب العلم من مختلف المناطق وفي مختلف فروع المعرفة . ومن البدهي الا يكون الشدياق قد مر بهذين المركزين الثقافيين المشهورين مرورا عابرا ، وهو الذي كان يفرف من معين الثقافة اينما وجد . وقد اشار الى الدكتور Lee استاذ العربية في Cambridge زمن وجوده فيها (٢) .

وقد يمكن الاستنتاج من خلال مؤلفات الشدياق انه كان مطلعا على Homère اليونان و Virgile الرومان ، Tasso الطليان ، Sheller النمسا Molière et Racine فرنسا ، Shakespeare, Byron, Milton انكلترا (٣) . وكان مطلعا ايضا على الانتاج الفكري لرجال الدين الانكليز ، ومتسقا مؤلفاتهم ، نذكر منهم : Dine Swift, Estern, John Clélende كما تصقب مؤلفات رجال الدين الفرنسيين ، ومنهم Rabelais (٤) .

اجتمع الشدياق اثناء وجوده في باريس بـ " Lamartine " الشاعر الفرنسي المشهور (٥) ، وتعرف بالعالم المحروف Quatremère ، وبالمستشرق Caussin de Perceval وبالمدرس Renault . وزاره فيها بعض نبلائها ، منهم De Beaufort (٦) .

(١) الساق على الساق . ص ٥١٧ ، ٥٤٣ ، ٦١٥ .

(٢) الساق على الساق . ص ٥٤٣ ، وكشف المخبا في فنون اوروبا . فارس الشدياق . ص ١٢٧ .

(٣) الساق على الساق . ص ٥٦٧ .

(٤) المصدر نفسه . ص ٥٨٥ .

(٥) المصدر نفسه . ص ٥٧٨ .

(٦) المصدر نفسه . ص ٦٣٩ .

وسواء كان التصاق الشدياق بهؤلاء متينا ، أم كان مروره بهم عابرا
كما يطلق هو على ذلك في قوله " ٠٠٠ " وان كانت معرفته بهم كاداة التحريف
في قولك اذهب الى السوق واشتر اللحم " (١) ، فان هذا ولا شك يعاينا فكرة
واضحة عن المظلة الواقية من الثقافة الغربية التي احاط الشدياق نفسه
بها الى جانب ثقافته العربية المكيئة ، مما أهله الى بناء نقده الرافض
الادبي واللغوي على دعائم راسخة من الاطلاع .

الى جانب هذا ، فان الروح النقدية التهكمية التي تأصلت في الشدياق ،
تجعله غير بعيد عن Voltaire الذي ذكره في اكثر من مكان في كتابه
"كشف المخبا" مستشهدا ببعض آرائه في معرض كلامه عن الديين
ورجاله في انكلترا (٢) . واذا نحن أخذنا بما قاله الشيخ "نسيب وهيبه الخازن" ،
الذي قدم لكتاب "الساق على الساق" وعلق عليه ، يكون الشدياق قد عاصر
الجو الثقافي الغربي التالي :

"كان الشدياق معاصرا للرومانتيين . اذ ولد فارس بعد ٣٤ سنة من
تاريخ انتحار الشاعر الانكليزي الرقيق Chatterton في الثامنة عشرة ، وفي
سنة وفاة Sheller ، وبعد ١٤ سنة من مولد Lamartine الذي
عاصره واتصل به ، وستين من مولد Hugo و ٦٤ سنة من مولد
Chateaubriand وقد عاصره ٤٤ سنة واتصل به مرارا ، وعاصر Goethe
زعيم الادب والشعر الالمانى طوال ٢٨ سنة ، كما نعرفه عبر عن
كل نزعات البشر ولم يخضع لمدرسة من مدارس الفلسفة واللاهوت والآداب ،
كما عاصر اللورد Byron طوال ٢٠ سنة ، و Byron نائرا في كبرياء
على التقاليد والاورام ، وعاصر Ernest Renan (١٨٢٣ - ١٨٩٢)
الناقد الديني طوال ٦٤ سنة ٠٠٠ (٣) .

(١) الساق على الساق . ص ٦٣٩ .

(٢) كشف المخبا في فنون اوربا . ص ١٩٥ - ١٩٩ .

(٣) الساق على الساق ، المقدمة . ص ٦١ - ٦٢ .

وان " الروح الموسوعية التي سادت القرن الخامس عشر ، ظلت
جاثمة في الاثير الى أن تلقح بها فارس الشدياق ، وكان قول الفيلسوف
ابن رشد مصداق لمذهب القائلين بمادية الروح واثيريتها ، وحلول
الروح الانسيكلوبدية ، روح فولتير وديرد على فارس الشدياق " (١)
ولا شك في أن هذه الثقافة الموسوعة حوّلت الشدياق الى ذلك الناقد
الرافض اللغوى والاجتماعي والديني . ونحن نرى جماع نقده هذا
في كتبه المشهورة " الساق على الساق " و " الجاسوس على القاموس "
و " سر الليال في القلب والابدال " ، كما نراه في مقالاته في " الجوائب "
و " كشف المخبا في فنون اوروبا " .

(١) الساق على الساق . المقدمة ص ٦٢ .

في قلب المجتمع الاوروبي

حين غادر الشدياق وطنه لاول مرة ناقما على الاوضاع الاجتماعية والثقافية والدينية ، لم يمر بالمجتمع الاوروبي بعاداته وتقاليدہ ، بحسناته وسيئاته مرورا عابرا . فقد رأى في اوروبا من " العجائب ما انساه نعيم بلاده ، والهاه عما الفه في مقامه الكريم " (١) .

وكان اثناء وجوده في تلك الاصقاع يفكر في خلو بلاده من التمدن ، ويفكر في الحياة المدنية الراقية حوله ، وفي انتشار المعارف والثقافة ، وفي تقدم الصناعة والتجارة والزراعة ، مما لا يوجد مثله في وطنه ، وما جعله يخلو الى نفسه احيانا مفكرا في وسيلة ينقل بها ما يراه الى ربوع البلاد التي هجرها . وقد وجه كل " همه نحو حث اخوانه على الاقتداء بتلك المفخر " (٢) .

الا أن الشدياق من خلال نقده اللاذع لمجتمع البلاد الاوروبية بخاصة ما تعلق منه بانكلترا وفرنسا ، يعطينا فكرة واضحة عن عدم تقبله لتلك المظاهر الحضارية التي بهرته . فهو حين غاص في قلب المجتمع الاوروبي ، كشف عن عوراته دون مهادنة او مجاملة ، بالقدر الذي اعجب ببعض مظاهر حضارته ورقبته غاية الاعجاب .

لقد اوجعته طبقة المجتمع في اوروبا ، واوجعه حال الفلاحين في القرى وحال العمال في الاحياء الفقيرة . اوجعه ان يرى في ذلك " الصقع الجليل انوار السيادة والسعادة تسطع من ابراجهم العلوية ، وان يرى الخدم والحشم والخيل المطهمة والعواجل النفيسة ، والموائد تميد بما عليها من الاطعمة الفاخرة المجلوبة من جميع البلدان (٣) ، بينما تتيه الكلام على كثير من بني آدم

(١) الساق على الساق . ص ٥٢٥ .

(٢) كشف المخبا في فنون اوروبا . المقدمة ص ٣ .

(٣) كشف المخبا . ص ٣٧١ .

من يتضورون جوعا ويهلكون من الوبسج والصرى ومن كل اللحوم
المننتة في ازقة لندرة القذرة ، اذ ليس بين الجنة والجحيم في
هذه المدينة بعد ما بين الجنة والجحيم في الآخرة * (١) .

(١) (٠٠) جاء في بعض الصحف أن مائة وثمانين نفسا ما بين رجل وولد وامرأة
وولد يسكنون في ٣٤ حجرة . وفي اخيار الكون ، كان يمكت في حجرة
واحدة من ١٤ - ٢٠ نفسا ليلا ونهارا ٠٠٠ وفي موضع آخر يسمى ساحسة
فلنشر حجرتان لا تزيدان على سبع اقدم عرضا في عشر طولا ، وقد اشتملت
على ٢٨ نفسا ما أحد يعرف القراءة وليس تحتهم ولاء سوى التبن ولا غطاء
لهم في الليل سوى ثيابهم التي يلبسونها في النهار ومع ذلك فان هذين اذا
قيسا بغيرهما من البيوت المجاورة كان لهما حرمة واعتبار ٠٠٠ وكثيرا ما ترى
النساء يشين في الشتاء حافيات ويلتقطن الجذور وفتات الخبز *
كشف المخيا . ص ٣٧٢ .

عيشه بين المتناقضات

هذا الفحص في اعماق المجتمع الاوروبي جعل الشدياق يعيش بين المتناقضات . فهو من ناحية كان يساير مواكب النهضة الاوروبية الصناعية والثقافية والاجتماعية ، ومن ناحية أخرى كان يساير انعكاس تلك النهضة على المجتمع . ولكن هذا التناقض ان صدمه على الصعيد الانساني ، فتد صقله وبلوره على الصعيد النهضوي ، مما جعله يخرج بحقيقة متوازنة عن النهضة وكيف يجب أن تكون .

ولعل احساس الشدياق بصدمة المعطيات الخربية ، لم يمنعه من الاعجاب بحرية الغرب ونظامه ومنطقه واخترعاته . ففي الوقت الذي رأى فيه الشدياق فقرا وقذارة وجهلا يعم بعض الامكنة ، رأى ايضا ان " التاجر المشرى هناك لا يتختم بخواتم الماس والزمرد ولا يتحلى بسلاسل الذهب ، ولا يقتني النادر من الاثاث والماعون والقرش ، بل انما ينفق امواله في سبيل البر واغاثة المهوفين وفي انشاء المدارس والمستشفيات ، وفي تصليح الطرق وتحسين المدنية وازالة الاوساخ والنفوسات منها ، وفي ان يربي ولده بالعلم والادب والفضائل " (١) .

وليس من بيت في اوروبا الا وفيه اضبارة من الصحف ، وان لكل انسان عندهم ممن لا يعد من الاغنياء والفقراء خزانة كتب نفيسة في كل علم وفن ، وان اكثر فلاحهم يقرأون ويكتبون ويطلعون الوقائع اليومية ، ويسرفون الحقوق الرابطة بين المالك والمملوك والحاكم والمحكوم وبين الرجل وامراته ، وان من هذه الوقائع المدبوعة ما تبلغ عدد نسخه اربعة عشر مليوناً في العام . وان صاحب العائلة منهم اذا جلس صياحاً على المائدة مع زوجته واولاده يقبل كلا منهم ويسألهم عن صحتهم . الخ (٢) .

لكن كل هذه المظاهر لا تعني ان البلاد التي تكثر فيها الفضائل لا تكثر فيها الرذائل ايضا . فالمجتمع الاوروبي والبلاد الاوروبية بصورة عامة قائمة على المتناقضات . وقد يعود هذا الى انه ليس من انسان الا وفيه عيب من السيوب . . . لذلك ينبغي لكل ذى جسم من الحيوان الناطق ان يعتمد على التقدم في المصارف والدراية . . . (٣) .

(١) الساق على الساق . ص ٥٢٧ .
(٢) المصدر نفسه . ص ٥٢٧ .
(٣) المصدر نفسه . ص ٥٢٨ .

القسم الثاني

الفرض

الرفض الاجتماعي

بدأ أحمد فارس الشدياق رفضه بعد أن تجمعت في نفسه كل عوامل الثورة وتفاعلت وانصهرت . وتعتبر مبادئ الإصلاح الاجتماعي التي نادى بها ، حجر الأساس في الحملة الاجتماعية البعيدة المدى التي هيأت لثورة المصلحين الاجتماعيين العرب في نهاية القرن التاسع عشر وما بعد ذلك .

كان رفض الشدياق الاجتماعي الذي تبلور في كتابه " الساق على الساق " وفي مقالاته في " الجوائب " قاسيا وملحا وجريئا . وهو في هذا أول أديب عربي نقل الادب من أدب مسامرات ومنادمة ، ومن أدب مقلد ومسجع ، الى أدب " علم اجتماع " له غاية ، ورسالة اصلاح .

ومهما يكن القول في الاعتراضات على الدوافع التي حملت الشدياق على الرفض ، يبقى هناك شيء لا بد من الاعتراف به ، وهو أن الشدياق لم يرفض الا في مرحلة نضج فكري وثقافي . وبعد أن اطلع على التيارات الحضارية الغربية ، وتفاعل مع ثقافة العالم .

وقد جاء رفض الشدياق عقلانيا ، مبنيا على منطلق الواقع وهادفا الى التفسير . أبرز في رفضه الخلية النواة في المجتمع ، أى الأسرة . فتحدث عن الرجل والمرأة ، وعن الطفل . وبحث في الزواج والطلاق بالتفصيل .

كما تناول رفضه المجتمع كخلية انسانية كبرى يضم كل الخلايا الاسروية التي يتكون منها ، ورسم بمهارة خطوط الرفض . وعنى بذلك ، الطبقية ، الأخلاق ، الثقافة ، الاقتصاد ، الجنس .

ثم دعا الى الإصلاح ، وأناط مسؤوليته بالدولة وبالمثقفين .

الفصل الأول

الاسرة

الرجل والتقاليد
الرجل والبيت
توعية الرجل

الرجل

وضع المرأة
درجة استعباد المرأة - البكارة
ثقافة المرأة
شخصية المرأة وحدودها

المرأة في الاسرة

مسؤولية الابوين
مسؤولية الدولة في تربية الطفل

الطفل في الاسرة

فشل الزواج
تعدد الزوجات
الزواج الأصح
التقارب بين الزوج والزوجة
الطلاق
علمنة الزواج

الزواج

استحوذت الاسرة على تفكير الشدياق . فرأى ان الاصلاح
الاجتماعي يبدأ بها . يبدأ بالرجل قبل المرأة . لذلك انتقده ،
وخصص له وللرأة والدلفل صفحات كثيرة في كتابه " الساق على الساق "
وفي " الجرائب " .

رفض الشدياق مبدأ عدم التكافؤ بين الرجل والمرأة ففي
الاسرة ، واعتبر ان سبب وجود الرجل في مركز السلطة : الجهل ،
السطحية ، الفرق في التقاليد . أما المرأة فلهبة يرفضها متى
شاء ويقبل عليها متى شاء .

في الاصلاح ، هناك المساواة التامة بين الرجل والمرأة
في الحقوق والواجبات . لذا عرّى الشدياق الرجل ، وكشف عن
وضعه وفراغه ، ومنع المرأة انسانيتهما ، وطالب بسنطتهما .

الرجل والتقاليد

رأى الشدياق ان التخلّف الاجتماعي يتعلّق بالرجل . فهو - اى الرجل - يلتصق بماضيه ، ويستبعد عن حاضره ، ويحرص على عاداته وتقاليد ، وعلى الاستمرار بها .

في تقاليد ، يرفض الشدياق مظهر الرجل الخارجى . " يرفض السراويل التي يرتديها ، والتي يمشي بها ويفجج كاشاة للحلب (١) - على حد تعبيره - و " يسخر من الذى له جبة يصمى ويكنس الارض باذيالها ، فيلصق بها كل ما في الارض من النجاسة والقذر ، حتى اذا وافى بيته ، ملأه بالرائحة الخبيثة فعلق بزوجه منها ما يرد الطرف عنها وان كانت عبقة ...

" وهذه السمائم دونها في النج . واقبح من ذلك كله هذا الحزام الذى يتحزم به ، فانه يملأ الخصر والصدر ويضع الطعام عن الهضم ... " (٢) .

أما سبب رفض الشدياق لهذا المظهر فتاج عن ان هذه " الجبة يعمل منها كثير من هذه التي تلبسها الانرج الى خصورهم . وليس للرجل اذا لبسها من هيئة ولا شارة ، فانها تخفي قوامه كله فلا يرى له خصر ولا غيره " (٣) .

والشدياق المنفتح على الغرب ، يدعو الرجل الشرقى الى الخروج من قوقعة تقاليد . ويستعمل منه طريقة الاقتناع المنطقي من حيث ان " الانسان ما خلق على هذه الصورة الا ولكي تكون ظاهرة كما هي " (٤) .

أما النتيجة فهي في " الاشتهاء الى زى حسن يوافق هيئة الجسم ويلائم للعمل وبه شارة " (٥) .

-
- (١) الساق على الساق ٤٠ ص ٥٧٣ .
 - (٢) المصدر نفسه . ص ٥٧٣ .
 - (٣) المصدر نفسه . ص ٥٧٣ .
 - (٤) المصدر نفسه . ص ٥٧٣ .
 - (٥) المصدر نفسه . ص ٥٧٣ .

الرجل والبيت

- في بلاد الشرق ، يعتقد الرجل " أن الذكر خير من الانثى " (١) .
- وهو ينشأ منذ الصغر على هذا الاعتقاد . سلطته في البيت مطلقة ولا تناقش .
- يترفع عن السيدة واولادها . " فهو لا يأكل معها ، ولا يأخذ ولسده
- ويضعه على ركبتيه " (٢) .

الرجل يستخدم سلطته بقباحة . " يتزوج من لم تبلغ نصف عمره . له أن يجمع في بيته ضرائر شتى . له ان يسهر الليالي مع أحبابه وهي لا ترى الا وجهه ضررتها . يستطيع ان يغيب عنها دهرها ويفادها مقيدة باسمه كرها وجبرا . لا يدعها تستنشق الهواء الا من خروق الشباك " (٣) . كل ذلك بسبب اعتقاده " ان الذكر خير من الانثى " .

والشدياق يرنض هذا الاعتقاد . فان من الرجال الحمقى ممن لا يعرف قدر امراته " واما عيوب الرجل - فهي لسرى - اكثر من عيوب المرأة . . . " (٤) .

-
- (١) كثر الرغائب في منتخبات الجوائب . ج ١ ص ٢٢٤ .
 - (٢) الساق على الساق . ص ٤٧٠ - ٤٧١ .
 - (٣) كثر الرغائب . ج ١ ص ٢٤٤ .
 - (٤) الساق على الساق . ص ٥٠٥ .

في توعية الرجل

وقف الشدياق بحزم ضد سلطة الرجل ، واعاده مع سلطته التي
حجمه الطبيعي . وكان ذلك عن طريق وقوفه الى جانب المرأة في البيت .
وقد لخص موقفه بما يلي : " ٠٠٠٠ ان المرأة التي ترتضي بأن تقم مع
زوجها من دون قضاء حقها ، لجديرة بأن يعيد لها عيد في رأس كل
سنة " ٠٠٠٠ (١) .

وكانت طريقته في توعية الرجل هي في اعادة الاعتبار للمرأة . فلا
بأس على الرجل من أن يسهر مع حريمه المحترم (٢) . لا بأس أيضا من دفع
السيدة وبناتها الى خارج البيت . فالانحطاط هو في تسلط الرجل ، " وبقاء
النساء مقصورات في الدار العامرة " (٣) .

وحمل الشدياق السلطة الشرعية مسؤولية تلك التوعية . فالرجل لا يجوز
أن يحوز عنده امرأة لا يؤدى لها حقها . فان فعل ذلك ، فعلى الحاكم الشرعي
أن يقف في وجهه .

والخلاصة ، أن الرجل الشرقي رجل خشن . خشن الطباع والاخلاق .
واصلاح المجتمع يتطلب منه أن يخلع عنه تلك الخشونة التي دونت على طباعه
وأخلاقه ، لان التمدن يقتضي ذلك . كما يقتضي ذلك التمدن البدء بالعادات
الحسنة ، ومن جعلتها الرفق بالقوارير . (٤) .

-
- (١) الساق على الساق . ص ٥٠٥ .
 - (٢) المصدر نفسه . ص ٤٧٣ - ٤٧٤ .
 - (٣) المصدر نفسه . ص ٤٧٣ - ٤٧٤ .
 - (٤) الجواب . عدد ٣٩١ . ص ٣ . عمود ٢ - ٣ . تاريخ ١٨٦٩/٥/٣١ .

المرأة في الأسرة

كان الشدياق نصير المرأة ، وأول الداعين الى تحريرها من سلطة الرجل ،
والى تثقيفها ، واعطائها مكانتها في المجتمع : فالمرأة برأيه يجب " ألا ترضى لنفسها
بأن تقعد في بيتها كالفرس المسرج المعد للركوب وهي محرومة من مباشرة
الناس " (١) .

وضع المرأة

وبين أن وضع المرأة منذ ولادتها حتى مماتها سيء للغاية . فهي ما دامت
في بيت أبيها عانسا لا تزال محظورة لا ترى لها أليفا ولا مؤانسا . بينما
أخوها يرتع ويطرب ويسافر ويتغرب . وهي اذا تزوجت صارت تحت حنظرة
بعلمها وصار هو مالك ناصيتها وولي فعلها . فلا تكاد تخرج من بيتها الا باذنه ،
ولا تأتي أمرا الا اذا استوثقت فيه من أمنه . . (٢) .

والمرأة مع الرجل ، سواء أكان زوجها أم أباهم وأخاهم ، مسلوبة الارادة ،
ومعدومة الحرية . فهي عليها أن تتملقه اذا سخط ، وأن تقوم بخدمته
وتطبخ له كل يوم ما يقترح عليها . وعليها أن تجدد له من قديم متاعه ما
يلقيه اليها ، وتربى ولده " وكمن ليلة تبيت تداريه فيها وهو يمسلا
المكان غطيظا . . (٣) . " وربما يكلفها فوق هذا غسل ارجليه قبل النوم أو تكبيسهما
حتى يجيئه النعاس " (٤) . وقد يجبرها على أن تقول له بحضرة الناس نعم يا
سيدي ، ولو كان ذلك السيد من اكبر الحمقى (٥) .

-
- (١) الساق على الساق . ص ٤٥٩ .
 - (٢) المصدر نفسه . ص ٤٨٠ .
 - (٣) المصدر نفسه . ص ٤٨٠ .
 - (٤) المصدر نفسه . ص ٤٩٤ .
 - (٥) المصدر نفسه . ص ٤٥٧ .

ويعيد الشدياق وضع المرأة السيء الى تربيتها . فالمرأة
لا تدرى شيئا من الدنيا سوى أهل بيتها . " وهي لا تتكلم في
أمرا لا فيما جرى لها مع أمها أو لامها مع الخادمة أو لهذه معهما .
والبنات في مصر والشام لا يحاشرن أحدا سوى الخوادم وأهل البيت .
أما الأم فلا ترغب في أن تعرف ابنتها شيئا من أمور الدنيا ،
خشية أن تنجلي الغشاوة عن بصرها ، ويقع المحذور . . (١) .

(١) الساق على الساق . ص ٤٢٥ .

درجة استعباد المرأة - البكارة

- دليل الشدياق اثناء عرضه لوضع المرأة ، على مدى استعباد الرجل والتقاليد لها . ولكن تبقى قضية بكارة المرأة يوم زفافها . أخطر قضية اجتماعية تجرأ مفكر عربي على مناقشتها ، ودعا الى رفضها .
- رأى الشدياق أن بكارة الفتاة تؤكد عبوديتها لتقاليد جاهلة وغبية . "فهذه العادة - عادة اظهار علامة البكارة في ليلة الزفاف - ليست طبيعية . ان لو كانت كذلك كنا نراها مستعملة عند جميع الامم . وهولاء الافرنج الذين هم اكثر دراية وعلما في الطبيعيات لا يستعملونها . . (١) "
- وأوضح الشدياق أن الفتاة لا يمكن أن تبقى تحت رحمة القوانين العرفية الصارمة ، وتحت رحمة الرجل الذي قد يركز جميع اعتبارات حياته على ذلك الامر الذي لا يستطيع اثباته أحيانا . فالطبيعة الجسدية عند المرأة قد لا تساعد على اثبات العذرية ، فهل يقضي على حياتها حينئذ ؟؟ (٢) .

-
- (١) الساق على الساق . ص ٤٢١ .
- (٢) . . . (لذا فان الشدياق يستمخ العفو من الجناب الاكرم . المقر الافخم . حضرة الصير المكرم . عما يريد أن يسأله عنه على وجه الاستفادة لا الانتقاد فيقول : من أين تعلم يا ذا البصيرة أن تلك البصيرة التي يخضب بها المنديل ويعقد على علم ايدانا ببكارة البنت هي علامة البكارة . أفليس من الممكن أن يكون ليلة الدخول بها قد فار التور ، وفاض المسجور ، أو بقيت منه عقابيل دبح بها المنديل ؟ أو يكون الرجل قد ذبح عصفورا أو جرح أحد أصابعه ان كان هو الذي سبق الى اقتطاف تلك الوردة ؟ أو تكون البنت قد ادخرت في ذلك الصوان شيئا من الدم . فان قلت ان الرجل يحرف ذلك بمجرد التدوق ، قلت لعمرى ولعمرأبيك ان تلك الساعة ليست وقت وعي ومنقول ، بل وقت دهشة وذهول . ولا سيما اذا وقف وراء الباب جماعة يضجون ويحجون . . .)
- الساق على الساق . ص ٤٢١ .

ثقافة المرأة

وطريق خلاص المرأة من ربقة الاستعباد يكون في ثقافتها .
والشدياق آمن بتلك الثقافة كوسيلة من وسائل التمدين . ذلك أن التمدين
لا يكون تاما الا اذا تسارت فيه الرجال والنساء في التعلم (١) .

فالمرأة برأيه اذا اشتغلت بقراءة فن من الفنون او بمطالعة السكتب
المفيدة صرفها ذلك عن استنباط الحيل . " والاولى أن تشتغل البنت باحدى
العلوم والفنون النافعة سواء أكان ذلك عقليا أو يدويا " (٢) .

ويقف الشدياق في وجه العقلية الرجعية التي تحكم على المرأة بالجهل ،
وتحكم عليها بالبقاء في البيت حفاظا على الشرف وصيانة للعرض . ويرهن لتلك
العقلية ، بأن جهل المرأة لا يمنع من محاولتها التعرف الى الرجال واستطلاع
أحوالهم . فالانثى مقطورة على حب الذكر والذكر على حب الانثى . وربما أفضى
بها الجهل الى التهافت على الرجال والانقياد اليهم من دون النظر في السواقب ،
بخلاف ما اذا تأدبت بالمحامد والعلم اللائق بها ، فانها حينئذ تعرف ما
تعرف من الرجال عن تبصر وتدبير .

وفي الثقافة للمرأة فائدة من ناحيتين :

- فهي - أي المرأة - تتسلع بثقافتها وتتحصن بها أمام الرجل .
- وهو - أي الرجل - يشعر حتما بفضل المرأة المثقفة ، فيرتدع عن أن
يهتك حجاب التأدب معها ، " لاعتقاده أنها لم تخلق في الدنيا الا
لقضاء وطره منها " (٣) .

(١) الجوائب . عدد ٤١٤ . تاريخ ١٨٦٩/١١/٩ . ص ١ عمود ٣ .
السنة التاسعة .

(٢) الساق على الساق . ص ٤٢٦ . ٢ - مكرر : هكذا جاء في الاصل .

(٣) الساق على الساق . ص ٤٢٦ .

والشدياق مع المرأة ، يرفض القوانين الاجتماعية لأنها تخالف قانون الحياة الطبيعي ، الذي هو أكثر صدقا ورحمة بالإنسان ، رجلا كان أم امرأة .
" فالمرأة كانت أولا بنتا قبل أن صارت امرأة . وأن الرجل من قبل كان ولدا " (١) . وتبعاً لذلك ، فلا أحد يستطيع أن ينكر أن التعليم على منر كالنقرفي الحجر .

ومن ثم يطالب الشدياق بفتح " مكاتب لتعليم البنات مثل تعليم الصبيان على حد سوى " (٢) فالتحرر الحقيقي لا يكون الا بتحريز المرأة من جهلها ، والمراد ليس فقط تعليم الصبيان وحدهم .

والشدياق بعد هذا ، يريد للمرأة أن تخرج الى ميدان الحياة ، وأن تحتل المناصب العامة اسوة بالرجل . فهذا - أى الرجل - من أثرته " قد استبد بجميع الامور الماشية ، وبمراتب العز والجاه ، وحرم المرأة من أن تشاركه فيها " (٣) .

وفي السعي وراء حقوق المرأة المثقفة ، يجب على هذه المرأة أن تخطب على المنابر كالرجال ، وأن تتولى مراتبهم ، فالدنيا جديرة أن تشرف بها (٤) .

-
- (١) الساق على الساق . ص ٥٢٤ .
 - (٢) الجوائب . عدد ٤٠١ . تاريخ ١٨٦٩/٨/١٠ . ص ٢ . عمود ١ - ٢ .
 - (٣) الساق على الساق . ص ٥٦٩ .
 - (٤) المصدر نفسه . ص ٥٦٩ .

شخصية المرأة وحدودها

فالمرأة ذات شخصية كاملة ومطلقة . ومن هذا الاعتبار ، " لامزية للرجل على المرأة في شيء " ، وليس من قضية للرجل الا وللمرأة مثلها " (١) . وانطلاقا من الاعتراف بتلك الشخصية للمرأة ، يرفض الشدياق أن تكون آلة في يد الرجل تفعل ما يريد ، وتتفدى ارادته بلا جدال .

فالرجل لم يكثر بالمرأة لاعتقاده " انها موقوفة على حركة يده أو عينه أو لسانه " (٢) وهي عندما تتمسك بشخصيتها وبآرائها ، يعلق بها ويداريها " (٣) . فليس اطعام الرجل لها والباسه اياها منة منه عليها . فحقوق المرأة اكثر من أن تذكر (٤) .

وفي خضم التشديد على شخصية المرأة ، حرص الشدياق على وجوب اكتمال تلك الشخصية ، بزيتها . فزينة المرأة ضرورية ، ففي تلك الزينة تشويق لزوجها وللناس ولنفسها أيضا (٥) .

بالمقابل ، رسم الشدياق للمرأة حدودا في حرية شخصيتها يجب أن تقف عندها . وهذه الحدود يفترض أن تكون تلقائية منبثقة من ذاتها ، وتحافظ على مكتسباتها .

الى

ففي الحرية المعقولة ، وجه الشدياق المرأة/المحافظة على سلوكها خارج البيت ، وأوصى بأن تبقى محتشمة في الشارع ، وتبتدل في كلامها مع الرجال وبخاصة اذا كانوا أصغر منها ، وتهتم بشؤون بيتها . ورأى أن تلك المرأة تبقى أجمل اذا ما اقتصدت في زينتها ، وارتدت ما هو مناسب لسنها وشيئتها (٦) .

-
- | | | | |
|-----|-----------------|---|-------------|
| (١) | الساق على الساق | • | ص ٥٧٤ - ٥٧٥ |
| (٢) | المصدر نفسه | • | ص ٥٥٤ |
| (٣) | المصدر نفسه | • | ص ٥٥٤ |
| (٤) | المصدر نفسه | • | ص ٥٧٦ |
| (٥) | المصدر نفسه | • | ص ٥٧٣ |
| (٦) | المصدر نفسه | • | ص ٥٦١ - ٥٦٤ |

لانه " اذا كان زى النساء كهيئة اجسامهن ، فهذا يكون فاحشا من وجهين ، لان المتزنية به ان كانت ركافة عندلدة لقاء كانت فتنة للناس وعطلت عباد الله عن أعمالهم . وان كانت دردحة أو رسحاء كانت وباء على الناس . . . (١)

وفي الحرية المعقولة ذاتها ، حدد الشدياق واجبات هذه المرأة تجاه أسرتها . فعليها تحمل بعض نفقات البيت بالاندلاق في عمل نافع ومجد ، وتقدير ظروف زوجها ومتابه في العمل ، كما طلب اليها ملازمته في حال المرض ، والسهر على الاخلاص له في غيابه عنها ، ورجاها بعد هذا تحديد علاقتها بالخادم والخادمة .

وهكذا يكون الشدياق من أول الثائرين الذين امسكوا بالمعمول ليهدموا الجدار الذي يفصل المرأة عن الحياة ، ومن أجل بناء مجتمع متجدد ومتمدن .

الطفل في الأسرة

لما سعى الشدياق الى التخطيط للتقارب بين الرجل والمرأة ،
لم يهمل الطفل . فقد ثار على التقاليد التي تمنع على الطفل أخذ الحنان
من أبيه ، هذا الذي لم يضعه يوماً على ركبته ، ولا أركبه يوماً ظهره (١) .

والشدياق كرجل فكر واجتماع ، كان صاحب نظريات تربوية فيما يتعلق
بالاطفال . وقد أناط بالابوين مسؤولية تربوية ضخمة نحو اطفالهما ، كما
أناط بالدولة نفسها مسؤولية رعاية الاطفال والاهتمام بمواهبهم ، وتنمية
ذكائهم .

مسؤولية الابوين

وربما كان الشدياق أول باحث اجتماعي عربي بحث في شؤون مسؤولية
الابوين تجاه الطفل في صغره ، وأول باحث رفض الاساليب التربوية القديمة
التي كان يتبعها الابوان في تربية الاولاد .

فمن نظرياته الحديثة في التربية ، مسألة العناية الطبية بالطفل
منذ صغره . وقد ألقى على عاتق الاب مهمة تعهد أحوال ولده ، ومراعاة
ما يطرأ عليه . ومن ثم يقيد ذلك في كتاب ليخبر الطبيب الاخبار الصحيحة
عن تطورات طفله الصحية يوماً فيوم (٢) .

وهذه النظرية ، تعتبر اليوم من أحدث النظريات التربوية في العناية
بالاطفال . ولعل مشكلة العناية الطبية هذه ، من المشاكل التي لا تزال تشير
اهتمام المسؤولين في الوقت الحاضر ، بخاصة في الاوساط التي تهمل العناية
بأطفالها لأسباب اجتماعية واقتصادية وثقافية .

(١) الساق على الساق . ص ٤٧٣ - ٤٧٤ .

(٢) المصدر نفسه . ص ٦٠٤ - ٦٠٥ .

وإذا كان أمر العناية الطبية يدخل في إطار مسؤولية الأب - كما أرادها الشدياق - فإن أمر غذاء الطفل من الأمور التي يجب أن تلقى على عاتق الأم وحدها . وكانت نظريته في ذلك ، عدم تدخل حنان الأم وعطفها في غذاء الطفل . فالأم يجب أن تمتنع عن اطعام ولدها كل ما يشتهيها ، لأن هذا الاطعام ليس من الحنو والشفقة في شيء ، بقدر ما هو دليل على عاطفة لا مسؤولة ، وجهل بأصول التربية وقواعدها (١) . ومن الممكن أن يتلهى الطفل بأشياء من اللعب والصور المنقشة والآلات المزوقة وما أشبه ذلك ، إذا ما ألح على أمه بنوع معين من الطعام قد يضره .

في الوقت نفسه ، لا يجوز برأى الشدياق أن يحرم الابوان الطفل ما يشتهي ، ويبكي من أجل ما لا يضر فيه (٢) . فالقسوة في التربية يجب أن تكون قسوة معتدلة . ومن الأفضل تدريب الطفل على الخفيف من الطعام بعد ولادته بستة أشهر مع بقاء الارضاع قليلا ، لان الارضاع الطويل يضر بالطفل والأم معا . كما يجب على هذه الأم الا ترضع طفلها وهي في حالة نفسية سيئة أو ما شابه ذلك (٣) .

ولا شك بأن الشدياق تأثر بما رآه في الغرب من العناية بالاطفال ما كان مفقودا في الشرق . فحسب قوله " ان اهمال تربية الاولاد هي أصل لمعظم الشرور والفساد الملازمة للانسان حال حياته ، فينبغي بذل العناية التامة في حسن تربيتهم وتهذيبهم " (٤) .

-
- (١) الساق على الساق . ص ٦٠٤ - ٦٠٥ .
 - (٢) المصدر نفسه . ص ٦٠٤ - ٦٠٥ .
 - (٣) المصدر نفسه . ص ٦٠٤ - ٦٠٥ .
 - (٤) كثر الرغائب . ج ١ ص ٢٥٠ - ٢٥٢ .

مسؤولية الدولة في تربية الطفل

ثار الشدياق على وضع الاولاد في البلاد المشرقية ، فهو لاء برأيه تفسد عقولهم بملازمتهم امهاتهم - طبعا من دون آباءهم - من قبل أن يحرفوا الدلريق الى المكتب (١) . لذلك حمل الدولة عبء التوجيه التربوي مستبقا أحدث نظريات التربية في العصر الحديث .

تسببه الشدياق الى عبء تكاليف التعليم ، والى تهرب الأهل من مسؤولية تعليم اولادهم تبعا لتلك التكاليف الباهظة ، فأوجب على الدولة أن تكون بديل الأهل في رسم السياسة التربوية الاصلاحية . من ذلك ، " أن تكون الدولة باحثة عن لهم مزايا طبيعية وملكات غريزية وهم على صغر ، فتربيهم في مكاتبها الى أن يبنفوا في ملكاتها " (٢) .

وبصدد هذه النظرية التربوية المنطلقة من مبدأ اصلاح المجتمع ، رسم الشدياق سياسة تربوية اشتراكية ، تنطلق من الدولة التي تحول عبء التكاليف المادية الى عاتق الاغنياء ، وكأنه بذلك أراد المساواة في التسليم بين الفقير والغني ، وألح بصورة خاصة على صاحب الموشبة التي ربما يجب الاتموت ، بسبب الفقر .

فالدولة في هذه الحال ، يمكنها " أن تحت الاغنياء على تربيتهم ، ان لا يحتمل أن تتجشم الدولة هذا الامر لما فيه من فرط المشاق والتكاليف " (٣) .

(١) كترالغائب . ج ١ ص ٨٨ - ٨٩ .

(٢) الجوائب . عدد ٣٨٧ . السنة التاسعة ، تاريخ ٣ ايار ١٨٦٩ .

(٣) الجوائب . عدد ٣٨٧ . سنة تاسعة ، تاريخ ٣ ايار .

ص ٢ - عمود ٢ - ٣٩ .

ويقدم الشدياق حول تلك المسؤولية مثالا من الواقع . فيقول :
انك ترى كثيرا من الاطفال بعضهم يميل الى الرسم والتصوير ، وبعضهم
الى البناء ، وبعضهم الى الهندسة ، فأمثال هؤلاء ينبغي لمشايخ القرى وأمناء
المدن أن يلاحظوهم ويعينوا بتربيتهم على صورة مستحسنة . اذ من المعلوم
أنه اذا كان لأحدهم والد فقير لا يقدر على تربيته ، بقي ما به من الملكية
كالعدم ، وهذا الامر وان تعذر ايماله الى درجة الكمال ، الا انه لا يتعذر
اصلاحه وترقيته الى درجة ينتفع منها انتفاعا ظاهرا . . . (١) .

ولعل نظرية الشدياق هذه في التربية تعتبر من أبرز الضمانات الاجتماعية
التربوية في القرن العشرين . النظرية التي فيها تأخذ الدولة على عاتقها
توجيه الصغار من الفقراء الذين ليس لآبائهم امكانيات تعليمهم ، هذا التعليم
الذي يخلصهم من عقدة النقص والحرمان ، وفي سبيل مجتمع لا يخسر
مواهب ابناءه ، وانما يسمو بسموهم ، ويزدهر باعلاء شأنهم .

(١) الجوائب . عدد ٣٨٧ . سنة تاسعة . تاريخ ٣ ايار ١٨٦٩ .
ص ٢ عمود ٢ - ٣ .

الزواج

من العجب أن يكون للشدياق آراء متقدمة في الزواج وهو ابن عصر يقوم على الاستقرار العائلي . لكن هذا العجب يبطل عندما نرى ثورة الشدياق على الرجل الشرقي وانحطاط شأن المرأة والطفل لديه .

وباعتبار انحطاط التقاليد والعادات التي تجعل الرجل متفوقا في كل شيء ، انتقد الشدياق بقساوة المؤسسة الزوجية التي تبني على عدم التكافؤ بين المرأة والرجل فيها . إذ أن المقصود من الزواج هو " التراضي والوفاق بين الرجل والمرأة " (١) .

فشل الزواج

من هنا ، دعا الشدياق الى اصلاح العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة . فالرجل يتعلل بغبطة الزواج وبملذاته الجسدية ، فيتجاوز بذلك آفاته الاخرى ، والمرأة تتزوج وهي لا تفقه شيئا من أمور الزواج الذي لا يكون لها رأى فيه بطبيعة الحال .

وقد حدد الشدياق أسباب فشل الزواج بالامور التالية :

١ - فقدان الثقة بين الزوجين الناتج عن عدم تعرف الشريك الى الآخر فترة كافية قبل الزواج .

٢ - الفقر .

(١) الساق على الساق . ص ٤٠٢ .

تعدد الزوجات

ووقف الشدياق في وجه تعدد الزوجات ، ونقد سنة الشرقي في هذا ، ورفض مسايرة أخلاقته ونقائص مجتمعه . فتعدد الزوجات برأيه أمر مغاير للطبع (١) ، ويتنافى مع سنة الحياة والطبيعة .

بالنسبة لمنطق الطبيعة ، يتناول الشدياق مثالا من عالم الحيوانات . فالذكور من الحيوانات التي تدر لها أن تعيش مع أنثى كثيرة ، قدر لها أيضا القدرة على كفايتهن ، كالديك والصفور مثلا . أما غيرها ، فيعيش على واحدة ويكتفي بها " (٢) .

ومن هنا ، فالرجل غير القادر على كفاية ثلاث ، لم يكن أهلا لأن يحوزهن (٣) .

وفي نظرية التكاثر والنسل ، هناك من قائل " ان في كثرة النساء للرجل كثرة النسل التي يتوقف عليها عمران الدنيا " (٤) . أما رد الشدياق على الذين يتسكون بهذه الاعتبارات الواهية فهو " ان الله لما خلق آدم لم يخلق له الا واحدة ، مع أن الارض ان ذاك كانت محتاجة الى كثرة النسل والذرية أكثر من حاجتها الآن " (٥) .

وبالنسبة الى انعكاسات تعدد الزوجات على المجتمع ، وخطورة ذلك ، يقول ان ذلك تابع بالدرجة الاولى من تخلف الرجل الذي اضاع قيمه في تبديل المرأة بدلا من الانصراف الى القيام بالاعمال العظيمة التي تفيد محيطه وتنهض به . ومن آرائه ان تعدد الزوجات لا فائدة منه على الصعيد الاخلاقي ، والعائلي ، والحضارى .

(١) الساق على الساق . ص ٥٣٦ .

(٥) الجوائب . عدد ٣٨٢ . السنة التاسعة . تاريخ ٣ ايار ١٨٦٩ . عمود ٣

- ٣ - الفارق في السن بين الزوج والزوجة .
 - ٤ - صفة الصلف عند الرجل مما يجعله غير محظي عند المرأة ، ثم ثقل الروح وقلة الخير فيه .
 - ٥ - الغيرة على المرأة وهذا يكون عند الرجل الذي به رعدة واختلاط .
 - ٦ - البعد عن البيت بحكم الوظيفة والعمل .
 - ٧ - تدخل الأم في شؤون البيت واقامتها رقيبا على امرأته .
 - ٨ - الاضطراب في الحياة الجنسية .
- " وهذه جميعها من أسباب النفار التي تؤدي الى تقطيع القمصان ، وندف الشعر ، وخدش الجلد واحلال النفور محل الوئام . . . وينتج السرير " (١) .

(١) الساق على الساق . ص ٣٩٣ .

" يقول الشدياق : . . . لان منهم من باعل وهو غير كفول لهذا العمل . أما لصغر راحته ، أو لعدم سماحته ، أو لمباينة سنّه عن سنّ زوجته ، أو لضعف في آتته . أو لانه كان من الزمالية . أو كان مصالفا أو مشففا . أو لان أميره كان يغيبه عن وطنه ، أو لان جاره كان يخالفه الى عطنه . أو لان أمه كانت رقيبا على امرأته لذلك ثار بينهما النفار وطلال النفار " . " الساق على الساق : ص ٣٩٣ .

الزمالية : المصابون بضعف جنسي .

المصلف : من لا تحظي عنده امرأة .

المشفف : من به رعدة واختلاط غيرة واشفاقا على حرمه .

فعلى الصعيد الاخلاقي ، يرى الشدياق ان الناس اتخذوا المرأة متخذ القميص . " فكما ينبغي تبديل القميص عندما يعرض عليه رسوخ ، او هسي كذلك ، ينبغي تبديل المرأة عند عروض علة من العلل عليها ، او عند تنصل جمالها او تغير حسننها " (١) .

وعلى الصعيد السائلي ، فان تعدد الزوجات ووجودهن في بيت واحد كارثة ، كارثة من حيث العلاقة غير الودية بين اولئك الزوجات من ناحية ، وبينهن وبين الزوج من ناحية ثانية . ومن ثم ، ما يمكن ان يتبع تلك العلاقات غير المرضية من خلل يصيب العائلة . " فالمبتلى بازواج كثيرة تضعف قوته ، وتكثر همومه ، ويلهث في محاولة للتسوية بين زوجاته ، وربما عاش معهن وهو خائف على حياته من احدهن ، وما ذلك الا من سفهه وبلطه " (٢) .

وعلى الصعيد الحضاري ، فعادة تعدد الزوجات ليست من التمدن في شي . فهذه العادة " لم تزل مستعملة عند بعض الهمج " (٣) - على حد قول الشدياق - . والرجل الذي يتزوج من عدة نساء ، " تقل جدارته في مباشرة المساعي العظيمة " (٤) التي معها يرقى مجتمعه .

(١) الجوائب . عدد ٣٨٧ .

(٢) الساق على الساق . ص ٥٣٦ .

(٤) الجوائب . عدد ٣٨٧ ، سنة تاسعة . تاريخ سنة ١٨٦٩ .

الزواج الأصليح

وفي سبيل زواج متكامل وصالح ، كان للشديان شروط قيّد بها كلا من الرجل والمرأة .

بالنسبة الى الرجل :

- ان يجمل رضى المرأة من رضاه .
- ان يحاول ما امكن تحقيق امنياتها .
- ان يشعر المرأة بانه يحمل من اجلها ، ويحاول تحصيل الكسب ما قدر .
- اذا كان الرجل بشع الخلقة فعليه ان يكون جميل الاخلاق .
- لانه من اسباب نفور المرأة من الرجل " ان تكون له رائحة فم كريهة ، او يكون شكله غير لائق . (احذب مثلاً) .
- ان لا يعارض المرأة في شؤون البيت ، وألا يجعل من قضية طعام مثلاً ، مأساة .
- ان يترك لها حرية الذوق في اللباس ، وفي النرم . الخ (١) .

بالنسبة الى المرأة :

- صيانة العرض ، والمحافظة على كرامة الزوج .
- ان تحبون وجهها عن المراد .
- ان تنهياً لاستقبال زوجها بأحسن حال عند عودته من يوم متعب .
- أن تحافظ على أناقة زوجها فتختار له ما يناسبه (٢) .

التقارب بين الزوج والزوجة

من أقبح عيوب الزواج عند الشدياق ، فارق السن بين الزوج والزوجة .
وهو القائل في هذا الصدد " ان الرجل عندما اذا كان كهلا لا يستحي أن يتزوج
ببنت لم يأت عليها بعد نصف عمره . . . " .

فالزواج المبني على وجود ذلك الفارق الشاسع في السن ، هو زواج ناقص
من ناحيتين :

١ - الناحية النفسية : من حيث أن الرجل الكهل الذي يتزوج امرأة في نصف
عمره ، يشرع في تربية تلك المرأة لتساير عقليتها عقلية ،
ولتقوم باداء واجباته .

٢ - الناحية الجسدية : وهي الحق المشروع الذي يجب على الرجل أن يؤديه
للرأة . وربما يقف فارق السن عائقا أمام تلك التأدية .
ويرأى الشدياق " ان مخايرة السن بين الرجل وامرأته
هي من أعظم الأسباب الباعثة لها على فركه . . . " (١) .

وهكذا يكون الشدياق قد دخل الى جوهر الزواج ، وكُرس فيه احترام العلاقة
الجسدية حفاظا على انسجامه . " فالفعل يجب أن يكون مشتركا بين الاثنين " (٢) ،
كما يقول . وكان من حق الشدياق أن يوجه عنايته الى العلاقة الجسدية بين
الرجل والمرأة ، لان الشرط الثقافي لم يكن وسيلة معتمدة في الالتقاء بينهما .

(١) الساق على الساق . ص ٤٥٨ .

(٢) يقول الشدياق " فان المغاومة والمباذعة والمواتعة تدل على أن الفعل
مشترك بين الاثنين . . . " . " الساق على الساق " ص ٤٥٨ .

الطلاق

وإذا كان الانتاج وحفظ النسل مشتركا بين الرجل والمرأة ، بل جلّ أركانه مختص بها ومتوقف عليها " (١) ، فلم لا يكون الطلاق مشتركا بينهما أيضا إذا افتضت الاسباب ذلك . (٢) .

ولا شك في أن الشدياق يتعرض هنا لترمت القوانين بشأن الطلاق عند بعض الطوائف كالنصارى مثلا . ويتعرض لتساهل هذه القوانين نفسها بشأن هذا الطلاق أيضا عند بعض الطوائف الأخرى ، كالمسلمين . ويرى أن ليس في التزمت وجهه حق ، كذلك ليس في التساهل هذا الوجه أيضا . ويعيد الشدياق تعرضه الجريء هذا ، الى القانون الطبيعي في الولادة والحياة والموت ، وفي التكاثر والانتاج عن طريق الزواج لحفظ النسل (٣) .

لذلك ، فهو يرى اباحة الطلاق ، ويحدده في الوقت نفسه

- يرى اباحته ، في وجود السبب المبرر له ، كأن يكون الزوج مدينا ببدء عضال ولا يرجى له علاج . فالحكمة هنا تقضي بطلاق الزوجين ، والسماح للزوجة بالزواج مرة ثانية . وانتقد رؤساء النصارى " الذين يأذنون في مثل هذه الحسابات - أي في حال مرض الزوج - في فراق الزوجين ، ولكن لا يأذنون لهما في الزواج . . . (٤) وفي هذا دعوة صريحة لتعديل قوانين الزواج والطلاق عند المسيحيين .

- ويحدده ، من حيث أن الطلاق من " غير سبب ان هو الا بطر وسفه " (٥) . وقد قصد الشدياق حماية العائلة والمرأة من قدرة الرجل على الطلاق متى شاء نسبية لقوانين الزواج عند المسلمين .

(١) هكذا جاء في الاصل .

(٢) (٥٤٦٣٦٢) الساق علي الساق . ص ٥٠٥ .

علمنة الزواج

ان تعرض الشدياق هذا لقوانين الزواج والطلاق عند الطوائف ، والمطبقة منذ قرون ، ودعوته الصريحة للتخفيف من قيودها ، لم يكن الا ايدانا بالافصح عن رغبته في اخراج الزواج من اطاره الديني الى الاطار المدني . وهو في هذا الافصح يكون قد خطا خطوة تقدمية واسعة وجديرة بالتأمل في تحرير الرجل والمرأة على السواء من قيود السلطة الدينية في الحالات التي لا يرجسى تعديلها ، او في الحالات التي يخضع فيها الزواج والطلاق للاهواء الشخصية .

وشيء آخر ربما قصده الشدياق من علمنة الزواج ، وهو فتح الطريق وتمهيدته أمام عملية زواج أبناء الطائفة الواحدة وبناتها ، من بنات اللائفة الاخرى وأبنائها . ففي الزواج المدني يمكن للمسلم أن يتزوج من مسيحية ، وللمسيحي أن يتزوج من مسلمة ، مع احتفاظ كل منهما بحرية التفكير والعقيدة (١) .

وقد يكون الشدياق وصل الى أسنى درجة عقلانية يمكن على أساسها أن يسبني مجتمع متمدن ، حين طرح فكرته الخطيرة القائمة على ابعاد الزواج عن الدين . وهذا كان في عصر يخضع بكل قيمه للدين ولللائفة . وقد يبدو أنه سعى وراء تدويب الطائفة عن طريق الزواج حتى بين أبناء الملة الواحدة ، وفي دعوة ملحة للتآخي الانساني ، والترفع فوق مستوى التعصب الاعمى . فالارحام - على حد قوله - من الرحمة اشتقت والى المصاهرة شقت وعلى الانساب انطبقت ، والى التآخي والتآلف خلقت . . . (٢) .

(١) يقول الشدياق : " فاذا كان المراد من الزواج ان كلا من الزوجين يزوج صاحبه لنفسه لا لأهل البلد وللمعارف والأصحاب ، كما كان عليان يأكل فخذ الدجاجة لأم علي ، لم يكن من المحقول أن يدهق عليهما ذو قبعة فيقول للمرأة لا تتزوجي هذا لكونه لم يسم بطرس ثم يقول للرجل لا تتزوج هذه لأنها لم تسم مريم . أو أن يقول هذا يوم الاحد لا يصح فيه الزواج ، وهذه حجرة لا يحل فيها البعال . والا لصح أن يقول لهما أرياني المسيل في المكحلة . . . " الساق على الساق . ص ٢٧٨ .

(٢) الساق على الساق . ص ٣٩٠ .

وان كان الشدياق قد مهد لفكرة العلمنة في كتابه " الساق على الساق " ،
الا أنه بقي يلاحظها ويصر عليها في الجواب ، متأثرا بتيار التخير الذي دارا على
قوانين الزواج الاوروبية ، وبقيام المسؤولين الاصلاحيين في اوروبا بذلك التخير .
ورد لو أن مثل هذه القوانين تطبق في البلاد المشرقية .

ففي محاسن الزواج المدني ، " أن الرجل في اوروبا اذا أراد أن
يتزوج امرأة سار الى الديوان وأخبرهم بما عزم عليه ، فيجرون زواجه ويكتبون
اسمه واسم امرأته في دفتر فيحسب زواجهما شرعا " (١) وهذا الزواج
المدني كان يحسب في اوروبا من " الامور الدينية " ولا يجرى الا بمصرقة التسيين
واجازتهم وحضورهم . فلما قام نابليون الاول جعله من الامور المدنية . (٢) .

وهكذا يكون الشدياق قد شخص الداء في الزواج ، ووصف الدواء ،
وفي سبيل قلب لمفاهيم بالية ، ورغبه في بناء حضارى متجدد مع الحياة .

x x x
x x
x
x

.../الجزء الثاني

الرفض المبدع في أدب

أحمد فارس الشدياق

رسالة أعدتها

دعد قنّاب عائدة

لنيل " دبلوم الدراسات العليا "

في الأدب العربي

باشرف

الدكتور سعيد البستاني

الجامعة اللبنانية

١٩٧٥

(الجزء الثاني)

الفصل الثاني

الحب والجنس

- فلسفة الحب
- الحب والمادة
- قيمة الحب
- مذاهب الحب
- الجنس والكبت
- الجنس والشرف
- الخداع والجنس
- بكاراة المرأة والجنس
- السلوك والجنس
- الشذوذ الجنسي
- انهيار الامم والجنس
- الشدياق " فرويد " القرن
- التاسع عشر

رأى الشدياق أن عقدة المجتمع الشرقي تكمن في الجنس . والجنس ليس الا شكلا من أشكال الحب . وهو - أى الحب - قد غرس في الطبيعة البشرية من " يوم الوضع في المهد الى يوم الوضع في النحر " (١) .

والشدياق عندما يلرح موضوع الحب وفلسفته ، فلائنه كان قد رفض القبول بتقاليد الحب والزواج ورتابة العلاقة بين الرجل والمرأة . من هنسا ، نرى هذا المفكر يعيد كل شيء في الحياة الى المحبة . فالمخلوق الآدمي لا بد له من أن يحب ذاتا من الذوات ، أو شيئا من الاشياء ، أو معنى من المعاني . ولعلّ هناك الزواج تأتي من خروج هذه المحبة عن مجراها الطبيعي ، من حيث أن الانسان الشرقي لا يفصل بين المحبة والجنس .

فلسفة الحب

في الحب يميز الشدياق بين حالات ثلاث : حب الزوج لزوجته

حب الابن لابنه

حب العاشق لمشوقه .

ومع هذا الحب ، يرفض الشدياق المحبة الناقصة . فالمحب يجب أن يحب محبوبه ك نفسه . وهو يشترط في اللذة أن تكون المشاركة فيها تامة بين الحبيين . والحب الصحيح هو الذي فيه يحب المحب محبوبه في حالتي البعد والقرب على حد سواء ، والا فالمحبة قاصرة ومنحرفة . وهذه المحبة تكون صحيحة حين يكون التكامل فيها قائما . . (٢) .

ويعنى الشدياق بالمرحلة المثلى للعمر التي فيها يكون الحب متعتلا . فهو ينتقد الحب في مرحلة الصبا ، لانه حبّ سريع . ويراه أقوى وأمر في مرحلة الشباب . وهو يمشئز من حب الكهولة الذي فيه " افتراض لكائن يخشى في حبه لم اللائمين ، ويخشى فيه ملل المحبوب " (٣) .

فالكهل برأى الشدياق يتعلق بالحب لخوفه من خسران الدنيا ، وفي هذه الحال يجب أن يتدخل العقل .^٤

(١) الساق على الساق . ص ٣٩٦ .

(٢٤٢) المصدر نفسه . ص ٣٩٧ .

الحب والمساواة

ويعرض الشدياق فلسفة الحب كمشكلة اجتماعية تهز عروش البيوت الآمنة .
وهذه المشكلة مردها تدخل العامل المادى في استمرار الحب ، وانقطاعه ،
والاستهتار به .

ففي حالة السفنى ، يسهل استبدال المحبوب . والغنى عادة يستهين
بالقيم الاخلاقية ، ان أنه " يفشي الاسرار بقدر ما يخزن الدينار " (١) . وينصح
الشدياق النساء المحصنات الحذر من الصنف الغنى من الناس . وهو في هذا
يرفض أن تلعب المادة دورها في قضية الحب والزواج .

وفي حالة الفقر ، يرى الشدياق أن محبة الفقير للمرأة محبة أقوى وأذع .
ولكن هذا الفقر قد يكون من الموانع التي تبعد الفقير عن حبيبته . ومن المحقول
أن تتوتر حالته النفسية ، مما يفضي به الى اليأس ، والجنون ، والانتحار .
ومن هنا ، كان حب الرجل المتوسط الحال أعدل وأصح .

قيمة الحب

الحب ذو قيمة عند الشدياق . وهو يرتبط بسعادة الانسان وشقائه . لذلك ،
كان على الانسان ، برأيه ، ألا يلهث وراء الحب . فهذا ان لم يكن بنظرة واحدة
فقد لا يأتي العمر كله . والسعيد في الحياة حقا هو من كان له حبيب يحبه .
والشدياق يؤمن بالحب كدافع خلق وابداع ، وكباعت على تهذيب الاخلاق .
فالحب يدفع المحب الى القيام بأعظم الاعمال ارضاء لمحبوبه ، وهو يبحث على الفضائل
الحسنة في الانسان . وخير لهذا أن يلاقي من الحب الاموال على أن يعيش خلي الببال .
وباعتبار أن الحب قادر على التهذيب والخلق ، فمن النادر تبعا لهذا أن
ترى عاشقا على فظاظة أو رثاسة خلق . والانسان الذى يحب حقا هو الانسان العالي
في قدره . أما الاوباش من الناس ، الذين لا معرفة لهم بقدر أنفسهم ، فيتساقطون
على حب المرأة كيفما عنت وكيفما خطرت . . (٢) .

مذاهب الحب

بنى الشدياق فلسفته في الحب على أساس الواقع . فلعشاق مذاهب في عشقهم . فمن الرجال من يعشق ذات التصنع ، وآخر يعشق ذات الحسن الطبيعي . والبعض يؤثر أن يكون بمحبوبته بعض الغفلة والبلاهة لكي يتلصع شخصيتها . والبعض يخشى ذات الدهاء والذكاء خشية أن تمله وتحرمه . والبعض يزداد هوى في المرأة إذا كانت ذات عزة .. (١) .

ورفض الشدياق تحديد الحب . ففي الحب لا قاعدة محددة . ومن الناحية النفسية قد يعشق الانسان نقيضه أو مثيله . فالعالم والاديب يعشق في المرأة أدبها وحسن كلامها . والمحزون يعشق الفرحة . والسعيد يعشق من يهمل نزق وطيش . الحنين والطرب يشقون ذات الكآبة ..

ومن هذا التقسيم النفسي ، يخلص الشدياق الى الحب من الناحية الشكلية ، كأن يهوى النحيف السمينة أو بالعكس . أما المرأة ، فهي تحب من الرجال " الفارس الابتع " (٢) .

والحب في الفنى والفقير لا ضابط له . فالغني يتهافت على حب الفقيرة كما يتهافت على حب الغنية . والبخيل من الاغنياء يؤثر حب الفقيرة طمعا في أن يرضيها بالقليل من المال .

ومن هذا ، انطلق الشدياق الى التهكم من الذين يؤثرون حب الجيل الفريب ، وذلك للاطلاع على ما عنده من الغرائب التي تتصور المخيلة وجودها فيه دون غيره (٣) . وربما هذه الواقعة تثبتها حوادث زواج العرب بالاجنبيات في الوقت الحاضر .

(١) الساق على الساق . ص ٤٠٠ .

(٢) المصدر نفسه . ص ٤٠١ . " الفارس الابتع : أى الممتلىء الشديد " .

الجنس والكبت

الانسان العربي انسان مكبوت ، وعقدة الجنس هي عقدة المقعد عنده . هو لا يستطيع ان يفصل بين الحب والجنس ، لان التباعد المفروض بقوة الجهل بين الرجل والمرأة لا يسمح بوجود التعاطف الانساني بينهما . والرجل حين يفكر في الزواج ، فانما يعلل ذاته المحرومة بملذاته الجسدية .

المرأة برأى الشدياق جسد فقط . وهي لا تنظر الى ذاتها الا من حيث كونها جسدا لرجل يتزوجها من غير معرفة . لذا كانت سخريسة الشدياق من عبثية الجنس شديدة . سخر من الرجل الذي لا يطمح الى " اكثر من ان يقعد عامة ليله ونهاره محاذيا لذلك المقام المنيف في المرأة ، حاسر الرأس ، مشعث الشعر ، وفي اقبح هيئة يمكن للانسان ان يتصورها في حق ذى مقام " (١) .

وفي الانتقال من الخاص الى العام رأى الشدياق أن " العرب شنفوا بذلك المقام . . وان الناس ابتدلوا له اسماء الملوك والسلاطين وذوى السيادة والمعالي " (٢) .

ويرى الشدياق ان التقاليد والجهل يتفان في وجه الجنس . لذا كان الكبت الجنسي يقود الى الابتدال . وربما كانت هذه الواقعة أخطر قضية تجرأ على مناقشتها مفكر عربي في القرن التاسع عشر . وربما سبق الشدياق فرويد في تحليل عقدة الجنس واعادة انعكاس التصرف الهمجي الى الكبت الجنسي . فالكبت يقود الى الانحراف ومن ثم يموق عن الابداع ومواكبة الحضارة .

والشدياق جعل علاقة الشرق بالغرب علاقة كبت جنسي ، وجعل حضور الشرقيين الى بلاد الافرنج من اجل التهتك والفجور . "فهؤلاء"

القادمون من ديار الشام ، فأول ما يضع احداهم قدمه على الارض يسأل عن
الماخور . . . (١) . وهذه القضية الجنسية لا تزال تتفجر حتى اليوم .

فالغرب اذا ، مصعب للجنس ، وفتيل لتفجير الكبت الجنسي . ومشكلة
الحظر على الجنس تتعلق بالشرف . ان الجنس والشرف في الشرق متلازمان .

الجنس والشرف

الشدياق سخر من المفهوم القائل أن الجنس يتعلق بالشرف . فالرجل يحافظ
على العرض من زاوية ضيقة تتأتى من المرأة . انه جاهل القضايا الحياتية الطبيعية ،
ولا يدري الا شيئا واحدا فقط هو * أن الله خلق المرأة لمرضاة الرجل في فراشه
وخدمته وخدمة بيته " (٢) .

(١) " . . . الا ترى الى هؤلاء الغرباء الذين يأتون الى هذه الجزيرة كيف يتهتكون
في العهر والفجور " فأول ما يضع احداهم قدمه على الارض يسأل عن الماخور .
ولاسيما هؤلاء الشاميين ، ولاسيما النصارى منهم ، ولاسيما الذين الموا بيلم شي
من احوال الافرنج ولغاتهم ، فانهم يخرجون من المراكب كالزنابير اللاسعة من
هنا وهناك . ولذلك تراهم ابدا يتلمظون بذكر بلاد الافرنج وعاداتهم واحوالهم .
مع انك اذا سألت احدا منهم عن بلدهم قال لا يستطيعه ، او عن الحانهم قال
لا تطربه . او عن كرماتهم قال لم تأدبه . . .
الساق على الساق . ص ٥٣٢ .

(٢) " . . . فترى طلعة الرجل منهم اذا جاء منزله وواجه امرأته كطلعت حين غاب
عنها سواء . وانه ليقعد عنها بعيدا قعدة المستريب المتفكن . واذا نظر اليها
فما ينظر الا الى شعرها ليري هل به شعث أم لا . ثم هو لا يصلح لها أمام
الناس اذا شعثته الريح وغيرها . . . ولا يلبسها ولا يأخذ بيدها اذا تاشيا ،
بل قلما يمشي معها الا اذا سارت لتنظر غيره عليها من أن يكلمها أحد في
الطريق أو يراها فترجع حبلى من النظر بسفد ومن الكلام بتوأمين . فاذا
حضر الطعام تعشى وهو ساكت وجهم كأنما يأكل شيئا مسموما . . .
الساق على الساق . ص ٤٥٧ .

لذا كانت المحافظة على المتاع . من حيث أنه صار كل " همّ الشرقيين
في أن يكون لهم ازواج حسان " (١) .

الجنس متاع الرجل وشرفه وعرضه . وعنده الجنس قاداته الى الخوف
على شرفه وعرضه حتى المهزلة .

والبرهان على ذلك - برأى الشدياق - أن الرجل الفارق في سيات تفكيره
إذا نظر الى المرأة فما " ينظر الا الى شعرها ليرى هل به شعث أم لا " (٢)
وهو ان مشى معها في الطريق فخشية من " ان يكلمها أحد في الطريق أو يراها
فترجع من النظر اليه ومن الكلام معه بتوأمين " (٣) . والى هذا الحد وصلت
سخرية الشدياق من الغيرة العربية على الجنس .

من هنا كانت رغبة الشدياق في الفصل بين الجنس لحاجة طبيعية والشرف
كفهوم أخلاقي . فكون المرأة الى جانب الرجل ليس جريمة أخلاقية . والرجل ان
سار مع زوجته فلزيادة الالفه بينهما ، لان هذه العادة ليست مخلة بالآداب ولا بمكانم
الأخلاق .

وانطلق الشدياق في دعوة الفصل من المفهوم الاخلاقي ، ومن كونه انسانا
لا تزايله شهامة العرب . فوجود الرجل الى جانب المرأة في الطريق غير متعلق
بالشرف ، طالما أن ذلك " لا يعني المخاصرة ، ولا يعني توكؤ المرأة على الرجل
والخروج على حدود الحشمة " . (٤) .

(١) كثر الرغالب . ج ١ ص ٨٨ - ٨٩ .

(٢) الساق على الساق . ص ٤٥٧ .

(٣) الجوائب . عدد ٣٩١ . السنة التاسعة . تاريخ ٣١ ايار سنة ١٨٦٩ .

ص ٣ . عمود ٢ - ٣ .

الخداع والجنس

الشرف خدعة نفسية برأى الشدياق ، وذلك من حيث أن الرجل يأمل في المحافظة على عرضه بالحجر على امرأته . هذا يكون حين يشتري لها جارية مثلا ، ولكن لا من أجل القيام بخدمتها ، وإنما من أجل أن تكون عليها رقيبة حتى لا تخونه في عرضه .

في هذه الحال يرى الشدياق أن الرجل مفضل كبير حين يفعل ذلك . فالمرأة تستطيع خداعه جنسيا عن طريق التواطؤ مع الجارية أو مع الخادمة (١) .

من ناحية أخرى ، يستنكر الشدياق الحصار على المرأة ، " لكون النساء لا يكتمن بعضهن البعض شيئا من أمور العشق وأحوال الرجال " (٢) . وهن لا يتحرجن من وصال غير بعولتهن على حد قوله .

والرجل هو المخدوع الاوّل حين يحجر على المرأة ، لأن هذه تستطيع أن تخون رجلها جنسيا وتستطيع خداعه . وهذا ليس مستغربا عند رجال تقرر في عقولهم أن كل أمر من أمور الدنيا يشين عرض المرأة (٣) .

والحل عند الشدياق للخروج من خدعة الجنس ، هو في الانفتاح . فالتضييق على المرأة يزيد في تماديها الجنسي ، لأنها مخلوق مكبوت ومحجور عليه ، وتتفوق عليه بالفريزة .

شيء واحد يقف حاجزا أمام الخدعة الجنسية وهو الحياء والحشمة ، وعندما ينبهان تلقائيا من أعماق الانسان .

-
- (١) الساق على الساق . ص ٤٥٩ .
 - (٢) المصدر نفسه . ص ٥٣٤ .
 - (٣) المصدر نفسه . ص ٥٥٩ .

الجنس والمرأة

المرأة في عصر الشدياق لا تدري شيئاً سوى أنها مخلوق وجد للذة الجنسية فقط . وهي تنشأ وتكبر ضمن هذا المفهوم التقليدي . وتحرض وهي تنمو على الانتباه الى مواضع اللذة في جسدها . لقد ألفست كونها متاعاً جنسياً ، حيث أنها تذهب الى البيت الزوجي وقد علق في ذهنها أنها وجدت للفراش ولخدمة الرجل .

والشدياق يرى في غياب المرأة من حيث ادراكها المفهوم الحقيقي للجنس ، انحطاطاً نفسياً لها ، ويسخر من انشغال تلك المرأة " بتفخيم مواضع معينة في جسدها " (١) . ذلك أنها تدري بأن الرجل لا يعلق الا بتلك المواضع .

وهو بعد هذا يخلص الى اعتبار المرأة كائناتاً فوق اللذة الجنسية . وتستشهد على ذلك بقول زوجة الشدياق في معرض حديث وضعه على لسانها " ألا لو كان الأمر الني لداويت المجانين كلهم بالنساء ومن النساء وعن النساء " (٢) .

بكاراة المرأة والجنس

الشدياق ألمح الى هذا الموضوع الخطير من ناحيتين :

- ١ - من كونه أقسى أنواع الاستعباد للمرأة .
- ٢ - من حيث أن فقدان بكاراة المرأة ولو لسبب طبيعي حاد جنسي يتوقف عليه ضياع شرفها .

(١) الساق على الساق . ص ٤٢٨

(٢) المصدر نفسه . ص ٤٩٤

فالجنس عند المرأة ، يرتبط ببقاؤها . وهذه البكارة هي الرأس مال الذي يهدف الرجل الى الحصول عليه . من هنا كانت العملية الجنسية محاولة اثبات طهارة المرأة ، حتى اذا تمّ الأمر نفت عنها العار ، " وطالت الأم عن الارض شبرا لهذا الفتح " (١) .

أما سخرية الشدياق الكبرى فتتركز على ذلك المجتمع المفتون ببكارة المرأة ، والمفتون بعمل الرجل الجنسي لاطهار تلك البكارة . فعمل ذلك المجتمع هو نوع من التعبير عن تخلفه العقلي ، حين يهزج ويصفق أمام باب العروسين ، حتى يظهر العريس وفي يده المنديل المخضب بالدم .
فكأن البكارة وسام الجنس .

السلوك والجنس

السلوك الجنسي مهم عند الشدياق ، بل هو مقدس . ويعتبر أن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة يجب أن تحافظ على استمراريتها ودوافعها وأصالتها . وهو يرفض في تلك العلاقة " اللذة الحرام " (٢) .

والواقع - برأيه - أن اللذة في الحلال أقوى . لكن السلوك الجنسي في العلاقة الشرعية بين الرجل والمرأة ينحرف من ناحيتين :

١ - باعتبار أن الجنس يفقد جوهره لطول الفة الزوج بزوجه وضاوته عليها .

٢ - وباعتبار أن الغياب النفسي لكل من الزوج والزوجة مقدر في العلاقة الجنسية التي تتم تحت ضغط الغريزة فقط .

(١) الساق على الساق . ص ٤٠٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٣٤ .

والنتيجة ، أن السلوك الجنسي يحدد العلاقة الحميمة بين الرجل والمرأة ، وحتى لا تكون لذة المرأة ان حدثت ناشئة عن أنها تتصور رجلا غير زوجها أثناء العمل الجنسي .

وهذا التصور ، يكفي لاثبات الخلل في العلاقة الجنسية المهمة . ومن ثم ينبغي إعادة النظر في السلوك الجنسي من قبل الطرفين وحتى لا يفقد الجنس حرارته الانسانية .

الشذوذ الجنسي

ان العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة ليست تامة ولا متساوية برأى الشدياق ، برغم أن ليس من تضية للرجل الا وللمرأة مثلها (١) . لذلك يستهجن خلل تلك العلاقة في الوقت الذي يستحسن فيه البعض وجود الغلمان في الحمامات (٢) . ولا شك في أن الشدياق هنا حين يتعرض لقضية " الشذوذ الجنسي " ، فلكي يربط بين انحراف الجنس وانحراف السلوك .

ذلك أن كل " انسان يعرف ما المقصود من وجود الغلمان في الحمامات " (٣) والانحراف يراه الشدياق في شذوذ المسلك ، حين يأنف الرجل من ماشاة امرأته في الطريق ، ولكنه لا يجد ضيرا في أن يماشى غلاما بصورة تبعث على سوء الظن .

(١) الساق على الساق . ص ٥٢٥ .

(٢) الجوائب . عدد ٣٩١ . تاسع سنة . ٣١ ايار ١٨٦٩ .

(٣) المصدر نفسه .

انهيار الأمم والجنس

في النتائج ، يمكن التوصل مع الشدياق الى أن الجنس حين يصبح غاية في حد ذاته ، يوءى الى الانهيار . ولا شك في أن الشدياق ينسج الى الرابطة الخفية بين العقل والجنس . فالأمم حين سخرت امكاناتها النفسية والعقلية في سبيل النساء وسبيل الخلاصة والقصف ، انهارت وانقرضت .

ويذكر الشدياق على سبيل المثال دولة اليونانيين والرومانيين ودولة العرب في الاندلس ودولة الفرس والكلدانيين والهنود (١) .

الشدياق " فرويد " القرن التاسع عشر

والخلاصة عند الشدياق أن الجنس قضية طبيعية حياتية ، وهو يرتبط ارتباطا جذريا بكل النظم البشرية . وربما نصل مع الشدياق الى أن انتظام الحياة الجنسية الطبيعية في مجتمع ما ، معناه انتظام مثله وارتقاء حضارته ومدنيته .

والشدياق في بحثه لهذه الفلسفة الجنسية يكون قد سبق فرويد في الربط بين الجنس ونظام الحياة ، واستحق لقب " فرويد القرن التاسع عشر " .

x x x
x x
x
x

(١) كثر الرنائب ، ج ١ ص ٨٨ - ٨٩ .

الفصل الثالث

المجتمع

الطبقيّة : ازالة الفوارق الطبقيّة

تحرير العبيد

شريعة حقوق الانسان

الاخلاق : الاخلاق والتخنيث

المسارح والملاهي

فلسفة سلوك الانسان

الثقافة : انشاء المطابع

قيمة الكتاب

مسؤولية الفرد الثقافية

الثقافة والمدن

ازالة الفوارق الطبقيّة

من جملة المبادئ الاصلاحية الاجتماعية التي دعا اليها الشدياق ، ازالة الفوارق بين الطبقات . وقد تعرض في هذا الى نقد النظام الاجتماعي بالسخرية منه .

وسخرية الشدياق هذه تركزت على طبقة اجتماعية ذات شأن ، هي طبقة الحكام . فهو قد رأى في تلك الطبقة فراغا وجهلا لا يقلان عن الفراغ والجهل في الطبقة المحكومة .

والشدياق تنكر لهذه الطبقة من ناحيتين :

- من حيث بعد الشقة بين هذه الطبقة وعامة المجتمع .
- ومن حيث التباعد بين الحاكم وأفراد أسرته الملتصقين به ، كالمرأة والطفل ، وانعكاس ذلك التباعد على الرعية (١) .

لذلك كانت دعوة الشدياق صريحة الى ازالة تلك الفوارق الطبقيّة ، في الأسرة أولا ، وفي المجتمع ثانيا .

ففي الاسرة ، تزول تلك الفوارق بين الحاكم وزوجته بالمساواة بينهما في الحقوق والواجبات ، وحيث يقتضي التطور ذلك .

وفي المجتمع ، يمكن القضاء على الطبقيّة بالتركيز على المساواة بين الافراد منذ الطفولة ، وذلك باختلاط الاطفال من مختلف الطبقات الاجتماعية بعضهم مع البعض الآخر . " فالاطفال الصغار لا يعلمون هذه الفروق " (٢) كما يقول الشدياق " فان رأس الفقير ليس بأضيق ولا أصغر من رأس الامير " (٣) .

(١) الساق على الساق . ص ٤٧٠ - ٤٧١ .

(٢) المصدر نفسه . ص ٤٧٣ - ٤٧٤ .

(٣) المصدر نفسه . ص ٤٧٣ - ٤٧٤ .

تحرير العبيد

وانطلاقاً من مبدأ المساواة هذا ، دعا الشدياق الى تحرير العبيد اذ كانت تجارة الرقيق سائدة في عصره .

وقد اعتبر الشدياق أن العبودية الاجتماعية " من أعظم المفاسد ولا مصلحة فيها سوى لبعض أفراد من الناس " (١) .

من حيث المبدأ الانساني ، يقف الشدياق بصورة خاصة عند الجوارى ، مستعرضاً السبب الهمجي الذي يدفع سكان البلاد المجاورة لبلادهم الى أن يخلطوهم خطأ ، ثم يأتون بهم الى بعض الجهات التي يروج فيها بيعهم ويبيعونهم بثمن بخس .

واعتاق العبيد ضرورة اجتماعية برأى الشدياق من وجهين :

١ - حرص الدولة على هذا العمل الخيري الانساني ، حفظاً لكرامة الانسان .

٢ - ان هؤلاء الجوارى لا يحسن الخدمة اللازمة لاصحاب العيال .

هذا ، فضلاً عن أسباب أخرى عديدة توجب على كل ذي نية ومروءة أن يسعى الى ابطال هذه العبودية من الديار الاسلامية وفي اتخاذ طريقة تغني عنها " (٢) .

(١) الجوائب . عدد ٣٤٥ . سنة ثامنة . ص ٣ . عمود ٢ - ٣ . تاريخ ١٨٦٩/٦/٢٣ .

(٢) الجوائب . عدد ٣٤٤ . السنة الثامنة . ص ٢ . عمود ٢ - ٣ . تاريخ ١٨٦٩/٦/١٦ .

شريعة حقوق الانسان

وقد دافع الشدياق عن حقوق الانسان ، وشار على امتهان حرية الفرد من قبل الفرد الآخر . وطالب الدولة باقرار حق المساواة بين الناس ، وحملها مسؤولية فرض شرعية حقوق الانسان .

وفرض شرعية الحقوق الانسانية واجب في نظر الشدياق لاسباب منها :

- أن بيع الرقيق حرام قطعا .
- ضرورة اعشاق العبيد ومنحهم الحرية .

وبرأى الشدياق أن " السياسة تقتضي منع هذه التجارة الذميمة اسوة بما يجرى في الدول التي قضت على حالة العبودية في أراضيها كروسيا واميركا " (١) .

وان شرعة تطببق حقوق الانسان لها انعكاس على الصعيد الاجتماعي العملي . وقد لا يمكن الاستفادة من الطاقة الانسانية المتجمدة ضمن اغلال العبودية . فالجوارى مثلا " مادم من على حالة الرق والعبودية فلا يصلح للخدمة . فاذا اعتقن واستخدم من باجرة حرصن على اجورهن والقيام بما يجب عليهن في الخدمة " (٢) .

(١) الجوائب . عدد ٣٤٤ . السنة الثامنة . تاريخ ١٦/٦/١٨٦٩ .

(٢) الجوائب . عدد ٣٤٥ . السنة الثامنة . ٢٣ حزيران ١٨٦٩ .

الاخلاق والتخنث

ربط الشدياق بين الاخلاق والتعدن الذي اورث التخنث . فالتعدن برئيه يجب ان يكون وسيلة لتحسين الاخلاق لا لضعافها . وهو - أى التعدن - صفة مشتركة بين الرجال والنساء (١) .

واستهدف الشدياق في نقده التعدن ، ناحيتين :

اولاهما تتعلق بالانسان الذي هو مصدر ذلك التعدن . فهذا الانسان " يفعل ما لا تفعله الضمير في اوجارها " (٢) .

وثانيتهما تتعلق بالتخنث الذي هو تعدن بالمل ، وانحلال خلقي يكاد يستقل العروة والفتوة ويلوى الهم تحت الاراء المحشوة " (٣) .

المساج والملاهي

وكان للشدياق رأى في المساج والملاهي . فهو لم يرض عنها من الناحية الاخلاقية ، ورأى ان ترتك المساج اعظم من نفعها ، وهي بالتالي تنزل انعكاسا سيئا على افراد المجتمع . فهذه المساج كالخمرة تبعث الانسان على الولوع بها ، حتى ان كثيرا من عامة الناس يقتنون على انفسهم وعيالهم حتى يمكن لهم مشاهدتها (٤) .

كذلك الامر فيما يتعلق بمواضيع الرقص . فهذه المواضيع مبنية على الفساد من اصلها ولا شيء منها نافع البتة " (٥) .

-
- (١) الجوائب . عدد ٣٨٨ . السنة التاسعة . تاريخ ١٠ ايار ١٨٦٩ .
ص ٣ عمود ١ - ٢ .
- (٢) الساق على الساق . ص ٥٧٦ .
- (٣) الجوائب . عدد ٥٥٥ . سنة ١٨٧١ . تاريخ ١٢ آذار ١٨٧١ .
ص ١ عمود ٣ .
- (٤ ، ٥) كرز الرئائب . ص ١٩٣ .

فلسفة سلوك الانسان

وقد حدد الشدياق سلوك الانسان ضمن مفهوم التمدن . فالتمدن سلوك انساني قبل أن يكون خلاعة واستهتارا . وشدد على القيم الاخلاقية كدعائم لمجتمع أصيل وراق .

أما فلسفة سلوك الانسان عند الشدياق فتتلخص في :

- ١ - أن يتمتع ذلك الانسان بأدب النفس قبل أدب الدرس (١) .
- ٢ - أن يكون علمه وسيلة لخدمة مجتمعه لا نفسه (٢) .
- ٣ - أن سلوك الانسان فطري ، والعلم لا يقود الى الاخلاق (٣) .
- ٤ - أن أحسن السلوك ما جعل الانسان يهتم بما يعنيه ولا يطلب ما يشقيه (٤) .
- ٥ - أن يعتمد الانسان في سلوكه ارضا الخالق ، " فان أغراض الناس متفاوتة وأهواءهم كهبوب الرياح لا تستقر على اصلاح " (٥) .
- ٦ - أن محبة الوطن من أجل الوطن فقط ، قمة السلوك الانساني (٦) .
- ٧ - أن السلوك الأصيل لا يغيره انقلاب الأحوال (٧) .
- ٨ - أن أخلاق الانسان الحر لا تباع ولا تشتري (٨) .

(١) " واذا فاوضت ذلك الانسان في فنون الشعر وأساليب الكلام وجدته يستشهد على كل معنى ببسيت حتى اذا فرغ من تلك الفنون العجيبة والاساليب المطربة مدّ رجله في وجوه الحاضرين وجعل يدفئهما على النار اذا كان الوقت شتاء ، وان كان صيفا نزع جواربه وألفاهما بجانبه "

" الجواب . عدد ٤٠٧ . تاسع سنة . تاريخ ٢١ ايلول ١٨٦٩ . "

- (٢) كثر الرغائب . ج ١ ص ١٩٧ .
- (٣) المصدر نفسه . ج ١ ص ٢٠٧ - ٢٠٩ .
- (٤) المصدر نفسه . ج ١ ص ٢١١ - ٢١٥ .
- (٥) المصدر نفسه . ج ١ ص ٢١٢ .
- (٦) " فيا للمعجب ممن يحب وطنه ليرجع المدح الى نفسه ومع ذلك فانه يقول حب الوطن من الايمان ، وهو لأمله شأن ويذكر عيوبهم سكران وعن عيوب نفسه وسنان ، وهكذا حالة أكثر الناس في هذا الزمان ، وهذه محبتهم للاوطان وهي محبة كاذبة ودعوى عابثة " كثر الرغائب . ص ٢٢٦ . ج ١ .
- (٧) كثر الرغائب . ج ١ ص ٢٣٠ - ٢٣٢ .
- (٨) الجواب . عدد ٣٤٤ . ص ٢ عمود ٢ .

انشاء المطابع

كان العلم هاجس الشدياق . وقد آمن بأن رقي المجتمع هو في ثقافة أبنائه . لذلك ثار على الجهل ، وعلى الانحطاط الذي يخلفه ، ودعا الى نشر الثقافة بين جميع الطبقات الاجتماعية .

وركز الشدياق بصورة خاصة على جهل الطبقة الغنية ، طبقة الامراء ، هذه الطبقة ذات العقلية المتخلفة التي لم يستطع المال أن يحررها ثقافيا ، وبالتالي أن يهذبها اجتماعيا (١) . وفي هذه الطبقة يبقى الرجل " قاعدا مطرقا لا كتاب عنده يظالعه ، ولا سمير له يسامره ، ولا آلة لهو تطربه " (٢) .

وكان رجاء الشدياق من تلك الطبقة الفنية أن تسعى لتستلم ولنشر العلم ، وان تعمل على انشاء مطبعة " تطبع فيها الكتب المفيدة للرجال والنساء والاولاد ولكل صنف من الناس على حدته ، حتى يعرفوا ما لهم وما عليهم من الحقوق سواء كانت تلك الكتب عربية أو معربة " (٣) .

وبرأيه أن وجود مطبعة في البلاد أولى من تلك " الطيالس الكشميرية وتلك الفراء السمورية وهذه الآنية النفيسة والحلى الفاخرة " (٤) .

(١) " . . . والعجب أنك كت ترى الامراء يقعدون على الحصر وعند النوم يرقدون فوقه على فراش واحد . وربما اجترأوا بالبيض والارز واللبن عن الحمام والفراخ والدجاج من دون شراب ولا فاكهة ولا نقل . . . وأرجلهم ظاهرة فاذا قعدوا على الحصر خلعوا نعالهم بالقرب منه فتبقى برأى منهم (اي من الناس) . وترى بعض خدمهم يقوم على رؤوسهم أي بازائها لا فوقها وفي حزامه الملعقه . . . "

الساق على الساق . ص ٤٧٠ - ٤٧١ .

(٢) الساق على الساق . ص ٤٧٠ - ٤٧١ .

(٣) المصدر نفسه . ص ٥٢٢ . ١ - مكرر : هكذا جاء في الاصل .

(٤) المصدر نفسه . ص ٥٢٣ - ٥٢٤ .

قيمة الكتاب

وشدد الشدياق على الكتاب كطريق الى الثورة الثقافية ، فوجه الانظار الى أهميته وقيمته . وأكد أن " وجود مئة كتاب في دار انسان خير من وجود كذا وكذا قصبة للتبغ وكذا وكذا أركيلة " (١) . هذا مع العلم بأن ثمن المئمة كتاب لا يوازي ثمن ثلاث قطع من " الكهرباء " ، ومع العلم بأن الكتاب كلما مرت عليه السنون زادت قيمته وكثرت منافعه (٢) .

مسؤولية الفرد الثقافية

من هذا الاعتبار أناط الشدياق بالفرد مسؤولية القضاء على الجهل . فعليه أن يهتم بتعليم أهله وذويه لان مزار الجهل قد تؤدي بهم الى التهلكة . وهو يقرر أن هناك ثقافة ضرورية وواجبة يفترض في الانسان أن يتلقاها ، وعليه فان " تلقى المرء مثلا بعض القواعد اللازمة لحفظ الصحة من كتب الطب ، تحميه وتحمي من حوله من مزار كثيرة لا تعرف نتائجها " (٣) .

ويعترف الشدياق بنقص الامكانات الثقافية في بلاده ، لذلك يرى من الواجب الاخذ عن الثقافة الخربية على اعتبار أن ليس عندنا في العربية كتب وافيسة للجميع . ولكن " في اوربا كتباً مختصة بالنساء والاولاد ، وهذه الكتب يولفها الرجال الفاضلون المهدبون " (٤) .

والسؤال الذي يطرحه الشدياق هنا : " لماذا يشتري الانسان الشرقي من الافرنج الخرز والمتاع ، ولا يشتري منهم العلم والحكمة والآداب ؟ " ولماذا يقتصر الانسان على معرفة ربح لغة ولا يتشوق الى علم ما يفكر به غيره ؟ " أليس في بلاد الغرب أفكار ومعان لم تخطر في بالنا نحن ؟ " (٥) .

-
- (١) الساق على الساق . ص ٥٢٣ .
 - (٢) المصدر نفسه . ص ٥٢٤ .
 - (٣) المصدر نفسه . ص ٥٢٣ .
 - (٤) المصدر نفسه . ص ٥٢٤ .
 - (٥) المصدر نفسه . ص ٥٢٥ .

الثقافة والتمدن

- أما أهداف الثقافة برأى الشدياق ، فان توصل الانسان الى التمدن ،
لانه ليس معنى الثقافة ، الكتابة والفصاحة والبلاغة والخطابة ، ولان هذه
الامور وحدها ليست كافية في تمدن المدينة وتحضير البلد " (١) .

ويقوم الشدياق الانسان المثقف على أساس دوره الايجابي في انقاذ المجتمع
من تخلفه . فالقيم الانسانية تتركز في السعي الى تحسين أوضاع الافراد بكل
الوسائل الممكنة . والمثال الواقعي الذي يقدمه الشدياق عن واقع الثقافة
والتمدن هو الآستانة . ففي تلك العاصمة الضخمة ألوف من الكتاب البارعين
ومع ذلك لم تزد المدينة تمدنا على حالتها الاولى (٢) .

اذا ، فالثقافة ان لم تقد الى التمدن ، كانت رفاهية فردية لا تفيد الا
صاحبها ، وتبقى بالتالي ناقصة ان لم توضع في خدمة الجماعة والمجتمع .

x x x
x x
x
x

(١) الجواب عدد ٤٠٣ تاريخ ٢٤/٨/١٨٦٩ . السنة التاسعة . ص ٢ - ٣

عمود ٣ - ١ .

(٢) " . . . فما زال الناس يمشون سعياً على أقدامهم ويعرضون أنفسهم لوهب الشمس
والتراب في الصيف وللزمهرير والمطر والوحل في الشتاء ، مع أن وجود
الحوافل الكبار مما لا يستغنى عنه ، فليس في مدن الدنيا قاطبة مدينة
كبيرة تخلو من هذه الحوافل . . . "

الجواب عدد ٣ - ٤ .

الفصل الرابع

الاقتصاد والمجتمع

البطالة والاخلاق
البطالة والوقت
المقاهي والبطالة
قدسية العمل
الطاقة البشرية
الطاقة الانتاجية في المرأة
قيمة العامل
تنظيم المهنة
تشجيع الصناعات المحلية
ضياح اقتصادي

مسؤولية الاصلاح : مسؤولية الدولة
مسؤولية الصحافة

لم يقف الشدياق مكتوف اليدين أمام مشكلات عصره الاقتصادية . بل دخل الى صميم المؤسسة الاقتصادية كأحد الباحثين الاقتصاديين في القرن التاسع عشر ، وربط بين التخلف الاقتصادي الذي كان يسود بلاد الشرق والتخلف الاجتماعي الذي يسيطر عليها . وكانت أولى المشكلات الاقتصادية التي وقف عندها ، مشكلة البطالة . فقد هاله كثرة العاطلين عن العمل ، كما هالته الآفات الاجتماعية والأمراض الخلقية التي خلفتها تلك البطالة . لذلك لم يتردد الشدياق بجعلها في مرتبة الأهم (١) .

البطالة والاخلاق

وفي هذا ، انتقد الشدياق الانسان العاجز عن تحصيل معاشه كائنا من كان . ولم يخفف لهذا الانسان قصوده عن طلب الرزق واستكانته الى نعم السماء ، وقضاء أوقاته كلها في البطالة ومعاشرته الأوباش (٢) . والشدياق لم يقتنع أيضا بفلسفة أولئك المتبطلين الذين يعتبرون أن الغنى والفقير سواء ، ويعتبرون أن لكل انسان مقدارا من الرزق يصل اليه سواء عمل أم لم يعمل .

واكثر ما ضايق الشدياق أولئك الملازمون للبطالة . "فهؤلاء لم يلازموا السكوت كما لزموا الكسل ، بخلاف الذين يكدون ويسعون فان ألسنتهم تكون مكفوفة " (٣) .

-
- (١) الجوائب . عدد ٤٠٧ . ص ١ عمود ٣ و ص ٢ عمود ١ .
 - تاريخ ٢١ ايلول ١٨٦٩ .
 - (٢) كنز الرغائب . ج ١ ص ١٩١ .
 - (٣) المصدر نفسه . ج ١ ص ١٩٢ .

البطالة والوقت

والعاطل عن العمل انسان لا يحترم الوقت ولا يعرف قيمته ، وهو بالتالي لا يحترم وقت سواء ولا يعرف له قيمة أيضا . والشدياق يؤكد أن الانسان " العامل يستطيع أن يصنع في دقيقة واحدة مائة يذكر بها حتى انقضاء الدهور " (١) . لكن المتبطلين لا يفرقون ما بين أوقات العمل وسواها ، فكل الازمنة لديهم واحدة . وقد ترى أحدهم " يبكر عليك لمجرد الكلام مع علمه بأنك مشغول بأمر معاشك ، دون أن يدري بأن الانسان العامل يتمنى أن يخسر من متاعه شيئا كل يوم على أن يخسر ساعة واحدة من أوقات صباحه العملية المنتجة . . . " (٢) . ولا شك في أن اضاءة أول النهار في الكلام الفارغ لهو اثم كبير .

المقاهي والبطالة

والشر الاكبر على العاطلين عن العمل هو المقاهي . فهذه المقاهي برأى الشدياق لا فائدة منها ، إذ أنها " منتاب ذوى البطالة والكسل من الناس " (٣) . ان العاطلين عن العمل يأتون تلك المقاهي منذ الصباح ، ويبقون فيها طول النهار ، لا عمل لديهم سوى شرب القهوة والتارجيلة والثرثرة واللعب والورق وغير ذلك (٤) .

وفي هذا تخرج المقاهي في الشرق عن الهدف الذي يجب أن توجد من أجله . ففي أوروبا مثلا " مواضع للقهوة كثيرة ، ولكن الناس يقصدونها للفائدة لا لاضاعة الوقت ، يقصدونها لمطالعة الجرنالات والاطبار المفيدة " (٥) على حد قوله .

من هنا يدعو الشدياق الى التسببه لهذه الشرور ، فليس ازدياد عدد المقاهي الا دليلا على ازدياد عدد المتبطلين .

-
- (١) كثر الرغائب . ج ١ ص ١٩٢ .
 - (٢) الجوائب . عدد ٤٠٢ . ص ١ عمود ٣ ص ٢ عمود ١ . ٢١ ايلول ١٨٦٩ .
 - (٣) كثر الرغائب . ج ١ ص ٤٠ - ٤١ .
 - (٤) الجوائب . عدد ٤٠١ . ص ٢ عمود ١ - ٢ .
 - (٥) كثر الرغائب . ج ١ ص ٤١ .

قدسِيَّة العَمَل

في الواقع ، أن لا شيء يُلور الإنسان ويصقل معدنه كالعمل . ولهذا قدس الشدياق العمل لدرجة فرضه على كل إنسان قادر عليه ولو كان عاجزا أو طفلا . وقد انطلق في تقديسه العمل من مبدأ الطاقة الكامنة في الإنسان ، ومن حرصه على عدم هدر تلك الطاقة العاملة والفاعلة فيه .

في الاستفادة من تلك الطاقة الكامنة هناك أساليب متعددة يمكن اتباعها مثلا ، بالنسبة الى الفقراء والعاجزين ، فهؤلاء يمكن أن " يجعلوا في ديار مخصوصة وتجري عليهم الارزاق من أهل الاستطاعة . ومن كان منهم قادرا على العمل الزم به بحسب طاقته ، ثم يُوخذ ما يعمله ويبيع ويجعل الثمن زيادة في معاشهم . " (١) .

أما بالنسبة الى الصغار ، فعلى الأب أن يلزم ابنه بالاشتغال ببعض المهنة والحرف ولو كان دون البلوغ ، فهذا أفضل من أن يبقى على قارعة الطريق (٢) . ولا خوف على هؤلاء الصغار من العمل ، كما لا خوف على سواهم . ففي العمل صحة وعافية وبعد عن الشرور ، وأن الذين يتعودون البطالة والكسل ، هم أكثر الناس عللا وأمراضا (٣) .

الطاقة البشرية

وهكذا يصل الشدياق الى فكرة تحويل الطاقة البشرية الى طاقة منتجه ، تتناسب مع امكانات الإنسان العقلية والجسدية . وقد قدّم مثلا على هدر تلك الطاقة الانسانية في اولئك " الضخام الجثة ، الطوال القامة ، الذين ليس لهم من شغل سوى مناولة فنجان القهوة للضيوف " (٤) .

هذا اذا أخذنا بعين الاعتبار - على حد قول الشدياق - هدر طاقة الإنسان الذي يتم بصنعها ، وطاقة الإنسان الذي ليس له من مهمة سوى مناولة قصبات الدخان ه " فهذه ثلاثة رجال قد تعطلت عن الشغل النافع بخير موجب " (٥) . وقس على ذلك طاقات الآلاف من البشر التي تذهب هدرًا ، وبلا استثمار .

(٢٥١) كثر الرغائب . ج ١ ص ٩٩ .

(٣) المصدر نفسه . ج ١ ص ١٢٥ .

(٥٤) المصدر نفسه . ج ١ ص ٩١ .

(٥) مكرر : هكذا جاء في الاصل .

الطاقة الانتاجية في المرأة

أما أكبر طاقة انتاجية تذهب هدرا ، فهي طاقة المرأة . وفي هدر تلك الطاقة مفسدتان برأى الشدياق : مفسدة اخلاقية ومفسدة اجتماعية .

هي مفسدة أخلاقية : من حيث أن فراغ يد المرأة عن العمل يشغل لسانها بالباطيل ، ويشغل قلبها بالاهواء ، ولا شيء يصون المرأة عن الرذيلة ويدنيها من الفضيلة اكثر من العمل (١) .

وهي مفسدة اجتماعية : من حيث أن تعطيل المرأة عن العمل معناه حرمان نصف المجتمع من طاقة بشرية هائلة تذهب هدرا . وهي بالتالي تشكل عبئا ثقيلا على الرجل الذي يضطر الى اعالتها وتحمل نفقاتها .

ومع ضرورة الاستفادة من الطاقة الانتاجية في المرأة ، يشترط الشدياق في عملها أن يكون معادلا لقدرتها الجسدية وملائما لنفسيتها . فهناك فارق كبير بين المرأة والرجل ، وأن ما يستطيع الرجل القيام به من الاعمال يفوق استئلاعة المرأة . لذلك كان على المرأة " أن تباشر من الاعمال قدر طاقتها ، وفي باريس مثلا ترى النساء اللاتي يعين في الدكاكين اكثر من الرجال " (٢) .

والنتيجة ، أنه اذا اجتمع بالمرأة السرف والبطالة والجهل ، كانت وبالا على زوجها وعلى أهلها ، بل على أهل البلد جميعا . . . (٣) .

قيمة العامل

وباعتبار أن الطاقة الانتاجية موجودة في العامل ، أوصى الشدياق باكرامه ورفع شأنه . فهو - أي العامل - قيمة اقتصادية ضخمة لا يحق معها لاي انسان مهما علا شأنه " أن يحتقر أحدا ممن يحملون بأيديهم ، فان زينة الكون بهم وعمران الدنيا متوقف على دأبهم " (٤) . وهو لا العامل أولى بالاكرام ممن يصرفون أوقاتهم في اللهو والمدام والقصف . . .

-
- (١-٢) كثر الرغائب . ج ١ ص ١٢٥ .
(٣) المصدر نفسه . ج ١ ص ١٣٥ .
(٤) المصدر نفسه . ج ١ ص ٢٢٩ .

ويرى الشدياق انه يجب التفريق بين العامل كإنسان ونوع العمل الذي يقوم به . فالمجتمع بحاجة الى جميع أنواع الفنون والصناعات ، وبحاجة الى جميع العاملين في تلك الفنون والصناعات . والعامل جميعا بمنزلة أعضاء متعددة في جسم واحد ، وليس لإنسان أن يقول ان هذا العضو يمكن الاستغناء عنه .

وهذه النظرية التي يفترضها الشدياق واحدة من أحدث النظريات الاشتراكية في العالم التي تدعو الى التساوي بين أفراد الطبقات العاملة ، والتي تؤكد على حقوق تلك الطبقات ، وعلى قيمتها في المجتمع . فسواء عنده من " يكسو الرأس بعمله أو يكسو القدم أو يضع سيفاً أو مبراة للقلم " (١) .

تنظيم المهنة

لذلك التفت الشدياق الى ضرورة تنظيم المهنة بشكل يحفظ للحرفة قيمتها ، وللعامل حقوقه . فالعامل يجب عليه أن يتقن صنعة واحدة بحيث يتفوق فيها وتصبح له معها رتبة مشهورة . وهذا الاتقان يعني مبدأ الاختصاص الذي بحسبه تتوزع الاعمال على الافراد ، وينتظم معها المجتمع الاقتصادي (٢) .

أما من جهة تعلم الصناعة ، فالشدياق يأسف لعدم وجود طريقة معتمدة في التعليم في الممالك الشرقية . وهذه الطريقة ، ان وجدت ، فبدائية وسطحية ، وان الذي يريد أن يتعلم صنعة في هذه الممالك " لازم معلمه مدة غير محدودة ، وربما لبث معه سنة او أقل حتى اذا خطر بباله أنه مهر في الصنعة فارق معلمه ، وفتح دكانا تجاهه " (٣) .

هذه الفوضى في التدريب على المهنة تحرم الصناعة المحلية من الجودة والاتقان ، وتعرضها بالتالي لمزاحمة البضائع الاجنبية التي هي اكثر تفوقا . فمن يريد أن يتسلم صناعة ما في اوروبا ، وجب عليه أن يمكث عند معلمه سنين معلومة ، قد تبلغ السبع سنوات أحيانا على الاقل (٤) .

-
- (١) كثر الرغائب . ج ١ ص ٢٢٩ .
 - (٢) المصدر نفسه . ج ١ ص ٢٣٤ .
 - (٣) المصدر نفسه . ج ١ ص ٩١ .
 - (٤) المصدر نفسه . ج ١ ص ٩٢ .

تشجيع الصناعات المحلية

ولعدم وجود التخطيط الصناعي ، تخلو البلاد الشرقية من الصناع الماهرين ومن الصناعات المحلية المهمة ، برغم غنى تلك البلاد بالمواد الاولية اللازمة للصناعة . وقد دعا الشدياق الى اقامة الصناعات الوطنية لاسباب عديدة أهمها :

- انه لا يجوز لبلد يحترم كيانه أن يستورد من البلاد الاجنبية كل شيء حتى الملابس والاثاث .

- وأنه لا يجوز هدر الاموال الوطنية على صناعات أجنبية تصل الينا بأغلى الاسعار .

- ضرورة تشجيع اليد العاملة الوطنية وتعليمها الصناعة المتقنة عن طريق احضار صناع ماهرين من اوروبا ، لان الصنعة يجب أن تؤخذ من أهلها .

- محاربة الفسح الاجنبي . فان المصنوعات الافرنجية التي يتهافت عليها سكان الممالك الشرقية لا تخلو من غش قد يفوتنا . فنحن ينقصنا القدرة على التمييز بين الصناعات الجيدة والرديئة (١) .

ضياع اقتصادى

والنتيجة ، أن البلاد الشرقية بلاد الفوضى الاقتصادية وبلاد هدر الاموال على جهل . وليس أدل على هذا الضياع الاقتصادى من العادات الحاملة على البطر والاسراف والتي يتبعها جميع الناس . فعامة الناس - كما يقول الشدياق - " لا يعرفون ضرهم من نفعهم " (٢) .

(١) الجوائب . عدد ٣٨٦ . السنة التاسعة . تاريخ ١٨٦٩/٤/٢٨ .

ص ٢ عمود ٢ - ٣ .

(٢) الجوائب . عدد ٣٩٩ . السنة التاسعة . تاريخ ٢٦ تموز ١٨٦٩ .

وهكذا يمثل الضياع الاقتصادي في ناحيتين :

- هدر الطاقة البشرية .

- هدر الأموال .

فالإنسان الشرقي تنقصه ذهنية التنظيم ، وينقصه الوعي الاجتماعي .
والشدياق يقدم مثالين على ذلك .

المثال الأول يراه في هدر الأموال على الزواج . " فالرجل عندما لا يمكنه أن يرى زوجته إلا بعد أن ينفق خمسة آلاف قرش في الاقسل " .
هذا اذا لم يتزوج الا مرة واحدة فقط .

المثال الثاني يراه في هدر الأموال على ما يتبع ذلك الزواج بسبب العادات والتقاليد ، وبسبب احترام الناس الشديد لها وتمسكهم بها .
وهكذا تضيع الامكانيات الاقتصادية في حلبة التخلف الاجتماعي .
فمن هو المسؤول عن الاصلاح ؟

مسؤولية الاصلاح

اشنان تقع عليهما مسؤولية الاصلاح هما : الدولة ، والصحافة .

مسؤولية الدولة : الدولة هي المسؤولة الاولى عن كل اصلاح تربوي واجتماعي واقتصادي .

- ففي الاصلاح التربوي : يرى الشدياق أن على الدولة أن تكون الباحثة عن المزايا الطبيعية والملكات الخريزية في الاطفال وهم على صغر ، وعليها أن تتحمل مسؤوليتهم التربوية الى أن يبنغوا . كما يجب على تلك الدولة أن تحمّل مشايخ القرى وأمناء المدن مثل تلك المسؤولية ، وأن تحت الاغنياء على المشاركة المادية في التربية ، اذ لا يجوز لها - أي للدولة - أن تتحمل وحدها هذا الأمر (١) .

كما أن عليها العمل على انشاء المطابع والعناية بطبع الكتب وانشاء المدارس والدعوة الى التعليم (١) .

- في الاصلاح الاجتماعي : يجب على الدولة التدخل في تنظيم الاسرة وتنظيم الزواج والطلاق ، ان أنه ليس من أحد أولى منها بذلك (٢) . ويجب عليها أيضا القضاء على العادات والتقاليد البالية التي ألفها الناس منذ أحقاب عديدة ، والاخذ بأسباب التمدن (٣) .

- في الاصلاح الاقتصادي : على الدولة أن تعمل على تنظيم المصنوع ، فتمهد الطرق وتنشئ وسائل النقل ، وأن تعمل على تنظيم الصناعة والتجارة وتوسعى لازدهارهما (٤) .

مسؤولية الصحافة : ورأى الشدياق أن على أصحاب الصحف أن يتنبهوا الى الخلل الاجتماعي والثقافي والاقتصادي ، وأن يتكلموا عنه في صحفهم . فالناس في المجتمع الشرقي كالاطفال القاصرين (٥) يحتاجون الى من يرفع الغشاوة عن أعينهم ويقودهم الى السبيل الصحيح .

ان دور الصحافة بالدرجة الاولى " التنبيه لاصلاح الخلل ، لانقل الاخبار التي لا فائدة منها البتة لاحد " (٦) . وهو يستكر أن تسهم تلك الصحافة بنقل خبر " سفر زيد من بلد الى قرية ، مما لا يعني أحدا من الناس ، ومن ثم تتعاضى عن الآفات الاجتماعية التي يشكو منها أصحاب الصحف أنفسهم .

-
- (١) الجوائب . عدد ٣٧٨ . ص ٢ عمود ٣ .
 - (٢) كثر الرغائب . ج ١ ص ١٠٠ .
 - (٣) الجوائب . عدد ٣٩١ . ص ٣ عمود ٢ - ٣ . تاريخ ١٨٦٩/٥/٣١ .
 - (٤) الجوائب . عدد ٤٠٣ . وعدد ٣٨٦ . وكثر الرغائب . ج ١ ص ١١٩ .
 - (٥) كثر الرغائب . ج ١ ص ١٠٠ .
 - (٦) المصدر نفسه . ج ١ ص ٤٠ - ٤٢ .

والى جانب هذا ، فان جميع المثقفين من وعاظ وخطباء ومؤلفين
وكتّاب صحف ، " مكلفون للاطلاع على الحقائق من دون حجاب وبأن
يلفوا الناس أجمعين كلام الحق المبين " (١) .

وهكذا يكون الرفض الاجتماعي عند الشدياق نداءً مخلصاً للثورة على
مفاهيم بالية ومتوارثة ، ودعوة الى بناء صرح اجتماعي يماشي سنة
التطور ويتمسك بأهداب القيم والاخلاق .

x x x
 x x
 x
 x

(١) كثر الرغائب . ص ٢٣٧ - ٢٤٠ . ج ١ .

الرفـض الـديـني

الشدياق مؤمن ، وقد قبل الدين بالعقل . الدين بالنسبة اليه ضرورة ، ولكن الطريقة التي تعالج بها مسائل الدين خاطئة . اعترض على رجال الدين ، ونسب اليهم الجهل والتزمت . اعترض أيضا على الطريقة التي تعالج بها المسائل الدينية والطريقة التي يتجادل بها المتجادلون حولها ، والتي تنتهي أحيانا بتكفير بعضهم البعض .

في الواقع ، أن ثورة الشدياق على الدين لم تكن ثورة عاطفية هوجاء كما أراد أن يحددها له البعض . صحيح أن عذاب أخيه أسعد وموته في سبيل عقيدته البروتستانتية واصراره عليها ، عامل أكيد وأساسي في الرفض . بل ربما كان الأساس الاول والوحيد . الا أن الشدياق اتخذ ذلك الأساس كنقطة انطلاق للبحث والتفكير والجدال والنقاش . جادل في الكنيسة ، قلق من المسائل الدينية ومن رجال الدين ، تعمق في حقيقة سلطة البابا المتوارثة ، وقارن بين الشرق والغرب . وانتهى من كل هذا بنتيجة واحدة : انتصار العقل على القلب ، وانتصار حرية التفكير والعقيدة على الجمود .

في رؤياه للدين ، أراد بناء كل حقيقة عليه ، شرط الانطلاق من الحرية والعقل . وفي رؤياه للايمان ، ثار على كل ما يحد ذلك الايمان في داخل الذات الانسانية . لم يبتعد عن الدين ، ولم يقع في الكفر نتيجة مرارة معتقده وتفكيره . وانما ناهض الوسائل التي تستخدم للوصول الى الدين ، ودعا الى رفضها .

فما هي رؤياه له شدياق الدينية ؟؟

الفصل الأول

رجال الدين

جهل رجال الدين

دور رجال الدين

استغلال رجال الدين

العلاقة بين رجال الدين

أول ملامح الرفض الديني عند الشدياق كان نقد رجال الدين .
فقد نقد الجهل المسيطر عليهم وخروجهم عن الدور الحقيقي لهم ، كما نقد
العلاقة بين رجال الدين انفسهم واستغلالهم السيء للسلطة المعطاة لهم .

جهل رجال الدين

رأى الشدياق أنه " على كثرة ما في البلاد الشرقية من أديرة ، وعلى
كثرة ما تشتمل عليه هذه الأديرة من الرهبان (١) ، لم ينبغ أحد منهم
في علم ولم يؤثر عن أحد منهم مكرمة " (٢) .

وهم رجال الدين - برأى الشدياق - تعلم بعض القواعد في نحو اللغتين
العربية والسريانية لمجرد العلم بها فقط ، ولكن من دون أية فائدة (٣) . إذ
أن هذه المبادئ السطحية التي يتسلح بها أولئك الرجال ، لم تسمح لواحد منهم
بترجمة كتاب أو كراسة مفيدة في هاتين اللغتين - على حد تعبيره (٤) .

وجهل رجال الدين مرتبط بتقاعس الرؤساء الدينيين عن الحث على طبع
الكتب المفيدة ، كما يرتبط بعدم الانفاق على العلم بالرغم من البجوحة المادية
التي يعيش فيها أولئك الرؤساء ، وبالرغم من الانفاق الكثير على الولائم والمآدب
التي يهيئونها لزوارهم (٥) .

ونتيجة الجهل هي تلك الركافة في الكتب الدينية وغيرها . هذه الكتب التي
توضع بين أيدي التلاميذ منذ الصغر على ما تحتويه من أخطاء وركافة ، ومن
صناعة وتكلف . ولا شك في أن الركافة ليست من شعائر الدين ومعالمه وفرائضه
وعزائمه ، كما أن البلاغة التي تقوم على الصناعة والتكلف تؤدي إلى الكفر
والاحاد والبدعة والفساد (٦) .

-
- (١) الساق على الساق . ص ١٣٨ .
 - (٢) المصدر نفسه . ص ١٤٧ .
 - (٣) المصدر نفسه . ص ٨٤ .
 - (٤) المصدر نفسه . ص ٨٥ .
 - (٥) المصدر نفسه . ص ٨٦ .

وقد ارتضى رجال الدين اللحن والركاكة فلم يثوروا عليها ، مع ان فسي مقذورهم الثورة ، وفي امكانهم التغيير . وكان على اولئك الرجال تأليف الكتب المفيدة وهم في خلوتهم وراء اسوار الاديرة وبين جدران الصوامع ، وان يتجاوزوا التأليف القديمة التي حشوا بها ادمغتهم على ما فيها من لحن وركاكة (١) .

ومن العجيب الا يقوم رجال الدين بمثل تلك المهمات ، مع ان كثيرا من المسجونين قد الفوا وهم في الضنك تأليف بديعة يعجز عنها سكان القصور ، ومع ان خلوتهم في الصوامع وفوق رؤوس الجبال ، وقرب البحر الساجي ، تشرح الصدر وتروح عن البال (٢) . أم انهم لا يعلمون بأن الكتب المطبوعة في بلاد الشرق وحتى في رومية العظمى مليئة بالاخطاء (٣) .

واذا كان الجهل في ذلك الحين يعم الجميع تقريبا ، الا ان الشدياق ينقم اشد النقمة على جهل رجال الدين حين لا يجد في دير ما أحيانا من " يحسن كتابة رسالة في معنى من المعاني ، او أن يكتب سطرا واحدا في العربية ... وانما قد يخط هذه الحروف السريانية المعروفة باسم كرشوني ... " (٤) .

دور رجال الدين

من هذا المنطلق ، فان دور رجال الدين ثقافي واجتماعي . ثقافي من حيث ان على المسؤولين في السلطة الدينية العناية بانشاء المدارس وطبع الكتب بدلا من التوجه الى بناء الصوامع والكنائس " (٥) . فالمجتمع بحاجة الى المدرسة قدر حاجته الى الكنيسة ، ومن المؤكد ان المدرسة لها الاعتبار الاول في مرحلة الطفولة بالنسبة للانسان . ذلك أن هذا " الانسان مذ يولد الى أن يبلغ اثني عشرة سنة لا يمكنه ان يدرك شيئا على حقيقته من جهة الكنيسة والصومعة " (٦) . وهو يمكنه في خلال هذه الفترة من عمره ان يتعلم ما يفيد في مدرسة او كتاب .

(٢٦١) الساق على الساق . ص ٤٦٢ .

(٣) المصدر نفسه . ص ٨٥ .

(٤) المصدر نفسه . ص ١٥٢ .

(٦٦٥) المصدر نفسه . ص ٨٥ .

والشدياق على ما يبدو ، يحمل عبء الثورة الثقافية رجال الدين .
وهو يؤكد ان اهمال الثقافة انما هو من سوء تصرف اولئك الرجال في السياسة
المدنية والكنائسية . وليس من الجائز مطلقا فصل الدين عن الثقافة . فدور
رجل الدين دور ثقافي تعليمي ، قبل ان يكون دورا تبشيريا دينيا . ان انه
من البديهي الا يصل الانسان الى حقيقة الدين وجوهره والى حقيقة الايمان
الا بشيء من العلم . وليس هناك من هو اكثر تأهيلا لتلك القيادة الثقافية
من رجال الدين ، وذلك بالاموال التي تتدفق عليهم من الغرب (١) .

ودور رجال الدين اجتماعي من حيث الدعوة الى المحبة والألفة بين جميع
الناس ، والى المساعدة وحسن اليقين بالله تعالى (٢) . هذه الدعوة هي حقيقة
الانجيل وحقيقة اقوال المسيح ، وهي ايضا خلاصة الدين وجوهره ونتيجته . لكن
باب التأويل الواسع هو الذي سمح لأولئك الرجال بالتمسك بظاهر الاقوال لا بعمقها ،
وذلك حسب " ما رأوه موافقا لفرضهم وزائدا في جاههم وسلطانهم " (٣) .

استغلال رجال الدين

ورجال الدين يستغلون سلطتهم للتدخل في الشؤون المدنية . وهذه
السلطة تتخذ طابع الاستعلاء لدى الرؤساء الروحيين ، وتتيح لهم استغلال
الرعية البسيطة من ناحية ، والحكام وسياستهم من ناحية أخرى (٤) .

أما الرعية ، فهي بسيطة ، " ولا تزال تائهة في مهامه الجهل " .
وهي بالتالي تنقاد انقيادا عاطفيا أعمى لرجال الدين ، وتنفذ لهم ما يطلبون
منها ، وتصغي الى كل كلمة يتفوهون بها . وهذا الانقياد العاطفي

-
- (١) الساق على الساق . ص ٨٥ .
 - (٢) المصدر نفسه . ص ١٨٣ .
 - (٣) المصدر نفسه . ص ١٨٣ .
 - (٤) الجوائب . عدد ٣٨٩ . السنة التاسعة .

يؤدى بها احيانا الى توسم المعجزة في القساسة ، والقدرة على اجتراف
المعائب " (١) .

وانطلاقا من هذا الواقع ، لا يجد " رجال الدين غضاضة في تحريض
الجهلة من الرعية ، والوسوسة اليهم على خلاف مراد الله تعالى وخلاف مراد
الدول والحكام " . (٢) .

بالنسبة الى الحكام وسياستهم ، بعض الدول " تراعي خاطر رؤساء الدين
لتأمن غوائلهم " (٣) ، حسب رأى الشدياق . وبرأيه ايضا ، " ان اكرام الحكام
لأولئك الرؤساء هو السبب في ابقاء عامة الرعية في رتبة الجهل والغباوة .
فالرعية لا يمكن ان تتقدم طالما أن رؤساءهم الروحانيين اشبه بالوزراء " (٤) .

وهكذا تكون مقدرات الرعية والحكام في يد السلطة الدينية ، تلك
التي يتجاوز فيها رجالها مهام الدين الى الشؤون المدنية . وقد كان
حرى بأولئك الرجال - على قول الشدياق - استغلال السلطة المعطاة
اليهم من اجل تقدم الرعية والدولة معا ، لا من اجل الاستملاء
عليهما .

(١) (٠٠٠) حتى ان بعض التجار من كان حرمه الله من لذة البنين ، دعا
القسيس الى منزله ليقسم عنده رجاء ان يفتح الله رحم امرأته
بسببه - اى بسبب القسيس الذى وقد لخدمة الرعية من بعض
البلدان . كما تقول التوراة فتلد له البنين (٠٠٠) .
الساق على الساق . ص ١٥٦ .

(٢) الجوائب . عدد ٣٨٩ . السنة التاسعة . تاريخ ١٧ / ٥ / ١٨٦٩ .

ص ٣ . عمود ١ - ٢ .

(٣) الجوائب . عدد ٣٨٩ .

(٤) الجوائب . عدد ٣٨٩ .

العلاقة بين رجال الدين

ويرى الشدياق ان العلاقة بين رجال الدين داخل صوامعهم علاقة غير انسانية . وهذه العلاقة غير الانسانية سائدة بين الرؤساء انفسهم ، وبين هؤلاء الرؤساء والمرؤوسين ايضا .

في علاقة رجال الدين بعضهم مع البعض الآخر ، هناك " الخصام والطمع والحقد وتفرق الآراء " (١) وهناك ايضا " . . . الطعن ببعضهم البعض والشكوى للرئيس من امور باطلة . . . " (٢) .

في علاقة رجال الدين مع رؤسائهم ، تظهر محاولة " الرئيس اذلال مرؤوسيه واخضاعهم له (٣) . كما تظهر في تكبره عليهم ، واثرته باشياء استخصها لنفسه من دونهم . . . " (٤) .

وفي ما خص العلاقة بين الرؤساء انفسهم ، فالشدياق يرى احيانا بين " رئيس دير ورئيس دير آخر مثلا من الحسد والمنافسة ما بين وزراء الدول . . . وهذه الرئاسة نفسها لا تنال عن جدارة صاحبها بها ، بقدر ما تنال بالتملق للامير الحاكم او للبطرك " (٥) .

وفي نظر الشدياق ، ان رجال الدين أصحاب رسالة ، وقدوة ، وحاملو مفاتيح دين ورسالة . فمن هذه الحيثية ، يجب ان يكونوا في المركز المتفوق على البشرية ، وفي ذروة المثالية . لكننا نلمح من خلال آراء الشدياق فيهم انه يفقد رجاءه معهم ، كما يفقد في ذواتهم المحبة ، والتسامح ، والتواضع ، تلك الخصال التي يجب أن تمتلكهم ، والتي بواسطتها يتفوقون على نوازعهم رغبة في خلاص الآخرين .

-
- (١) الساق على الساق . ص ١٣٨ .
 - (٢) المصدر نفسه . ص ١٥٢ .
 - (٣) المصدر نفسه . ص ١٣٨ .
 - (٤) المصدر نفسه . ص ١٥٢ .
 - (٥) المصدر نفسه . ص ١٣٨ .

الفصل الثاني

الاديرة

التقشف في الاديرة

التحليل والتحرير

الديروسيلا لاغايرة

مفهوم الرهبنة

واقع الاديرة بالنسبة الى الشدياق واقع مؤلم . وقد رفض ذلك الواقع من حيث جعل الدير وسيلة لا غاية ، ومن حيث تقيد الانسان فيه بقواعد التحليل والتحرير والتكشف ، كذلك من حيث الخروج على مفهوم الرهبنة الحقيقي . فالشدياق تصور الحياة في الاديرة سلوكا ينبع من الداخل ، لا تصرفات خارجية مترتبة لم يأمر الله بها في كتبه .

التكشف في الاديرة

الانسان في الدير يلتزم بالتكشف . فهو يعيش عيشة "المقتر المتبلغ بأدنى القوت" (١) . وهو ايضا ينظر الى الدنيا ولذاتها بنظر العدو . وهذا التباعد عن الدنيا - برأى الشدياق - ناتج عن اعتقاد الذي وهب نفسه للدير ، بأن من يفعل ذلك يتقرب الى الجنة (٢) .

الشدياق رفض فكرة الكشف في الاديرة . وفي برهانه ، أن الله لم يأمر بالتكشف في كتبه . وليس مهما في الدين أن ينهك الانسان جسده بالردئ من الطعام وبقلّة النوم . "فلو شاء الله أن ينهك بدن الانسان ويخليه من الشهوات ، لخلقه ضاويا . . . والله أيضا ، لم يحلل الطيبات من المآكل للناس الا وهو يريد أن يأكلوها هنيئا مريئا" (٣) .

(١) الساق على الساق . ص ١٢٨ .

(٢) المصدر نفسه . ص ١٣٥ .

(٣) الساق على الساق . ص ١٢٧ .

" . . . الخبز الذي يأكله الرهبان في الدير كثيرا ما يأكلونه بغير ادم ليس كخبز الناس . . . كذلك العدس المطبوخ بالزيت . . . وان الله تبارك وتعالى لا يهتم ان كان الانسان يأكل عدسا أولحما . . . وليس في هذا مصلحة لنفس الأكل والمأكل . وان الله الذي يكون البعض أن يشوه وجهه و . . . الخ" .

الساق على الساق . ص ١٣٥ - ١٢٧ .

التحليل والتحرير

والسؤال عند الشدياق هو : من الذى يفرض التحريم ويقر التحليل ؟ ولماذا عذاب الجسد داخل الدير ؟ هل هو الزهد في طيبات الدنيا ، والطمع في حياة أخرى أبدية ؟

ومن قال أن هذا الشيء يعتبر خطيئة ، وأن سواه ليس كذلك ؟ ما يراه الشدياق : " أن التحليل والتحرير جاء من بعض الاديان المشطية . غير أن دين النصرى لم يحرم طيبات الدنيا . انما جاء التحريم من بعض شهاب طعنوا في السن ، اذ ما المانع مثلا من تناول اللحم كـل يوم ؟ " (١) .

انه الانصياح لعلماء الدين الذين يقولون بذلك التحليل والتحرير ، وليس على الاتباع الا التقليد . (٢) .

الدير وسيلة لا غاية

من هنا ، يكون الدير وسيلة وليس غاية برأى الشدياق . هذا كان في عصره وحيث " لاصناع نافعة في البلاد يمكن للانسان أن يتعلمها " (٣) وقد يدفع الفقر الانسان الى دخول الدير ، كذلك البطالة . وفي كثير من الاحيان يزين الوالدان لابنهما حياة الرهبانية ، ففي تلك الحياة قد يرتقى ذلك الابن الى رتبة عالية ينتفع بها وينفع معها أهله (٤) .

ويرى الشدياق ايضا ان الدير ملجأ لاصحاب البشاعة . تلك البشاعة التي تتقف احيانا بين الانسان ورزقه (٥) . ومن الممكن ان يتوصل هؤلاء الى ان يكونوا رؤساء رعية ، يتلقاهم أهل كنيستهم بالاكرام والترحيب ، وحيث تشيع بين هؤلاء العفة والورع والفضل ، ويتوفر لهم بينهم سبيل العيش الكريم (٦) .

(٢٤١) الساق على الساق . ص ١٣٧ .

(٤٤٣) المصدر نفسه . ص ١٣٨ .

(٥) المصدر نفسه . ص ١٥٠ .

(٦) المصدر نفسه . ص ١٥٦ .

والواقع أنه ليس من المفترض أن يكون الدير وسيلة مكسب وملجأ
بشاعة ، كما يقول الشدياق . لكنه ربما رغب ان يكون الدير غاية دينية
مثلى وانسانية محضة ، لذا رفض الاسباب التي تدفع البعض اليه . من هنا ،
تكون الرهبنة مفهوم خاص عنده . هذا المفهوم ان طبقه اى انسان ، يمكنه
ان يصير راهبا ولو لم يدخل اسوار الدير .

مفهوم الرهبنة

فالرهبانية مشتقة من الرهبة وهي خوف الله تعالى . والانسان ان تعاطى
حرفة وعاش بها بين الناس ، وتزوج وورث ولدا ، وخاف الله ، فهو راهب .
والرهبنة قطعاً ليست بالتقشف (١) .

والرهبنة يجب ان تكون تطوعاً لا اكرهاً . فالتطوع طريقة محمودة ، لكن
الشدياق يشترط فيها عدة شروط اهمها : ان يكون المتطوع " قد جاوز
الخمسين سنة من عمره (٢) . وان يكون من أهل الفضائل والمعارف (٣) ،
قادراً على التهذيب والحض على مكارم الاخلاق ، متصفاً بالمزايا الحميدة ،
منتهجاً لقومه المناهج المؤدية الى الخير والفوز والنجاح (٤) .

هذه الشروط كانت في الوقت الذي وجد فيه الشدياق ان " اكثر الرهبان
لا فائدة من اقامتهم في الدير لا لهم ولا لغيرهم " (٥) .

x x x
 x x
 x
 x

-
- (١) الساق على الساق . ص ١٣٨ .
(٢) المصدر نفسه . ص ١٤٧ .
(٣) المصدر نفسه . ص ١٤٧ .

الفصل الثالث

الكنيسة

الطقوس الكنسية

سلطة البابا

جمود الكنيسة

المسيح في الكنيسة

تجاوزات السلطة الكنيسة

سلطة الكنيسة في أوروبا

غنى الكنيسة

غنى الاساقفة

العلاقة بين الكنيسة والشعب

لم يقتصر رفض الشدياق الديني على الاديرة ورجال الدين ، بل تجاوز ذلك الى الكنيسة نفسها . ناقش في الكنيسة طقوسها ، وجمودها ، وتجاوزاتها . ناقش ايضا سلطة البابا ، وسيطرة الكنيسة في اوربا ، وغناها ، والعلاقة بينها وبين الشعب .

الطقوس الكنسية

من الطقوس الكنسية التي وقف عندها الشدياق ، سر الاعتراف والصوم . فقد رأى ان سر الاعتراف لا يمارس على حقيقته ، واستنتج ان ذلك السر هو علاقة بين القسيس والانسان الذي يعترف لديه . فالقسيس يستطيع ان يقول بعد سماعه الاعتراف ، ان هذا العمل " من اسباب الفساد . . . او انه يبعث الاغرار على المعاصي . . . " (١) .

كذلك الامر في الصوم ، وحيث هناك ايام " يعنحس فيها الانسان " (٢) ، اى يتوجب عليه فيها ترك اكل اللحم وغيره . وليس الصوم الا لانه يجب فيه " ان نجانس البابا ونسك معه " في قراراته " (٣) .

سلطة البابا

وسلطة البابا التي على اساسها تبني المقررات الكنسية ، سلطة موروثية . فهو الولي والوصي والكفيل والوكيل والحسيب . وهو الذى " اودع الله فيه الاسرار العجبية والذى لا يطرأ عليه غيب ولا غش " (٤) ، وانفاسه القدسية تسرى في المسؤولين الدينيين برغم البحار والجبال التي تفصله عنهم احيانا ، كما ذكر " الضوطار " (٥) الذى حاوره الشدياق في أمر البابا .

(١) الساق على الساق . ص ١٤٧ .

(٢) المصدر نفسه . ص ٢١١ .

(٤) المصدر نفسه . ص ١٧٢ - ١٧٨ .

(٥) الضوطار : كتنى به الشدياق أحد رجال الدين الذين حاورهم وجادلهم بشأن سلطة البابوات .

لم يقبل الشدياق بفكرة وراثة البابا لسلطته التي " فوضت اليه من المالك الأمر " (١) منذ الفي سنة ، ولم يقبل ايضا بفكرة اعتبار هذه الوراثة سرا من الاسرار (٢) . وقد تعرض لتاريخ البابوات وظهر ما كان عليه البعض ممن " سوء التصرف ، ومن كفرهم بخلود النفس والوحي والهيئة المسيح " (٣) . والشدياق يأسف لتواضع الناس على سلطة لا رأى لهم فيها سوى الرضوخ (٤) .

جمود الكنيسة

في الرضوخ جمود . وكل سلطة لا تناقش هي جمود . كذلك الكنيسة في سلطتها المستمدة من الرؤساء رمز للخضوع ، وبالتالي فهي جامدة ايضا . هذا ما يمكن استنتاجه من قول الشدياق " ان الناس لا يجدون فيها البضاعة على وفق مرادهم " (٥) مع ان جميع " الاحزاب الدينية رأّت في الكنيسة انها المؤسسة العليا التي يعيش في كنفها جميع الناس " (٦) .

ربما كانت تأملات الشدياق في الكنيسة ناتجة عن اعتقاده كاصحابه البروتستانت بأن هذه الكنيسة " وان كانت كاملة من حيث مثلها ، الا انها مخطئة في تطبيقها " (٧) والخطأ في التطبيق نال الشدياق ، وذلك حين وقفت منه الكنيسة موقف العداء وقد استبدل بارونيته البروتستانتية ، ان لماذا لا يستطيع الانسان تبديل مذهبه " بخاصة اذا كان المبدل والمبدل منه من جنس واحد " (٨) .

-
- (١) الساق على الساق . ص ١٧٨ .
 - (٢) المصدر نفسه . ص ١٧٩ .
 - (٣) المصدر نفسه . ص ١٨٩ .
 - (٤) المصدر نفسه . ص ١٩٨ .
 - (٥) المصدر نفسه . ص ١٩٦ .
 - (٦) تكوين العقل الحديث . تأليف جون هرمان اندال . ترجمة الدكتور جورج طعمة . ج ١ ص ٢٣٠ .
 - (٧) تاريخ العالم الحديث . روبرت ر . بالمر . ترجمة الدكتور محمود حسين الامين . ج ١ ص ١٢٩ .
 - (٨) الساق على الساق . ص ١٧٧ .

المسيح في الكنيسة

والمسيح في الكنيسة محبة ، وسلام ، وتكران ذات ، وكذلك رسوله .
وقد ترك المسيح للناس حرية العقيدة ، ولم يأمر مع رسله " بسجن من كان يخالف
كلامهم وانما كانوا يعتزلونهم فقط " (١) . أيضا ، " فان المسيح ورسله أقرؤا ذوى
السيادة على سيادتهم وامرتهم " (٢) . لذا ، يرفض الشدياق كل مخالفة
لحقيقة مبادئ المسيح الذى كان دأبه ودأب رسله " الحزّ على مقام الاخلاق
والامر بالبر والدعة والسلم والاناة والحلم " (٣) .

وعليه ، فحين تشصف السلطة الكنسية بالقسوة ، يتبعد عنها الناس ويتقربون من
دين آخر وكنيسة أخرى هي اكثر حنوا عليهم ، (٤) واكثر تطبيقا لمبادئ المسيح
ورسله ، كما يقول الشدياق .

تجاوزات السلطة الكنسية

وعليه ، لا يجوز للسلطة الكنيسة أن تتدخل في الامور المدنية ، كما لا يحق
لها اضطهاد أحد من الناس لسبب من الاسباب . فالبطرك الذى يمثل سلطة
الكنيسة ليس له حق في " أن يخطف من بيت أحد درهما واحدا لو شاء ، فأنى
له أن يخطف الارواح " (٥) .

وقد يبدو طبيعيا أن تجادل السلطة الكنسية في الدين وتناظر من يناظرها
في ذلك ويجادلها ، فتدحض الحجة بالحجة والكلام بالكلام مبتعدة عن القسوة
في معاملة من يخالفها . والشدياق يلح على أن تفعل السلطة ذلك ، مقارنا بين
الكنيسة المارونية التي تجاوزت صلاحياتها الدينية مع أخيه أسعد والكائس
المسيحية الاخرى (٦) . وهو في هذا لا يقبل " أن تكون تلك الكنيسة وحدها
على الحق ، والناس أجمعون على الباطل " (٧) .

(٢٤١) الساق على الساق . ص ١٨٧ .

(٤٤٣) المصدر نفسه . ص ١٨٧ .

(٥) المصدر نفسه . ص ١٨٨ .

(٧٦٦) المصدر نفسه . ص ١٨٨ - ١٨٩ .

سلطة الكنيسة في اوروبيا

لم يبق الشدياق في اطار تجاوزات السلطة الكنسية الشرقية ، بل تحدى ذلك الى سلطة الكنيسة في اوروبا . فقد انتقد " حزب رؤساء الكنيسة الذي لا يزال قويا فيها " (١) . وهاجم الملايين من العامة الذين يبادرون الى " الفتك بالملك ووزرائه طلبا لرضى البابا " (٢) ويستغرب الشدياق كيف يقبل ذلك المملك ببقاءه في الحكم ضمن سلطة مقيدة ، يعلم من خلالها ان الكنيسة تشاركه تملك السلطة ، بل وتستطيع ان تحرمه من بركتها متى شاءت ، وان تقطع عنسه مساعدتها المعنوية متى ارادت . وتستطيع مع كل هذا ان تثير عليه الرأي العام ، والحس الديني السانج عند الطبقة الشعبية من الناس ، اولئك الذين يجدون في الكنيسة الملجأ والمثوى ، ويؤمنون بان كل من يخالف سلطتها انما هو معتمد على مقدساتها وحصانيتها (٣) .

وكان يمكن لنقمة الشدياق أن تخف لو ان هذه السلطة القوية للكنيسة كان يمارسها رؤساؤها فقط . لكن الواقع لم يكن كذلك ، فهذه السلطة كانت بيد أصغر رجل دين مرتبة . وحتى ان " ركطر " (٤) القرية " ابلغ نفوذا وفاعلية من ضابط . واذا زاره أحد من الفلاحين ، فلا يأذن له في الجلوس " (٥) كذلك فان مواجهة رئيس اساقفة الانكليز أصعب من مواجهة زوج الملكة (٦) .

-
- (١) الجوائب . عدد ٤٩٣ . عاشر سنة . كانون الثاني سنة ١٨٧١ . ص ١٠١
 - (٢) المصدر نفسه .
 - (٣) الجوائب . عدد ٤٩٣ .
 - (٤) " ركطر " : اصغر رتبة دينية بين رجال الاكليروس ، كما شرحها لنا " الشدياق " في كتابه " كشف المخبا " .
 - (٥) كشف المخبا . ص ١٩٣ - ١٩٤ .
 - (٦) المصدر نفسه . ص ١٩٩ .

غنى الكنيسة

والكنيسة مع سلطتها هذه غنية جدا . غناها لا يتناسب مع الفقر المدقع الذى تعيشه طبقات اجتماعية متعددة في اوروبا (١) . بعض كنائس لندرة مثلا يبلغ مصروفها في السنة اكثر من عشرين ألفا لسيرة . ومجموع ما يصرف على الكنائس نحو ٥٠٠٠ ٠٠٠ ليرة (٢) . فاذا كان المصروف بهذا المقدار ، فكيف يكون الدخل ؟ ومع هذا فالانكليز ينسبون الكنائس الشرقية الى العظمة والبذخ والسرف والشطط (٣) .

(١) (٠٠٠) جاء في بعض الصحف اللندنية - كما ذكر الشدياق - ان مائة وثمانين نفسا ما بين رجل وامرأة وولد يسكنون في ٣٤ حجرة . وفي اخبار الكون كان يمكث في حجرة من ١٤ - ٢٠ نفسا ليلا ونهارا . وفي حجرة اخرى رجلان مع امرأتيهما وارطتان و٣ بنات ورجل عزب و٣ اولاد فجملتهم ١٤ نفسا . وقد جعلوا انفسهم عيلة عيلة ، كل عيلة تبوأ زاوية من الحجرة . وفي موضع آخر يسمى ساحسة " فلنشه " حجرتان لا تزيدان على سبع اقدام عرضا في عشر اسولا ، وقد اشتملت على ٢٨ نفسا ما احد منهم يعرف القراءة وليس تحتهم وطلاء سوى التبن الا واحدا منهم ولا غطاء لهم في الليل سوى ثيابهم التي يلبسونها في النهار ، ومع ذلك فان هذين المحلين اذا قيسا بغيرهما من البيوت المجاورة لهما كان لهما حرمة واعتبار ، فانه وجد فيهما ٢٠٨ من الاولاد المراهقين ولم يدخل المكتب سوى ثمانية وثلثين فقط وهم غارقون في الفساد والخساسة والقدر والوباء (٠٠٠) .

كشف المخبا . ص ٢٢٧ .

(٢) كشف المخبا . ص ١٩٩ .

(٣) المصدر نفسه # ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

هذا الغنى للكنيسة لا يمكن أن يكون مقبولا مع المعاناة الاليمية
للفقراء (١) . وان كان هناك من معترض يقول " بأن الكنيسة الآن ليست كالكنيسة
في مبدأ النصرانية . . . وان عزمها يرجع الى عز الدولة . . . " (٢) ، فهذا القول
مردود من حيث أن البساطة أدعى الى التعظيم والاكرام ، على حد قول
الشدياتي (٣) .

غني الاساقفة

الاساقفة أيضا ذوو غنى فاحش . فايراد رئيس أساقفة " كستربري " .
٢٥٠٠٠ ليرة . وايراد باقي الاساقفة من أربعة آلاف ليرة فصاعدا . فهم من حيث
المدخول بمثابة وزراء الدولة ان سنوية أول لورد في ديوان الوزارة البحرية
٤٥٠٠ ليرة (٤) .

وأنت ترى لهؤلاء الاساقفة " أحسن الديار ، وعندهم الخدم والحوامل الفاخرة
وخدم يسوقونها . . . وعلى برانيلهم الشرائط المذهبة " (٥) . وفي ديارهم
النفيس من الاثاث ، والاواني الفضية . وهم يعيشون حياة الاشراف " ويصنعون
لهم المآدب ويتكفون عليها نفقات كثيرة " (٦) .

(١) (٠٠٠) وكثيرا ما ترى النساء يمشين في الشتاء حافيات ويلتقطن الجذور
وفئات الخبز ، وغير مرة رأيت رجلا على ذراعاه طفل وامرأته بجانبه صفراء
على عتبة احدى الديار في أشد ليالي الشتاء بردا . وقد سمعت أن كثيرا
من النساء يلدن في الطرق لعدم وجود مأوى لهن . وفي كل سنة يسبقى
ألوف من ذوى الحرف معطلين . ففي سنة ١٨٤٩ كان ١٤٠٠ خياط و ٩٠٠
اسكاف بلاعمل وكان ١٧٠٠ اسكاف يعملون بنصف الاجرة وكذا الصاغة
وصناع الجلود ، وقس على ذلك ، والحاصل أنه لا فقير أشقى من فقير لندرة
كما أنه لا غني أترف من غنيها (٠٠٠) .

كشف المخبا . ص ٣٧٢ .

(٣٥٢) كشف المخبا . ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٤) (٠٠٠) وايراد رئيس أساقفة يورك ١٥٦٠٠٠ ، ورئيس اساقفة لندرة ١٥٦٠٠٠

ولكن خليفته لا يكون له الا ١٠٠٠٠ ليرة) .

كشف المخبا . ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٥) المصدر نفسه . ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(٦) المصدر نفسه . ص ٣٤٤ .

العلاقة بين الكنيسة والشعب

والعلاقة بين الكنيسة والشعب علاقة متعالية ، وغير ديمقراطية • ففي المدن الكبرى ينشغل أساقفة الكنيسة عن رعيتهم بالوزراء والاشراف • فمن هذه الناحية ، تكبر الهوة بين الكنيسة والشعب • حيث لا تعهد للرعية ولا تفقد لحوالها (١) • وفي القرية ، " اكثر الفلاحين يذهبون الى الكنيسة حياء من جيرتهم أو خوفا من القسيس " • (٢) •

وأساقفة الكنيسة خرجوا في تصرفاتهم عن أصل معنى الاسقف (٣) • فوظيفة الاسقف الاهتمام بالشعب لا بالدولة والوزراء الذين " ما ثلومهم في الرفعة والشان والانفراد عن الرعية " (٤) • ومن أين " لواحد يبلغ ايراده خمسة وعشرون ألف ليرة في السنة أن يهتم بمن ليس له صلدى واحد من كل ليرة تدخل خزائنه " • (٥) • والعجب أخيرا بعد هذا أن يكون " في كل قرية في بلاد الفلاحين كنيسة ، وان لم يكن فيها دكان لبيع أهم ما يكون من المأكول والملبوس " • (٦) •

كنيسة بلا اسقف

في هذا ، لا ضرورة لوجود الاساقفة في الكنيسة ، " فالاساقفة ورئيسهم مكلفون بالنظر فيها والتعهد لها " (٧) ، لكنهم لا يفعلون ذلك ، وان كان هناك ممن قائل بأن " أمور الكنيسة الآن قد استتبت وانتظمت ، فهذا القول هو اقرار الاساقفة على أنفسهم بعدم لزومهم " (٨) •

والشدياق مع كل ما قاله لا يجب التعرض كثيرا لمثل هذه المسائل " لان لكل كنيسة أساقفة ومطارنة ، وربما كان استمرار وجودهم لان مار بولس قد ذكر اسم الاسقف ، ولا بد من وجود مسماه " (٩) •

(١) كشف المخبا • ص ٣٤٤ •

(٢) المصدر نفسه • ص ١٩١ •

(٣) المصدر نفسه • ص ٣٤٤ •

(٤) المصدر نفسه • ص ٣٤٣ - ٣٤٤ •

(٦) المصدر نفسه • ص ١٩٤ •

(٧) المصدر نفسه • ص ٣٤٤ - ٣٤٥ •

(٩) المصدر نفسه • ص ٣٤٤ •

الفصل الرابع

الحرية الدينية

مفهوم الدين

الدولة والدين

الدين والثقافة

الشدايق بين كالفن ولوثر

الحرية الدينية هاجس الشدياق . هو في اكثر من مرة تاق الى حرية دينية كتلك التي في فرنسا مثلا ، مع ان " ملكها مجير الدين وناصره " (١) . تاق ايضا الى حرية في التفكير الديني كتلك التي للكتاب الفرنسيين ، " اولئك الذين جاهروا بأرائهم في الدين وفي السلطة الدينية واصحابها " (٢) . دون ان يعاقبهم أحد على ذلك .

تدمر من التعصب في الشرق ، لان الناس فيه تابعون لمروءوسيههم الدينيين ، لا حرية في التفكير ولا في القول ، ولان كل من يخالف مروءوسيه يتزل به القصاص . تمرد الشدياق على القيد في الدين ، ولم يرد ان تكون العقيدة محتكرة منذ القديم ، وان يتوارثها الابناء عن الآباء ، والاحفاد عن الاجداد (٣) . كان ضد الانصاع وقبول الانسان لعقيدته تبولا أعمى . نادى بحرية الانسان في تفير عقيدته (٤) ، فالله تعالى قال : " لا اكراه في الدين " (٥) .

-
- (١) الساق على الساق . ص ١٨٩ .
(٢) (٠٠) وان كان ما قاله اولئك الكتاب كذبا وافتراء كان ذلك ادعى الى تنكيلهم والاقتصاص منهم لافتراءهم على احبار الله وخلفائه . ومع ذلك لم نر أحدا منهم عذب او استنفر من داره أو أنف من محضره . بل قد طبعت كتبهم المرة بعد المرة ، وسعرها في الاسواق كسعر كتب العلم . . .
الساق على الساق . ص ١٩٣ .
(٣) الجوائب . عدد ٤٩٣ . عاشر سنة . تاريخ ١٨٧١/١/٢٥ . ص ١ .
(٤) الساق على الساق . ص ١٩٥ .
(٥) الجوائب . عدد ٣٨٩ .

مفهوم الدين

" المقصود من كل دين الحث على مكارم الاخلاق ، والابتعاد عن الشر " (١) . لذا لا يجوز ان يكون بين سكان مملكة واحدة ووطن واحد معاداة ناشئة عن الفرق في الاديان والمذاهب . ان " لوشا" ربك لجعل الناس أمة واحدة " (٢) .

أما في الاساس الاخلاقي لمفهوم الدين ، فيقول الشدياق انه يجدر بالناس ان يكونوا متعاونين على امورهم المعاشية من دون التفات السي مياينتهم في دينهم وتعبدهم " (٣) . فكلما ارتقى المفهوم الديني الاخلاقي للانسان ارتقى المجتمع . وان " حشو الرعية وسفلة العامة " اولئك الذين لا استفادة لهم من علم ولا سمو نفسي لديهم ، يتخذون فرق الاديان وسيلة الى الشر والفساد (٤) .

وفي المظهر الانساني الحقيقي للدين ، يرجو الشدياق " من الناس الذين اتفقوا على المخلوق الا يختلفوا على الخالق " (٥) ويأمل في وحدة المجتمعات الانسانية تحت ظل تعدد المعتقدات ، فيرى " اخضر الرأس يصفح اسود ، ومدوره ذو القبعة مخروطه ذا اللبدة " (٦) . كما يرنو الى صفاء نية الانسان نحو أخيه الانسان . " فالخلاف على الدين عند الجهلاء هو اعظم باعس على تفرق الكلمة والرأى وشحن القلوب بالمشاحنة " (٧) .

(١) الجواب . عدد ٣٨٩ . سنة تاسعة . تاريخ ١٧/٥/١٨٦٩ . ص ٣ عمود ١ - ٢ .

(٢) الجواب . عدد ٣٨٩ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) (٠٠٠) في هذا العصر نرى في اوربا جمعيات كثيرة متألفة من الكاثوليك والبروتستانت واليهود على مصالح عمومية نافعة لجميع الناس . وحسبك بيت روتشيلد مثالا ، ان لا يخفى ان هذه العيلة من اليهود ، ومع ذلك فانهم يمدون بالمال جميع اللاول ٠٠٠ . الجواب عدد ٣٨٩ .

(٦٥٥) الساق على الساق . ص ٣٩٠ .

(٧) الجواب . عدد ٣٩٠ . تاسع سنة . تاريخ ٢٤/٥/١٨٦٩ . ص ٢ .

الدولة والدين

من أجل هذا ، على الدولة ان يكون لها موقف من الدين . فإكرامها " رؤساء الدين الذين هم اشبه بالوزراء " ، وركن الدولة ، سبب في ابقاء العامة في رتبة الجهل " (١) . وفي الوقت نفسه اراد الشدياق من الدولة ان تتدين بدين ما .

ففي رأيه ، ان الحكومة اذا كانت " مؤسسة على الكفر بالله سبحانه وتعالى ، وكانت بمعزل عن العدل والانصاف ، حطت كل واحد من رعيتهما ان يعتدى عليها ويحصى امرها عند سنوح الفرصة له " . فالحكومة لا يمكن ان تستقر على احكام عادلة واصول مرعية الا اذا كانت تتدين بدين ما " (٢) .

اذا ، فالحكومة " يجب الا تؤسس على الكفر " ، وان اقامة الدولة على الدين لا يمنع الانسان من ان يتدين بأى دين شاء . ففي اوروبا " يمكن للانسان ان يتدين بأى دين كان او لا يتدين " (٣) ، وهذا لا يتعارض مع فكرة دين الدولة .

الدين والثقافة

ولكي يصل الانسان الى حقيقة الدين ، يجب ان يكون مثقفا . فالثقافة ترجع كفة العقل ، وتمنع الناس من التقبل العاطفي للدين (٤) . وكل من لا استفادة له بالعلم يكون مهوسا (٥) ، ويسهل انقياده .

والثقافة يجب ان تشمل جميع الطوائف ، المسيحية منها والمسلمة ، ومن هو غير مسيحي او مسلم . فالتفاوت الثقافي بين طائفة واخرى مجلبة للتعصب ، ويكفي ان يكون هذا التفاوت موجودا ليختل ميزان فهم الدين .

-
- (١) الجواب . عدد ٣٨٩ . سنة تاسعة . تاريخ ١٧/٥/١٨٦٩ . ص ٣ .
 - (٢) الجواب . عدد ٥١٧ . السنة ١١ . تاريخ ٢٦/٤/١٨٧١ . عمود ٢-٣ .
 - (٣) الجواب . عدد ٥١٧ .
 - (٤) الساق على الساق " ص ٢٢٦ .
 - (٥) الجواب . عدد ٣٨٩ . سنة تاسعة . تاريخ ١٧/٥/١٨٦٩ . ص ٣ عمود ١-٢ .

والشدياق في هذا يقارن بين حال المسلمين وحال النصارى من حيث الاهتمام بالثقافة . فيرى ان النصارى اكثر اهتماما بالثقافة من المسلمين ، وهو لا يريد وجود هذا التفاوت الثقافي بين طائفة وأخرى . وقد برهن على ذلك التفاوت بمنطق الارقام ، فقال : " ان اهل بيروت ينظرون باعينهم ان للنصارى فيها نحو خمس عشرة مطبعة " (١) ، وليس للمسلمين بينهم مطبعة واحدة تقريبا .

والنتيجة تكون ، في انه يجب ان يكون للمسلمين في بيروت " مطبعة خاصة بهم لطبع فيها ما يروونه مفيدا من الكتب والاحبار . . . ذلك ان الطوائف المسيحية تتنافس في هذا المضمار " (٢) .

الشدياق بين كالفن ولوثير

الشدياق اخيرا ، لم يستثن شيئا يتعلق بالدين من نقده . فهو شاعر رافض لجميع ما يراه غير الصواب . وفي ثورته هذه ، التقت آراؤه مع آراء مفكرين كبيرين من مفكرى الكنيسة ، هما " Luther " و " Calvin " .

أ - لقاء مع مفهوم الرهبنة

فقد التقى الشدياق مع " Luther " حول مفهوم الرهبنة و " Luther " يرى ان جميع المؤمنين رهبان على السواء ، هذا اذا كنا نعني بالراهب رجلا يسهل عليه التوصل الى الحظوة الالهية . فالرهبانية برأيه ، تؤهل الانسان لان يظهر امام الله وان يصلي من أجل الآخرين ، وان يعلم اخاه الانسان الامور الالهية (٣) .

ويقرب الشدياق في مفهومه للرهبنة من " Luther " كثيرا . فهو يرى ان الرهبانية تعني خوف الله تعالى . ويرى ايضا ان " الانسان ان تعاطى حرفة وعاش بها بين الناس ، وتزوج ورزق ولدا وخاف الله فهو راهب . والراهب يجب ان يكون قادرا على انتهاج المناهج المؤدية الى الخير والفوز والنجاح " (٤) .

٤

- (١) الجوائب . عدد ٦١٤ . السنة ١٢ . تاريخ ١٨٧٢/١٢/١ . ص ٢ عمود ٣ .
- (٢) الجوائب . عدد ٦١٤ .
- (٣) تكوين العقل الحديث . جون هرمان راندال . ترجمة الدكتور طعمة . ج ١ ص ٢٣٣ .
- (٤) الساق على الساق . ص ١٤٧ .

ب - لقاء حول المسيح والطقوس الدينية والانجيل

رأى " Luther " في انجيل المسيح الشفقة الالهية والمحبة والتسامح
ازاء جميع الضالين . " ووجد ان مجرد اعتقاد المرء برسالة الانجيل التي تبشر باله
محب لطيف ، يجعله يدرك الخلاص ويحقق السلام المنشود ، ولا يكون معها بحاجة
الى طقوس الكهان وما بها من قوة سحرية . فالمسيح وحده رسالة الاله المحب ،
ولا يمكن ان يوجد ايمان خارجه . والحياة المسيحية تعني خدمة الانسان للانسان
خدمة عفوية مصدرها الثقة المطلقة بحببة الله " (١) .

ورأى الشدياق فيما يتعلق بهذه المفاهيم ، " ان المسيح محبة ، ترك للناس
حرية العقيدة ، وكان دأبه الحض على مكارم الاخلاق ، والامر بالمحبة والبر والدعة
والسلم والاناة والحلم (٢) ، وليس الصوم الا لانه يجب فيه ان نجانس البايا ونمسك
معه في قراراته ، وذلك خشية العقاب (٣) . كذلك فان باب التأويل الواسع لحقيقة
الانجيل هو الذي سمح لرجال الدين بالتمسك بظاهر الاقوال لا بعمقها . وذلك
حسب ما رآوه موافقا لمفروضهم وزائدا في جاههم وسلطانهم " (٤) .

وفي هذا الرأي الاخير يقترب الشدياق من " Calvin " الذي حاول أن
يسبني نظاما عقليا متماسكا بالاستناد الى سلطة الكتب المقدسة (٥) .

وفي الخلاصة ، ان الدين نصير العقل ، والعقل نصير الانسان . هذا يكون
برغم اختلاف المذاهب وتعدد الطوائف . انه مرحلة الوصول الى الانسان القادر على
حمل مسؤولياته الروحية الضخمة بمقدار ما تسمو انسانية الانسان ويرتقي بها .

ولا شك في ان هذا يوضح سر تنقل الشدياق بين الاديان . وربما فعل ذلك
ليبرهن على ان الانسان واحد في كل دين يوصل الى الله

x x x

(١) تكوين العقل الحديث . جون هرمان راندال . ترجمة الدكتور جورج طعمة .
ج ١ ص ٢٣٢ .

(٢) الساق على الساق . ص ١٨٧ .

(٣) المصدر نفسه . ص ٢١١ .

(٤) المصدر نفسه . ص ١٨٣ .

(٥) تكوين العقل الحديث . جون هرمان راندال . ترجمة الدكتور جورج طعمة .
ج ١ ص ٢٣١ .

الرفـض اللـغـوي

الفصل الأول

ثورة على القديم

مقدمة

قصور القدماء

خلل التأليف والمنهجية

مقدمة

قال الشدياق : " اني لم ينشطني للتأليف سوى الرغبة في حث أهل العربية على حب لغتهم الشريفة ، وحث أهل العلم على تحرير كتاب فيها خال من الاخلال ، فاني رأيت جميع كتب اللغة مشوشة الترتيب كثر ذلك أو قل ، وخصوصا كتاب القاموس الذي عليه المعول " (١) .

لا شك في أن الشدياق ، حين تجرأ على كشف عورات أهل اللغة ، وصدر كتابه " الجاسوس على القاموس " بحكم شمل به جميع كتب العربية ، فعل ذلك في وقت اكتشف فيه أنه استطاع القبض على ناصية اللغة بدرجئة تؤهله قبول ما يراه فيها لازما ، ورفض ما اعتقده لغوا وباطلا .

فعل ذلك بعد أن مرّ بالرعيّل الاول من اللغويين وأصحاب المعاجم ، كالمحشي ، والشارح ، وأبي الاحوص ، وابن قريب ، وابن دريد ، والزرکشي ، والسيوطي ، والخفاجي ، والاصمعي ، وابن حيّان ، وابن خالويه ، وابن السكيت ، والعنبري ، وابوزيد ، والجوهري ، والالوسي ، وابن فارس ، والازهرى ، وابن المعتز ، ومحمد بن شرف ، وابن سيده ، والصفاني ، وابن عباد ، وابن عزيز ، والكسائي ، وابن منظور ، وابن مالك ، وأبي زيد ، والليث ، وسيبويه ، والفيروزابادي ٠٠ (٢) وبعد أن اطلع على الجمهرة ، والتهذيب ، والمجمل ، وديوان الادب ، واللسان ، والقاموس ، والمحکم ٠٠٠ وبعد أن مرّ باللغات السريانية ، والعبرانية ، والرومية ، والتركية ، والحبشية ، والكلدانية ، واليونانية ، والهندية ٠٠ (٣) . وبعد أن لازم مهنة النساخة والتعلم وتصحيح الدباغة

-
- (١) الجاسوس على القاموس . المقدمة ص ٦ .
(٢) ذكر هذه الاسماء اثناء مناقشته لآرائهم في كتابه " الجاسوس على القاموس " .
وذلك في مجمل صفحات الكتاب تقريبا .
(٣) ورد هذا اثناء عرض الشدياق لآرائه اللغوية ، ومناقشة آراء اللغويين في كتابه " الجاسوس على القاموس " . وذلك في مجمل صفحات الكتاب تقريبا .

مدة لا تقل عن الثلاثين سنة ، قبل أن ينتدب نفسه لمناقشة اللغة واللغويين ، وقبل ان يحمل بيده سيف النعمة ويشهره على رؤوس المقلدين واصحاب النظريات اللغوية .

وحركة الشدياق اللغوية رافقت تيارين هامين استبدا بالقرن التاسع عشر ، تيار المقلدين وتيار المجددين . كانت الحركة شديدة بالنسبة الى الذين حاولوا التنكر للادب القديم ، وحاولوا تجاوز اساليبه وموروثاته ، وخلق مدرسة ابداعية جديدة تسير روح العصر بكل ما يحمل من معطيات تقنية واجتماعية .

وقد وقف في المواجهة فريق حاول بعث اللغة بعد فترة الركود التي اصابتها اثر عصر الانحطاط واثر السيطرة التركية . اذ كانت اللغة تبدو مهلهلة النسع ، بالية الثوب ، مليئة بالاختار ، كثيرة الركافة . وهذه الحركة اقرنت باسم " ناصيف اليازجي - ١٨٠٠ - ١٨٧١ " . وكان " ناصيف " هذا ، رائدها الاول ، اذ كرس نفسه ووقته لاسترجاع اساليب اللغة القديمة ، وعمل على حد كل محاولة للتجديد سواء في اللفظ ام في الاسلوب (١) .

نظر الشدياق الى حركة اليازجي نظرة مختلفة ، على الرغم من العلاقة التي كانت تربطه به ، والتي امتدت فترة طويلة من حياته . فرأى ان تشبثه بالقديم عمل اعتباطي ، بالرغم من ان مدرسته استمرت حتى ما بعد وفاته . وقد دافع عن هذه المدرسة ابنه " ابراهيم اليازجي " الذي كانت له مع الشدياق جولات نقدية ادبية على صغر سنه وكبر سن الشدياق (٢) .

(١) اخبار " ناصيف اليازجي " في الروائع عدد ٢٢ ، وفي تراجم مشاهير الشرق لجرجي زيدان ج ٢ ص ٢٧ ، وفي كتبه ، وبنوع خاص مجمع البحرين .

(٢) راجع المحاولات التي دارت بين الشدياق واليازجي في كتاب " الشدياق واليازجي " الذي جمعه الاب انطونيوس شبلي ، وطبعه سنة ١٩٥٠ .

انطلقت فكرة الرفض الشديقي في اللغة من خلال نقده " للقاموس " على اساس انه يمثل نموذجا للمعاجم اللغوية المعتمد عليها في العربية كأحد المصادر المهمة ، الى جانب العديد من الكتب اللغوية الاخرى (١) .

والطريقة التي التزمها الشدياق في نقده تقوم على ابراز الخلل ثم وضع القاعدة لتصحيحه . فالتراث اللغوي يحتاج الى تهذيب وتشذيب ، والمفردات اللغوية تحتاج الى غربلة ، والقواعد تحتاج الى البساطة لا التعقيد . وقد أتى بكتابه " سر الليال في القلب والابدال " ليؤكد بساطة اللغة في اعادتها الى " حكاية صوت " ، وأورد بعض نظرياته اللغوية في كتابه " الساق على الساق " وبعض آرائه النقدية في جمالية اللغة في مقدمة ديوانه الشعري ، وكذلك في جوائبه .

في هذه الكتب النقدية عبّر عن حصيلة تفكيره اللغوي الثوروي الراض ، وكان من نتيجتها ثورته على القدماء وتآليفهم ومنهجيتهم ، ووقوفه على مصاعب اللغة العربية الناتجة عن اختلافات اللغويين ومزالقهم ، وابهام مؤلفاتهم .

وقد قدّم أمثلة على تلك المصاعب وذلك الابهام تتعلق بأحرف الهجاء ، وخلافات القلب والابدال ، والاشتقاق ، والاعجام والاعراب والتصحيف ، والمتعدي واللازم ، والبيان ، وغزارة المفردات ، وتداخل اللغات ، وتأثير المولديين في اللغة ...

(١) (٠٠) اذا كان كتاب الشدياق " الجاسوس على القاموس " يعتبر البداية النقدية اللغوية عنده ، حيث ألفه اثناء اقامته في باريس ، فان هذه البداية لم تأت عفوا ، وانما سبقتها فترة تحضيرية هامة تعود الى ما قبل سفره الى اوروبا من مالطة ، وربما امتد الزمن الى ابعد من ذلك بكثير ، الى زمن وجوده في مصر او لبنان . وما عشنا عليه هو ما ذكره الشدياق بقلمه في كتاب " الساق على الساق " قبل مغادرته مالطة ، ان لمّح الى وجود " القاموس " معه ، وانه حريص على اصطحابه الى انكلترا . وقد ذكر ان الفارياقية قامت الى الصندوق فاودعت فيه لوازم السفر ما عدا القاموس ، وقد نبهها الى ذلك (٠٠) .

الساق على الساق . ص ٥٧٧ .

كما اننا نقع في هذه الموهلات على فلسفة الشدياق اللغوية من حيث اعطاء نظريات خاصة عن نشأة اللغة ، وعن كيفية ارتقائها وتطورها ، والقدرة على تكوين مفردات جديدة عن طريق النحت .

هذه الآراء الثوروية اللغوية التي تنهاها الشدياق ، سوف نعرضها تباعا في الفصول اللاحقة .

قصـور القـدمـاء

حين يستعرض الشدياق جهود الاقدمين في حقل اللغة ، لا يجد فيهم من غاص على حقيقتها حق الفوص ، بالرغم من ادعائهم " ابراز أسرارها وكشف أستارها " (١) .

والسبب في ذلك ، أن القدماء جمعوا ما بين الاهتمام بابحاث اللغة والاهتمام بعلوم أخرى ، فجاءت ابحاثهم ناقصة في حين انهم اعتقدوا الامساك بناهجيتها .

وما زاد الامر سوءا - في رأى الشدياق - أن المتأخرين من اللغويين لم يحاولوا سد الثغرات التي خلقها اللغويون القدماء ، بل ساروا على خطاهم وأيدوا أقوالهم . وفي كثير من الاحيان ، كان المتأخرون يكثرون من الحدس والتخمين ، ومن وضع النظريات اللغوية ، بشكل زاد اللغة تعقيدا ، " حتى كسوما ثوبا غير لائق بها " (٢) .

حدث هذا ، في الوقت الذي كان يجب فيه على اللغوى المتأخر أن يراجع كلام من تقدمه ويميز غثه من سمينه ، بدلا من السير على منواله ، وتحصيل اللغة اعباء جديدة نتيجة اجتهاده (٣) .

(١) سر الليال في القلب والابدال . ص ٢ - ٣ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الجاسوس على القاموس . ص ٤١٧ .

واللغوى المتقدم اختلفت ظروف تبخره في اللغة عن المتأخر . فالاول - حسب قول الشدياق - كان يجد الوقت لديه طويلا والعمل قليلا ، فراح يجتهد في توليد القواعد اللغوية ، ويبالغ في تحليلها ، حتى جاء التراث اللغوي ، يحمل وزر تلك الاجتهادات والمباحثات اللغوية . أما اللغوى المتأخر ، فكان ذنبه أنه لم يساير روح العصر فيأخذ من اللغة ما هو بحاجة اليه ويرفض ما عداه . وكان ذنبه أيضا ، أنه تمسك بتقديس التراث ، بدلا من تحويله الى لغة حياة تستطيع أن تستوعب المعطيات الفكرية والادبية ، كل ذلك من قبيل " ايثار التقليد على الاجتهاد " (١) .

خلل التأليف والمنهجية

ولم تسلم مؤلفات اللغويين القداماء من الخلل . فالفوضى في التأليف ، وعدم مراعاة منهجية محددة في تأليفهم ، اربكا اللغة ، واقعا الباحث في مآهات البحث والتجرف فيها . وقد وقع هذا الخلل اكثر ما وقع في المعاجم . فالمؤلف فيها يخلط بين حقيقة الكلمة ، مجازها ، ويعرف لفظة بلفظة أخرى دون ذكر الفرق بينهما (٢) ، ويورد المصدر من دون فعل والفعل من دون مصدر ، والفعل الرباعي من دون الثلاثي ، فيوهم أن الثلاثي غير وارد (٣) .

- (١) الجاسوس على القاموس . ص ١١ .
- (٢) (٠٠) قال الشدياق : ان قيل ان ائمة اللغة يتبدعون المادة بأشرف ما فيها من المعاني ، قلت كان عليهم بعد الفراغ من المجاز اذا كان أشرف المعاني أن يقولوا مثلا وأصل هذا المعنى من قولهم كذا وكذا ان لا جرم أن الابتداء بالاضل لا يخل بالترتيب . . . الجاسوس على القاموس . ص ١٢ .
- (٢٠) ومن هذا القصور تعريفهم لفظة بلفظة أخرى من دون ذكر الفرق بينهما بالنظر لتعديتهما بحروف الجر ، كقول الجوهرى مثلا الوجل الخوف ومثلها عبارة القاموس والمصباح مع أن وجل يتعدى بمن وخاف يتعدى بنفسه (٠٠) . الجاسوس على القاموس . ص ١٣ .
- (٣) (٠٠) من ذلك ايرادهم الفعل الرباعي من دون الثلاثي ، فيوهمون أن الثلاثي غير وارد ، ومثال عليه : اقتصار أهل اللغة جميعا على قولهم قدس تقديسا وما أحد منهم ذكر له فعلا ثلاثيا اؤنبه على عدم مجيئه . مع أنهم قالوا أن القدس اسم ومصدر ، فكيف يكون مصدر من دون فعل (٠٠٠) . الجاسوس على القاموس . ص ١٣ .

كما أن المؤلفين يخلطون الأفعال الرباعية بالخماسية والسداسية ، ويخلطون ما بين مشتقاتها (١) ، " ويأتون في التعريف بألفاظ لا يذكرونها في مظاهرها مع توقف المعنى عليها " (٢) . كما أنهم يبتدئون المادة باسم الفاعل أو المفعول أو الصفة المشبهة أو اسم المكان والآلة أو المعرب عوضاً عن الابتداء بالفعل والمصدر (٣) . وهذا القصور في التأليف عام في جميع كتب اللغة " (٤) .

من هنا ، كان على من يتصدى للتأليف في العربية أن يذكر اختلاف الأقوال فيما يحرره من المسائل ، ولا يقول فيها بهوى نفسه ، ولا يعتمد على حدسه (٥) . وعليه ، يكون على المؤلف أن يتبع في التأليف المنهج التالي :

- مراعاة أوائل الكلم دون أواخرها (٦) ، لأن هذا النسق من الترتيب يظهر

(١) الجاسوس على القاموس . ص ١٠ .

(٢) المصدر نفسه . ص ١٤ .

(٣) كقول الجوهري ريح في تجارته أى استشف ولم يذكر استشف في بابها . وتبعه في ذلك المصنف وابن فارس في المجلد في مادة يلد وكذلك صاحب المحكم في المادة نفسها (٠٠) . الجاسوس على القاموس . ص ١٤ .

(٤) كقول الجوهري في أول مادة جزر . الجزور من الأبل يقع على الذكر والأنثى ، ثم قال بعد أربعة عشر سطراً ، وجزرت الجزور واجترتها إذا نحرتها وجلدتها ، فالجزور على هذا فعول بمعنى مفعول ، فما معنى ذكره قبل الفعل وتبعه

المصنف والأزهري وصاحب اللسان والمصنعي (٠٠) . الجاسوس على القاموس . ص ١٤ .

(٤) الجاسوس على القاموس . ص ١٤ .

(٥) المصدر نفسه . ص ٤١٧ .

(٦) يقول الشدياق : ولا جرم أن الترتيب الذي جرى عليه الصحاح واللسان

والقاموس وهو مراعاة أوائل الكلم وأواخرها مسهل للمطلوب وخصوصاً جمع القوافي ، إلا أنه فاصل لتناسق معانيها ومدار لاسرار وضعها ومبانيها ، وفيه مع ذلك اجحاف بأحرف الكلمة ، فالأولى عندي ترتيب الأساس للزمخشرى والمصباح للفيومي ، أعني مراعاة أوائل الكلمات دون أواخرها (٠٠) . الجاسوس على القاموس . ص ٢٧ .

- حكمة الواضع (١)
- ترتيب الافعال على منهج الصرفيين ، فينظر الى الفعل الثلاثي ومشتقاته في أول المادة ، ثم الرباعي ويتبعه الخماسي والسداسي (٢) •
- أن يوضع حيال المواد الفزيرة رقم بالهندي على الحاشية ، فيوضع رقم ٣ قبالة الفعل الثلاثي ، و ٤ قبالة الفعل الرباعي وهكذا ٠٠ (٣) •
- تقديم الحقيقة على المجاز ، لان الابتداء بالاصل لا يخل بالترتيب (٤) •
- تحاشي تعريف لفظة بلفظة أخرى من دون ذكر الفرق بينهما بالنظر لتعديتهما بحروف الجر (٥) •

-
- (١) (٠٠) فاذا قيل أن هذا الترتيب لا يعين الشاعر على جمع الالفاظ التي تأتي على روى واحد ، فالاولى ترتيب الصحاح ، قلت الخطب هين ، فعلى اللغويين أن يبينوا سرّ الوضع وعلى الشعراء أن يؤلفوا كتابا في القوافي (٠٠) • الجاسوس على القاموس • س ٢٧ •
- (٢) (٠٠) في مادة عرض التي هي في القاموس اكثر المواد اشتقاقا وتشعبا ، ذكر الجوهري المعارضة التي بمعنى المقابلة بعد المعارضة التي بمعنى الجانبية بثلاثة وثلاثين سطرًا • وصاحب القاموس أورد احتمل الصنيفة أي تقلدها في أول المادة ، ثم احتمل أي اشترى الحميل للشيء المحمول من بلد الى آخر في آخرها ، وبينهما اكثر من ثلاثين سطرًا • لهذا أنصح مطالعي اللغة الا يقتصروا على فهم اللفظ في موضع واحد ، بل لا بد لهم من أن يطالعوا المادة من أولها الى آخرها •

(٤٦٣) الجاسوس على القاموس • ص ١١ •

(٥) المصدر نفسه • ص ١٣ •

- ايراد المصدر مع فعله حتى لا يقعوا في ابهام معرفته ، هل هو اسم جامد أم مشتق (١) .
- ان تبدأ المادة بالفعل أو بالمصدر بدلا من اسم الفاعل أو المفعول أو الصفة المشبهة أو اسم المكان والآلة أو المعرب (٢) .
- بيان المتعدى من الافعال من غير المتعدى ، وما هو الفعل المتعدى بنفسه والمتعدى بحرف الجر (٣) .
- ولو أن القدماء كان لهم هذه المنهجية في التأليف ، لما قادوا اللغاة العربية الى مأزق حرج ، ولما أوقعوها في مصاعب كانت بغنى عنها .

x x x
x x
x
x

-
- (١) الجاسوس على القاموس . ص ١٣ .
(٢) المصدر نفسه . ص ١٤ .
(٣) المصدر نفسه . ص ٢٠ .

الفصل الثاني

مصاعب العربية

١ - عوامل المصاعب

- مقدمة
- كثرة الشواهد
- التصرف في اللفظة
- عدم تقدير اللغويين للفتهم

٢ - خلافات اللغويين ومزالقهم

- احرف الهجاء
- القلب والابدال
- الاشتقاق
- الاعجام والاعراب
- اللازم والمتعدى
- غزارة المفردات

٣ - ابهام المؤلفات اللغوية

٤ - تداخل اللغات

٥ - المولدون واللغة

٦ - تبسيط اللفظة

قال الشدياق : " النحو له ابتداء وليس له انتهاء " (١) . لذلك ، فإن الذي يدرك اللغة حَقَّ درايتها لجدير بأن يقال فيه انه عالم جسد عالم (٢) .

اللغة العربية اذا ، لغة صعبة . وهي لم تكن بهذه الصعوبة حتى كان التدوين وكانت الاجتهادات اللغوية . ففي التدوين احتاج المؤلفون الى اثبات الالفاظ ، وقد احتجوا لهذا الاثبات بأشعار العرب . ولم تكن الالفاظ العربية المتداولة في قبيلة هي ذاتها المتداولة في قبيلة أخرى . لهذا ، كان الشعراء كثيرا ما يستعملون في أشعارهم الفاظا كان يجهلها سواهم . وقد أتى المتأخرون من بعدهم ، ونقلوا عنهم ، وعمدوا الى تأويل ما لم يفهموه . بل وربما عظموا ما لم يفهموا من كلامهم ، استنادا الى " أن الاعرابي اذا قويت فصاحته ، وسمت طبيعته ، تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله اليه " (٣) .

وتقع أهم صعوبات اللغة العربية في :

(١) (٠٠) قال الاستاذ ، واني وان كنت قد لقيت منه عرق القربة ، وكثيرا ما بت وبالي مشغول بحقلة بن عقله ، وبداهية من عرائله ، فكنت أرق ليلى كلسه ولا أهدى الى وجه الصواب فيما عوص علي من ذلك ، الا اني استفتت منه فائدة عظيمة جعلتني ممنونا لبنت أبي الاسود الدؤلي أيد الدهر ، فانها هي كانت سببا في استنباطه . فقال له التلميذ ، ما هذه الفائدة يا استاذي . قال ، قد طالما كان يخامرني الريب في قضية خلود النفس ، فكنت أميل الى ما قالته الفلاسفة من أنه كل ما كان له ابتداء فهو متناه . فلما رأيت النحو له ابتداء وليس له انتهاء قست النفس عليه ، فزال عني والحمد لله ذلك الابهام . . . الساق على الساق . ص ١٣٠ .

(٢) الجاسوس على القاموس . ص ٤٧ .

(٣) (٠٠) فقد حكى عن روبه وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظا لم يسمعاها ولا سبقا اليها (٠٠) .

الجاسوس على القاموس . ص ٤٧ .

كثرة الشواهد

فمن سبب مصاعب العربية ، كثرة الشواهد ، وكثرة الشواهد في اللغة العربية فضول (١) . والمفروض في الناقل أن يكون أمينا على ما ينقله ، وعلى الناس أن يصدقوه . فالناس ان لم يصدقوه في النقل ، لم يصدقوه في الاستشهاد أيضا (٢) .

والاستشهاد لا يكون الا اذا دعت الضرورة الى ذلك ، كأن تكون الكلمة نادرة مثلا (٣) . وليس الاكثار من الشواهد في كتب اللغة الا زيادة في ارتباكها ومعاناتها .

التصرف في اللغة

وكثيرون من اللغويين تصرفوا باللغة باختراع من عندهم ، فأضافوا الى اللغة ومعضلات لغوية جديدة . " ولا يخفى أن التصرف في اللغة غير معهود ، ولا يخلو غالبا من عدم المساواة ، وخصوصا اذا كان المفسر غير عربي خالص " (٤) .

التحريف والتصحيف

والنسخ زاد من تصحيف اللغة وتحريفها . ومن الامثلة التي قدّمها الشدياق على هذا التصحيف والتحريف ، كتاب " القاموس " . ان لا غرو بأن يكون القاموس قد تصحف على نساخه (٥) . والتصحيف الذي طرقت " القاموس " ، طرق سواء من كتب اللغة العربية ، مما أضفى عليها الكثير من الاضطراب ، وأساء الى

(٣٥٢٥١) الجاسوس على القاموس . ص ٤٨ .

(٤) المصدر نفسه . ص ١٠٥ .

(٥) (٠٠) ولان ناسخ القاموس مثلا ، قد يضع الحركات على الفاظ معلومة مشهورة لا تحتاج الى حركة ، كوضعه مثلا حركة الفعل في آخر الفعل الساضي ، وتحريك العين واللام من " على " وتحريك التاء من " كتب " بالضم ، وتحريك الهاء من " لله " بالكسر وهلم جرا . وهذا النمط يحسب في زماننا فضولا بل عيبا) .

الجاسوس على القاموس . ص ١٢٧ .

بساطتها وجماليتها . وقد ظهر للشدياق بعد التروى أن كثيرا من الالفاظ تصحف على أهل اللغة من دون أن يشعروا بذلك ، " فصرنا عليها ومرت عليهم مرارا ولكن بدون تعارف ، وما ذلك الا لانهم لم يهتمهم في الآلام التآلف " (١) .

عدم تقدير اللغويين للفتهم

لم يقدر العرب اللغة حق قدرها ، ولم يعرفوا أنها الفاضلة وغيرها المفضول (٢) . من هنا كان عدولهم عنها الى لغات العجم ، فأضافوا اليها ألفاظا هي في اللغة العربية أفصح وكثر احكاما ، " واعذب منطقا وابهى رونقا " (٣) . وقد كان على اللغويين بدل الاستمارة من الالفاظ الاعجمية ، أن يولدوا ألفاظا جديدة من النحت . هكذا تبقى اللغة العربية لغة نقية خالية من أية ألفاظ أخرى دخيلة عليها .

من هنا يرى الشدياق أن أهل العربية قد "كسوا هذه اللغة الشريفة ثوبا غير لائق بها " وذلك حين حاموا حول اللغات الاجنبية ، وراحوا ينسبون اليها ما هو في العربية من خصائصها ومزاياها السنية (٤) . ولا شك بأن هذا الامر يدخل في غرابة تصرف العرب في كلامها ، (٥) وبخاصة حين رغب اولئك العرب القول بأن هذا رومي ، وهذا حبشي ، وهذا سرياني . . (٦) .

-
- (١) الجاسوس على القاموس . ص ١٨٤ .
 - (٢) كثر الليال في القلب والابدال . ص ٤ .
 - (٣) المصدر نفسه .
 - (٤) المصدر نفسه . ص ١٤١ .
 - (٥) المصدر نفسه . ص ٢٧٠ .
 - (٦) المصدر نفسه . ص ٢٩٩ .

من المعقول ان تكون حدة أذهان اللغويين التي تفتح لهم ابوابا كثيرة لفهم المعنى ، دافعا للاختلافات فيما بينهم حول اللغة كما رأى الشدياق (١) . فالمنافسة بينهم انما كانت من أجل اظهار براعة الواحد على الآخر ، ولو ادت تلك البراعة الى الخروج عن حادة القصد (٢) . وقد كان لكل من اولئك اللغويين حزب يعضده ويؤيد قوله ، وهي عادة البشر منذ تديم الزمان . وقد كانت خلافات اللغويين سببا اساسيا من اسباب زيادة مصادر العربية ، ويرغم من ان هذا الخلاف بين اهل اللغة يكون احيانا مفيدا كما فاعن حقيقة وضع الالفاظ و احيانا سائرا له ، من حيث انهم يبعدون منه الشريب ويركبون منه البسيط (٣) .

ترزت خلافات اهل اللغة حول امور متعددة يثني على رأسها : خلافهم حول اقصاء الواو عن الهمزة (٤) ، ومزالمتهم حول الهمزة وكيفية رسمها (٥) ، وهل هي اصلية أم منقلبة عن حرف علة . بل ان بعض اللغويين من المؤلفين

(١ ، ٢ ، ٣) الحاسوس على القاموس ص ٤٧ .

(٤) (٥٠) ما اثاره على صاحب القاموس وقد كان أساس النقد اللغوي عند الشدياق

أنه "اقصى الواو عن الهمزة ، مع أن الواو كثيرا ما تقلب همزة لشدة ما بينهما من التآلف كالتوكيد والتأيد . وانكر من هذا وذاك انهم جعلوا الياء آخر الحروف ونحن نرى الاطفال ينطقون بها وبالهمزة أول ما تفتتح افواههم للنطق ، ولا يخفى أن معظم الافعال المعتلة وارادة من المهموز ، وان الهمزة كثيرا ما تقلب حرف علة " (٥) .

سر الليال في القلب والابدال ص ٢٢ .

(٥) (٥٠) بعض اللغويين يرى الهمزة اصلية ، وبعضهم يراها منقلبة عن حرف

علة . . . الحاسوس على القاموس ص ٣٣ .

... واني أرى المؤلفين غير متفقين على رسمها من كثرة ما جعلوا له من القواعد والضوابط ، حتى ان بعضهم جعل الشاذ منه قاعدة اللفظة مسئول ومشعوم ، فجزم بأنه لا بد من كتبها بالياء مع ان الياء لا مدخل لها هنا ، فالاولى ان تكتب بالواو مع بقاء واو مفعول ، وكذا رأيتها في الخواطر القديمة . . . وبعضهم يكتب التوأم بالفاء فوقها همزة ، وبعضهم يكتبها من دون الفاء على ان ما قبلها ساكن فعاملوها معاملة الدخلة ونظائره (٥٠) . الحاسوس على القاموس ص ٣٧ .

يتعنت حول هذا الموضوع لمجرد التخطئة ، كما فعل " المصنف رحمه الله " (١) ،
ومع كل هذا الخلاف ، فالملاحظ هو نشوز الهمزة على أقلام المؤلفين (٢) ،
فهي اذا ، من أول الحروف النهي أعجزت العلماء وأئمة اللغة ...

كذلك الامر في مزققة النون ، فانها أعم وأطم من حيث التباسها في أوائل
الالفاظ وأواسطها وواخرها (٣) . وقد جاءت النون في كثير من الاحيان
زائدة للترنم (٤) .

(١) (٠٠) " والمصنف رحمه الله لا يلتفت الى خلاف العلماء فيها ، بل يأخذ بقول
بعضهم لغاية تخطئة الجوهرى ، وقد ظهر منه هذا التعنت في أول كتابه
ما يدل على أنه كان متشدرا للتخطئة . الجاسوس على القاموس . ص ٣٢ .
٠٠ " أما رسمها في الخط وابدالها من حروف الهمزة فيكاد يكون علما مستقلا
يحوج الى زمن طويل ، فلو أنها رست في الاصل بشكل مخصوص غير شاكل
الالف لا سترحنا من مشكلاتها ، فاني أرى المؤلفين غير متفقين على رسمها
على كثرة ما جعلوا له من القواعد والضوابط " () .
الجاسوس على القاموس . ص ٤٧ .

(٢) (٠٠) ذكر العلامة للشيخ نصر الهوريني - رحمه الله - في المطالع النصيرية ،
أن الالف زيدت في مائة للفرق بينها وبين منه ٠٠٠ قلت : قوله للفرق بينها
وبين منه ، فهذا الفرق كان ينبغي مراعاته أيضا في فئة فانها تلتبس بغيره .
الجاسوس على القاموس . ص ٣٧ .
٠٠ عليه ، فيكون لرسم المائة اربع صور وهي هذه : مائة ، ومئة ، ومائة ، وميه .

وقد رأيتها مكتوبة بخط الصاغاني وغيره من المؤلفين الاقدمين مثل فئة ٠٠٠ بل
الخلاف وقع أيضا في تسميتها ، فان التعبير بالهمزة من اصطلاح المتأخرين ،
ومنهم من عبر عنها بالالف ومن جملتهم صاحب المصباح ، والاقدمون عبروا عنها
بالالف المهموز - وهكذا) . الجاسوس على القاموس . ص ٣٨ .

(٣) الجاسوس على القاموس . ص ٣٧ .

(٤) (٠٠) وهو دليل على أن العرب كانت تستحلي هذا الحرف لما فيه من الغنة كما هو في
الواقع ، ومع ذلك فان الواو التي جاءت في يابه لم تبلغ مقدار المواد التي جاءت في
باب الراء ، فانها في قاموس مصر لم تزد على تسعين صفحة ، ومواد باب الراء مائة
مائتين وست عشرة صحيفة ، مع أن الراء ثقيلة على اللسان ولذلك لثغرها كثير من
مشاهير الافاضل . . . ومثله غرابة أن لثغرتها في العربية صارت لحة كما في تسجيل
الدرع أي تسربلها (٠٠) . الجاسوس على القاموس . ص ٣٩ .

أحرف الهجاء

اختلف اللغويون في عدد حروف الهجاء وترتيبها . فبينما اعتبرها البعض تسعة وعشرين حرفا ، عدّها البعض الآخر ثمانية وعشرين (١) . واختلفوا أيضا حول قضية ترتيب تلك الحروف ، وقضية انقلاب هذه الحروف بعضها عن بعض (٢) .

بل ان الخلاف تجاوز ذلك الى كيفية ترتيبها بين المشاركة والمفارقة . فالأغرب من كل ذلك " مخالفة المفارقة لنا في ترتيب حروف الهجاء جملة " (٣) . كذلك الامر في اختلاف أقوال العلماء في أبجد (٤) .

-
- (١) (٠٠) كانت حجة من يعدّها تسعة وعشرين أن الألف احدى حروف العلة ، فهي اذا حرف . ومن يعدّها ثمانية وعشرين ، انها اى الالف لا يفرد لها باب في اللغة لانها لا تكون الا زائدة او مقلوبة فلا تقدر عليها أفعال كسائر الحروف) . الجاسوس على القاموس . ص ٤٠ .
- (٢) (٠٠) وأن نعلم أيضا من رتب الحروف هكذا ، ولاي سبب فصل بين المتجانس منها مثل التاء والذال والطاء ، والمهمزة والعين ، والذال والظاء ، والحاء والهاء . فانا نرى بعضها ينقلب عن بعض في ألفاظ كثيرة لا تعد ولا تحصى . وفي الصحاح والقاموس والعياب واسباس البلاغة والنهاية والكليات رتب الواو قبل الهاء . وفي المصباح ولسان العرب وشفاء الغليل رتب الهاء قبل الواو (٠٠) . الجاسوس على القاموس . ص ٤٠ .
- (٣) (٠٠) ان ترتيب أحرف الهجاء عند المغاربة هي هكذا : ا - ب - ث - ج - ح - خ - د - ذ - ر - ز - ط - ظ - ك - م - ن - ص - ض - ع - غ - ف - ق - س - ش - و - لا - ي . الجاسوس على القاموس . ص ٤٣ .
- (٤) (٠٠٠) والغرابية في الخلاف حول أبجد تقع في أربعة وجوه ، أحدها أن أهل اللغة يوردون أبجد في بجد مع أن البجزة أول الحروف فلا يمكن أن تكون الا أصلية . والثاني ، أن الجوهرى والازهرى ، وابن سيده والزمخشري وصاحب اللسان ، أهملوا أبجد . والثالث اني ذكرت يوما لاحد العلماء ان قولهم ابو جاد يوجب تكرير الواو لانها موجودة في هموز فانها الواو التي هي علامة الرفع في الاسماء الخمسة . والرابع انه اذا كانت أبجد وهموز وحظي عربية فكيف دخل عليها باقي الالفاظ وهي عجمية (٠٠) . الجاسوس على القاموس : ص ٤٣ .

القلب والابدال والشفقة

- من الاخطاء المرتكبة في حق اللنة ، خلافات القلب والابدال والشفقة .
أما المرتكبون لهذه الاخطاء فكانوا من أصحاب اللسان الذين تنافسوا في الفصاحة وعدوها من أعظم المزايا واكرم السجايا . لأن غلطتهم كانت انهم حرفوا الكلام حين جعلوا القاف همزة ، والثاء تاء ، والذال دالا . الخ . شأنهم في ذلك شأن المستعربين الذين أتوا من بعدهم (١) .

والحقيقة - في رأي الشدياق - أن اللشقة والقلب والابدال في العربية امور غريبة وهي لا توجد في غيرها من اللغات (٢) . واغرب الابدال ما ابدل فيه جميع حروفه نحو درأ وطلع (٣) .

- ووقع الخلاف أيضا بين أئمة اللغة حول القلب وما تفرع عنه من مسائل مهمة ومشاكل جملة (٤) ، نحو ربيض ورضب ، وأنضب القوس وأنبضها . واغرب الخلاف كان فيما يتعلق بالقلب على التوهم ، نحو اسنتوا ، اي أصابهم سنة جذب (٥) .

-
- (١) الجاسوس على القاموس . ص ١٣٥ .
 - (٢) (٣٥٢) . وقد جعلوا القاف همزة في قرم وأرم أي أكل . وفي درأ وطلع :
أبدلوا الطاء دالا واللام راه والعين همزة ، ولك أن تعكس (٠٠) .
الجاسوس على القاموس . ص ١٣٥ .
 - (٤) (٠٠) ربيض ورضب ، وأنضب القوس وأنبضها ، فان بعضهم يرى أن أحدي الكلمتين لغة في الاخرى ، وبعضهم يرى انها مقلوبة عنها ، ويترتب على ذلك أن ما كان مقلوبا لا يكون له مصدر ، وانما يستعمل مصدر المقلوب عنها ليكون شاهدا (٠٠) .
الجاسوس على القاموس . ص ٤٣ .
 - (٥) (٠٠) توهم بعض اللغويين أن السنة يوقف عليها بالثاء كما في رحمت ثم قلبوها فقالوا اسنتوا (٠٠) .
الجاسوس على القاموس . ص ١٣٥ .

والعرب ان لم تتخرج من قلب الالفاظ العربية ، كان عليها ألا تتخرج من قلب الالفاظ الاعجمية . ففي كلتا الحالتين ، يعود منشأ القلب الى قلة المبالاة (١) .

والواقع أن القلب والابدال ليسا الا من اختلاف القبائل ، هذا الاختلاف الذي عقد اللغة العربية ، وأوصلها الى الغرابة أحيانا .

الاشتقاق

ومن جملة الخلاف بين اللغويين الاشتقاق (٢) . بالرغم من أن الاشتقاق أدعى الى شحذ الذهن واعمال الفكر واطهار البراعة . ولكن المشكلة تكون حين يختلف اللغويون حول ما هو مصدر ومشتق (٣) .

ومع هذا ، فالاشتقاق أحد الاساليب التي تتمتع بها اللغة العربية ولا يوجد في سائر اللغات كما يوجد فيها ، لذا فهي أفضل اللغات واشرفهن وأكملهن ، فهن الفقيرات وهي الغنية " شرط أن تبقى فوق الاختلافات (٤) .

(١) (٠٠) ألا ترى أنهم تصرفوا في أسماء الملائكة ، بل قالوا " لاهم " في " اللهم "

فما الفرق بين التخيير والقلب الا من اختلاف القبائل (٠٠) .

الجاسوس على القاموس . ص ١٨٢ .

(٢) (٠٠) فمن ذلك اختلافهم في اشتقاق القرآن ، واختلافهم في اشتقاق اسم الجلالة ،

وأصحها أنه علم غير مشتق وأصله اله كفعال بمعنى مألوه (٠٠) .

الجاسوس على القاموس . ص ٤٦ .

(٣) (يقول الشدياق : وأكثر ما أعجبني من هذا النوع وشغل خاطري لفظة القدس

بالضم والضمين . فقد ذكرني الصحاح ومختاره ، وفي اللسان والعياب والقاموس

انه اسم ومصدر ، وفسروه بالظهر ، وما أحد تصدى لذكر فعل منه ، مع انه

ورد منه قدوس صفة للباري تعالى مثل سبوح ، وقالوا أيضا اسم الله الاقدس

وبيت المقدس وقدس تقديسا .٠٠٠ أما تفسير أهل اللغة للقدس بالظهر ففيه

تسمع وفسره صاحب المحكم بالبركة ونص عبارته القدس البركة ، فالعجب أن

يكون القدس مصدرا ويشق منه القدوس والمقدس والاقدس وقدس ولا يكون

له فعل (٠٠) .

الجاسوس على القاموس . ص ٢٦١ .

(٤) سر الليال في القلب والابدال . ص ٤ .

الاعجام والاعراب

وان تعريف الكلام العربي يجب أن يكون فصيحاً مبيناً ، والا " متجسس" السمع ونبا عن الطبع " (١) . ومن اسباب وقوع اللغويين في الخلاف عدم اعجام الحروف حين كانت العربية غير متقنة ولا محكمة (٢) . وقد أدى هذا إلى شروء كلمات كثيرة عن فصاحتها ، لوصولها إليها غير صحيحة بسبب عدم الاعجام ، بل ان هذه الكلمات لا زالت الى عصرنا هذا مظنة للتحريف والتصحيف . وما وقع من الخلاف بين أهل اللغة حول هذا ، وقع مثله بل أشد منه بين النحويين ، فان هؤلاء يتداولون المعاني والالفاظ معاً (٣) .

والأمثلة على خلاف النحويين فيما يتعلق بالاعراب كثيرة ، منها الاختلاف على اعراب الاسماء الخمسة ، فقد ذكر عشرة مذاهب في اعرابها (٤) .

اللازم والمتعدى

ومن مصاعب العربية أيضاً قصور عبارة أهل اللغة فيما يتعلق بالمتعدى . فالباحث اللغوي يجد في تمييز المتعدى من اللازم صعوبة فادحة " تمنيه بالتفكير والسهر والسامة والضجر (٥) . وكثيراً ما وقع أئمة اللغة والصرف في الوهم حين لم يستدلوا بالتفريق تماماً بين اللازم والمتعدى فأدمجوا أحياناً الواحد منهما في الآخر (٦) .

(١) الجاسوس على القاموس . ص ٥٤ .

(٢) المصدر نفسه . ص ٤٦ - ٤٧ .

(٣) المصدر نفسه . ص ٤٧ .

(٦٥٥) (يقول الشدياتي : ولكن قبل الوداع ، رأيت من الواجب علي أن استوعب في هذه الخاتمة على قدر الامكان كل ما جاء من أفعل المتعدى واللازم اظهاراً لأوهام أئمة اللغة والصرف ، فانهم زعموا أن افتصل يأتي للمطاوعة غالباً ، حتى أن المصنف جزم في مادة قتو بأنه لا يأتي الا لازماً ، ولهذا عازمت على أن أجعل ما جاء منه للمطاوعة على حدة ، لكني لما رأيته قليلاً أدمجته في اللازم ونهيت عليه . . . هذا ومع فرط تنقيري على هذا البناء وبذل مجهودي به ، فقد وجدت في تمييز المتعدى منه عن اللازم صعوبة فادحة ، وذلك لقصور عبارة أهل اللغة فيه (٥٠) .

الجاسوس على القاموس . ص ٥٢١ - ٥٢٢ .

ولا يمكن حصر تقصير اللغويين في كتبهم حول هذا الموضوع ، فان أى كتاب من شعر العرب فتحته وجدت فيه أفعالا خلت منها كتبهم (١) . وفي باب الامثلة حول تمييز اللازم من المتعدى يذكر الشدياق أن تمييز افتعل المتعدى من اللازم يحتاج الى كثير من كتب اللغة ودواوين العرب ، وهذا التناقض والابهام في هذا الفعل الى جانب غيره من الافعال يكبل اللغة واللغويين ، مع انه ينبغي أن يكون فيه جميع أهل اللغة على قول واحد . (٢) وان اكثر أهل اللغة تعمية له وابهاما ما فيه المصنف (٣) .

غزارة المفردات وصيغ الجموع

يورد الشدياق في كتابه " الساق على الساق " (٤) المئات من المفردات العربية ذات المعنى الواحد والدلالة الواحدة . وهذه المفردات تدخل عنده في باب المترادفات المتساوية . وقد كثرت هذه المفردات نتيجة تعدد القبائل العربية ، والتي كانت تعبر عن معانيها بألفاظها الخاصة المألوفة لديها .

- (١) (٠٠) واغرب من ذلك انه ليس بين أئمة اللغة مثلاً من ذكر اتحاد الشيء بالشيء ولا اقتطف بمعنى قطف ، مع أن افتصل كثيراً ما يجيء مثل فعل فيما يدل على القطع . وكذلك احترم لم أجده في الجوهرة ولا في التهذيب ولا في المجمل ولا في ديوان الادب ولا في الصحاح ولا في مختصره ، ولا في المحكم ولا في الاساس ولا في مختصر العين ولا في التكملة ولا في اللسان ولا في القاموس وانما اشار اليه صاحب المصباح بقوله والحرمة المهابة وهذا اسم من الاحترام مثل الفرقة من الافتراق) . الجاسوس على القاموس . ص ٥٢٦ .
- (٢) الجاسوس على القاموس . ص ٥٢٨ .
- (٣) (٠٠) ومن اوهم الصرفيين ، اعني الذين ألفوا في الصرف ، وان كانوا قد اشتهروا بعلم اخرى قول الامام ابي حيان في كتابه ارتشاف الضرب من لسان العرب افتصل للاتخاذ والتسبب اعتمل تسبب في العمل ، قال وعبر بعضهم عن هذا بالتصرف والاجتهاد ولفعل الفاعل بنفسه اضطرِبَ وللتخير انتخب وللمطاوعة أفعَلْ أنصفته فانصف ولموافقة تفاعل اجتوروا بمعنى تجاوزوا وتفاعل ابتسم بمعنى تبسم واستفعل ارتاح بمعنى استراح ولموافقة المجرد اقتدر وقدر قيل وفيه معنى الكثرة ، وللاغناء عنه استلم وللمطاوعة قليلاً اعتم مطاوع عمته وللخطف استلبه أخذه بسرعة . . . الخ) . الجاسوس على القاموس . ص ٥٣١ .
- (٤) راجع الساق على الساق . ص ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ - ٢٢٧ - ٢٣٥ - ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٣٩ - والصفحات من ٢٨٠ الى ٣١٨ ، ومن ٣٢٥ - ٣٥٠ المتعلقة بالمرأة والزواج والجواهر :

والمفردات الفزيرة ان أغنت اللغة العربية وزادت من ثروتها ، الا أن الاغلبية منها بقيت غير متداولة وقد ملأت بطون المعاجم والقواميس ، وخضعت لتكريس وتقديس المتقدمين والمتأخرين . لذا ، فان اللغة العربية بحاجة فقط الى الاهتمام باللفظة المعبرة التي تؤدي المعنى ببساطة مع اهمال المفردات التي عفاها الزمن (١) .

واللغة العربية بدءاً من الكلمة المفردة لفة ذات شأن ، وتتميز بامتيازات متعددة تشكل خاصة من خصائصها التي قل أن تجد نظيراً لها في اللغات الاخرى ، لذا وجب اعادة النظر في أساليب اللغة العربية ان لم نقل في عيوبها التي تراكت عليها بمرور الزمن (٢) .

من هذه الاساليب الجمع المكسر الذي يصعب حصره ، وربما كان للاسم الواحد عدة جموع كالناقاة والعبد مثلاً . وهذه الجموع تكلف اللغوي الجهد والعناء ، وخاصة فيما يتعلق بالالفاظ الاعجمية التي صار حكمها كاللفظ العربي المشهور (٣) ، مع أن الجمع في لغة العجم له علامة واحدة ، بعكس ما يحصل في العربية .

هذا اذا أضفنا الى غزارة المفردات والجمع ما يتعلق بالنسبة والتصغير وسوى ذلك .

-
- (١) قال الشدياق : وكان اذا حدثه أحد بأنه رأى في حديقته رجلاً رأى هو في المنام ليلته تلك أنه في : خزت اسم شيطان . الرفع : اسم شيطان . او الجم : الشيطان او الشياطين . او نهم : شيطان او هياه من اسماء الشياطين او الحباب اسم شيطان أو الازب اسم شيطان ، أزب العقبة : اسم شيطان . الهراء : اسم شيطان موكل بقبيح الاحلام . الولهان : شيطان . الخ) .
- الساق على الساق . ص ١٧١ .
- (٢) سر الليال في القلب والابدال . ص ٣ - ٤ .
- (٣) (٠٠) وربما جهل جمع لفظ غريب المبني ، او كان لتعريبه قد شذ وزنا كجمع البك ، والافندي ، ومسيو وسنيور وغير ذلك (٠٠) .
- سر الليال في القلب والابدال . ص ٤ .

ابهام المؤلفات اللغوية

من جملة العوامل التي توقع باحث اللغة ودارسها في الصعوبات ، ابهام المؤلفات اللغوية وغوضها . فالباحث يتراجع عن تلك المؤلفات ملالا ، والدارس يقعه عن الالمام بها ما وجد فيها من أبواب واسعة من الابهام (١) . والذنب في الابهام ليس ذنب اللغة ، وانما هو ذنب المؤلفين اللغويين الذين جعلوا طريقة البحث في مؤلفاتهم صعبة جدا ، حتى أن بعض المؤلفات يبدو صعب المنال وبخاصة المعاجم منها (٢) .

وابهام المؤلفات اللغوية يأتي من عدة أسباب ، بعضها تعلق بترتيبها الذي بني أحيانا على مخارج الحروف وقلب الالفاظ ، كالتهديب للازهرى ، وأحيانا أخرى على تقديم الحروف وتأخيرها ككتاب المحكم لابن سيده . وبعضها تعلق بغرابة ترتيبها برغم قيمتها اللغوية ، مما جعلها عسيرة المطلب ، ونتج عنها اهمال الناس لامرها والانصراف عنها . وقد أضاع هذا الاهمال الكثير على اللغة وحقيقتها الاصلية (٣) .

وبعضها الآخر تعلق باجتهادات اللغويين أنفسهم الذين أضافوا الى اللغة من اجتهاداتهم ما هي براء منه ، كما فعل القراء وسيبويه والكسائي والاصمعي وسواهم (٤) . لذا قل من يطالع كتبهم او يفهمها او يعمل بمقتضى قواعدها (٥) .

(١) الجاسوس على القاموس . ص ٢١ .

(٢) المصدر نفسه . ص ٢٣ .

(٤) المصدر نفسه . ص ١٣٢ .

(٥) قال الشدياق في كتابه " الساق على الساق " : فقال له التلميذ وقد امتنع

لونه وهل النحاة ايضا ماتوا ولم ينهوا قواعد هذا العلم ؟ فقال له الشيخ :

فقد قال القراء اموت وفي قلبي شيء من حتى ، وقد مات سيبويه وبقي في

قلبه من فتح همزة ان وكسرهما اشياء ، ومات الكسائي وفي صدره من الفناء

السببية والعاطفة والفصيحة والتفريعية حزازات ، ومات الاصمعي وفي عنقه من

رسم كتابة الهمزة غدة) .

الساق على الساق . ص ١٣٢ .

وفي الجملة - على حد قول الشدياق - فان معرفة حرف واحد من هذه الحروف اذا تعمد الطالب استقصاءها ، وجب عليه ان يترك جميع اشغاله ومضامحه ويعكف على ما قيل فيه واجيب عنه (١) .

ان بين ايدى الباحثين واللغويين ركاما من المعطيات اللغوية وقد ملأت مجلدات ومجلدات . فالصحاح اشتمل على اربعين الف مادة ، وصاحب القاموس توسع فجمع ستين الف مادة ، ولسان العرب اشتمل على ثمانين الف مادة ٠٠٠ الخ (٢) . ومع ذلك فغموض هذه المؤلفات وصعوبتها لم يكونا خيرا على العربية ، ولم يجعلها قادرة على اللحاق بركب المعطيات التقنية الجديدة والتعبير عنها بالرغم من غناها .

وما يجعل المؤلفات اللغوية القديمة هي السائدة ، قلة التأليف في عصرنا . فالمؤلف ليست لديه الجرأة على هدم صنمية القدماء ، لانه بمجرد التفكير في الهدم سيعرض نفسه " للطعن والقدح والبلاء " (٣) ، لذلك تبقى المؤلفات الموروثة على ما فيها من مصاعب المثال الذي يجب ان يقلد .

وعلى كل ، ينبغي لمن نصب نفسه لافادة العامة والخاصة في مؤلفاته ان يبتعد عن الاغراب حتى لا يقع المؤلف في الغموض لمجرد اتيانه بالفاظ وقواعد لاتعرفها الا " العرب العرباء " التي جبلت على معرفة اكثر الكلام " (٤) .

تداخيل اللغات

اللغة العربية ليست لغة صافية ، وانما تداخلها العديد من اللغات الاعجمية في فترات الاختلاط بالاعاجم في العصور السالفة . والعرب في مؤلفاتهم لم يفرقوا بين لفظ اعجمي او عربي ولم يذكروا أن الاسماء المعربة قد تبقى على وزنها بعد تعريبها ، وقد تنفير او تلحق بوزن اللفظ العربي (٥) .

-
- (١) الساق على الساق . ص ١٣٢ .
 - (٢) الجاسوس على القاموس . ص ١٠٦ .
 - (٣) الساق على الساق . ص ١٣٣ .
 - (٤) الجاسوس على القاموس . ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .
 - (٥) الجاسوس على القاموس . ص ٢١١ .

وان فرق البعض بين الالفاظ الاعجمية والعربية ، فقد جاء تفريقهم غير دقيق . فبعض أهل العلم قالوا انه متى وجد فعل كان شاهداً على أن اللفظ عربي ، واستشهدوا على ذلك بلفظ الديوان ، فقالوا انه عربي ، لانه يقال دونت الكلمة اذا ضبطتها وقيدتها ، فالديوان اذا موضع تضبط فيه أحوال الناس وتسدون فيه (١) .

هذه الالفاظ الاعجمية التي دخلت اللغة العربية وصارت متداولة عند العرب بفضل التعامل ، يجب أن يجرى عليها حكم القواعد العربية ، لان العرب تأخذ اللفظ العجمي وتتصرف به كما تتصرف باللفظ العربي (٢) .

وحتى لا تقع اللغة العربية في مأزق آخر يزيد من صعوباتها ، يجدر باللغويين ألا يقفوا كثيراً على ما هو معرب او غير معرب منها . اذ لا شين على اللغة العربية في أن تدخلها الفاظ معربة ، فان جميع اللغات يستعير بعضها من بعض (٣) . وما كان غير معروف عند العرب من انواع المأكول والمطبخوس والمفروش والنبات يجب تعريبه ، فالشين أن يكون للعرب الفاظ عديدة مترادفة ثم يستعبروا من العجمية لفظة بمعناها (٤) .

من الشين أيضاً أن ينسب اللفظ العربي الفصحى الى اللغة العجمية ، او تنسب الفاظ أعجمية الى اللغة العربية ، لان الكثير من الالفاظ التي دخلت

(١) الجاسوس على القاموس . ص ٢١٢ .

(٢) المصدر نفسه . ص ٢١٢ .

(٣) المصدر نفسه . ص ٢١٣ .

(٤) (٠٠) كاستعارتهم لفظة الرساطون للخمر ، مع أن اسماءها في العربية تنيف على مائة كما في حلبة الكميت ، ذكر منها الامام السيوطي في المزهر ثمانين (٠٠) .

الجاسوس على القاموس . ص ٢١٣ .

وتداخل اللغات هذا ثابت بأقوال اللغويين أنفسهم ، إذ لا يحتمل بقاء اللغة العربية سالمة من اللحن حتى عهد التدوين ، وهي ان بقيت كذلك فعند قبائل معدودة وموجودة في البادية ، وكانت تلك القبائل تمنع من اقامة النريب بينها اكثر من ثلاث ليال (١) . لذلك يكون من التعنت على اللغة أن نبحث فيها عما هو أعجمي ، كان قد اتخذ بفعل التداول صيغة اللفظ العربي وأحكامه .

أثر المولدين في اللغة

تبقى قضية تأثير المولدين في اللغة مثار أخذ ورد ما بين متعصب ضدهم ومتساهل معهم . فهل راعى المولدون حق اللغة العربية ؟ وهل يتحمل هؤلاء المولدون بعض المسؤولية تجاه اللغة العربية وما جاء في التأليف العربية ، حين تجنبوا الغوص في مكوناتها والبحث في اسرارها ؟

رأى الشدياق أن المولدين راعوا حق اللغة والتزموا قواعدها اكثر من العرب في الجاهلية . وكانت حجته في ذلك أن اللغة وسيلة الى فهم التنزيل والحديث الشريف ، لذلك بالغ المولدون في ضبطها ما أمكن (٢) .

وان كان هناك من قائل بأن المولدين قد جاؤوا بأشياء مخالفة للاصول والقواعد ، فاننا هم فعلوا ذلك لعدم وقوفهم على نص فيها ، اولانهم كانوا غير قادرين على توجيهه وتخريجه ، بخلاف العرب العاربة الذين خالفوا هذه الاصول لعدم المبالاة . من هنا كانت الاساءة الى اللغة العربية متأية عن العرب لا عن المولدين (٣) .

والمولدون تركوا اثرا كبيرا في اللغة ، ومن الواجب الاحتجاج بكلامهم ، على خلاف قول العلماء الذين ذكروا أن " المولد عربي غير محض " (٤) . فالمولد لم يكن مقصرا في حق اللغة العربية ولا في حق تأليفها أصبح فيه بعامل الزمن كالعربي تماما في منشأه وبيئته وموثرات حياته .

(١) الجاسوس على القاموس . ص ٥١٤ .

(٢) المصدر نفسه . ص ٢٩ . ومقدمة الديوان . ص ٢٩ .

(٣) مقدمة الديوان . ص ٢٩ .

(٤) الجاسوس على القاموس . ص ٥٢٠ .

اللغة العربية من لغة العجم (١) ، لا علم لنا بكيفية دخولها ولا بمكانها ولا بزمانها ،
فمثلها كمثل كثير من اسباب المعيشة التي نتمتع بها ولا علم لنا بمحدثها ولا بزمانه
ولا بمكانه (٢) .

وقد يصل اغراق اللغويين في رد بعض الالفاظ الاعجمية الى العربية وبالعكس
الى حد الاسفاف ، وحد السخرية والشهكم من اجتهادات بعضهم حين تساءلوا مثلاً
" من أية لغة أخذ الرحمن والرحيم ، وهل يقال أن رحم معرب ؟ مع أن الامام الشافعي
رضي الله عنه قال بأن القرآن ليس فيه كلام عجمي " (٣) .

(١) (٠٠ يقول الشدياق : ٠٠ وبناء على ذلك ، أى أن العرب تتصرف في اللفظ
العجمي ، لم يكن الرد على من زعم أن الكثر معرب ، بقوله تعالى
" والذين يكثرون الذهب " كما رأيت في " شفاء الغليل " ردا قاطعاً .
وفضلاً عن ذلك ، فإن الكثر ليس من الاشياء التي لم تكن معروفة للعرب
كالدجاج والاستبرق ، ومن ثم أقول ، أن اللجام أيضاً عربي لانه كان لازماً
للعرب مثل السرج والركاب .

٠٠ كذلك الامر في قول صاحب الكلبيات عن ابن عباس رضي الله عنه أن هيت
لك بالقبطية مع أنها من أخوات ماء وما وهيا وهى وهاء وهيك وهيه في
كونها وضعت للتبنيه والاستدعاء ، وهو وضع طبيعي مصطلح عليه في كل لغة .
ويقرب من هيت لفظاً واستعمالاً لفظة هايدى في اللغة التركية ، واغرب من
ذلك قول الازهرى في التهذيب ، وأفادني ابن اليزيدى عن أبي زيد قال
هيت لك بالعبرانية هيتا (٠٠) .

الجاسوس على القاموس . ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٢) الجاسوس على القاموس . ص ٢١٣ .

(٣) (٠٠ وقد جاء رخمته بالخاء المعجمة بمعنى رحمته ، ورثت الناقسة ولدها ،
عظفت عليه ولزمته ، وكذلك مادة رهم فيها معنى الرقة فياليت شعري من أية
لغة أخذ الرحمن والرحيم ، وكيف وجد فيها هاتان الصيغتان موافقتين لصيغ
العربية ، وهل يقال أن رحم معرب . . .

٠٠٠ وقال الصغاني في التكملة في مادة رحم ما نصه ، سئل ابو العباس عن قوله تعالى
الرحمن الرحيم لمن جمع بينهما ، قال لان الرحمن سرياني والرحيم عربي ، فتعجب
وانظر كيف التوفيق بين قائل هذا وبين قول الامام الشافعي رضي الله عنه أن القرآن

ليس فيه كلام عجمي وانه من توافق اللغات (٠٠) .

الجاسوس على القاموس . ص ٢١٣ .

فيرى الشدياق أيضا ، انه لولا المولدون لما عرفت محسنات اللغة ، ولا ذكر الفصيح منها من غير الفصيح ، ولا كان عندنا اليوم نحو ولا صرف ولا معان ولا بيان ولا بديع ولا عروض ولا شيء غيره ، مما يدل على فضلهم وأثرهم في اللغة (١) .

من هنا ، يجب توثيق المولدين ، اذ ليس من الانصاف على المولد أن تتبل روايته في اللغة ويورد كلامه في الشعر . وان كان هناك من لوم على هؤلاء ، فهو تقصيرهم في التأليف اللغوي . أما اللوم الأكبر فيقع على اللغويين العرب ، وبخاصة أهل القرن الاول الذين كان عليهم عقب تشييد أركان الاسلام أن يقصدوا الحرب في البادية ، ويستقروا قبائلهم قبيلة قبيلة ، ويدونوا لغاتهم بالضبط والترتيب ، ويقفوا على كل شاردة في اللغة ، ولا يهملوا ذلك زمنا طويلا قبل قيام الخليل بن أحمد وتأليف كتاب " العين " .

وكتاب " العين " الذي همل له اللغويون ، جاء متأخرا وصعبا ، وكل المؤلفات التي جاءت بعده لم توف اللغة حقها ، فلماذا يكون اللوم على المولدين ؟ (٢) .

(١) مقدمة الديوان . ص ٢٩ .

(٢) (٠٠٠) يقول الشدياق : وبقي النظر في قول العلماء أن كلام المولدين لا يحتاج به ، فانهم لم يبينوا معنى المولدين ، فغاية ما قالوه في المولد انه عربي غير محض ، فاذا كان المراد بذلك أنه الذي نشأ بعد الاسلام فهو محض تعنت ، لان من هؤلاء المولدين من عاش قبل أن عرف التأليف في اللغة فكيف يحكم على كلامهم بأنه لم يكن عربيا صحيحا من دون كتب اللغة ، على أن كل ما ألف في اللغة لم يكن مستقصيا لجميع مفرداتها ، وعلى كل فكان ينبغي لمن انكر الاحتجاج بكلام المولدين أن يبين عصرهم (٠٠) .

الجاسوس على القاموس . ص ٥٢٠ .

والمولدون قدموا للغة العربية خدمة المحافظة على أنصح الكلمات والالفاظ .
فالواحد منهم كان لا يجرؤ على القيام بأى عمل أدبي قبل التروى ومراجعة كتب
اللغة (١) وهو كان يتروى في النظم ويبحث عن اللفظة المفردة بالدقة نفسها التي
فيها ينقب عن صحتها لغويا وعمق مدلولها . وربما كان هذا ناتجا عن الفرق
العصرى بينه وبين العربي ، ومن جرّاء الرغبة في البروز الذى يأمل بواسطته
أن يصل الى نقطة التساوى مع العربي اجتماعيا .

والنتيجة كانت أن المولدين كانوا يلاحقون الخطأ اللغوى اكثر من العرب
أنفسهم لحرصهم الشديد على اللغة ، واهمال كل ما هو معقد فيها . وهذا يدحض
قول العلماء أن العرب لم تكن تخلط في اللفظ وان غلطت في المعاني . والحقيقة
أن ما ارتكبه العرب من تحريف الالفاظ لو نسب الى المولدين لحكموا بأنه غلط
قطعا (٢) .

ولو أن المولدين تجرأوا على التخلص من عقدة نقصهم تجاه العرب وألفوا في
التراث اللغوى ، لخلصوا اللغة العربية من الشوائب التي علقت بها ، لا لشيء
الا لان العربي كان يخشى المساس بمقدساتها وثروتها ، ولو كان هذا على
حساب نقائها وصفائها . " فالمولدون اذا ألفوا في اللغة يعدلون ويوثقون " (٣) .

تبسيط اللغة

كان تبسيط اللغة مطلبا من مطالب الشدياق بعد وقوفه على صعوباتها
وعثراتها ، وكان هاجس البحث عن الحقيقة يرافقه . ولكنه كان في ذلك المطلب
يصطدم بعثرات كثيرة أهمها تلك النظرة التي كان ينظر الناس بها الى المؤلف والى
من يحاول مد يده الى التراث اللغوى . وكان هذا يحدث في آن كانت الفجوة
بينهم وبين العلم واسعة وبعيدة المدى ، وأن كانت الهالة المقدسة تحيط
بالأقدمين .

-
- (١) مقدمة الديوان . ص ١٧ - ١٨ .
 - (٢) الجاسوس على القاموس . ص ١٨٢ .
 - (٣) مقدمة الديوان . ص ٢٩ .

ولم يكن الناس ينظرون بعين الاعتبار الى المؤلف أثناء حياته ، بل كانت نظرتهم اليه عدائية أحيانا ، وبخاصة اذا عرف حقيقة ما أراد أن يعرفها غيره ، فيجد أن الناس قد صموا عن سماعها (١) . لذا ، كانت غاية الشدياق حث أهل العربية على تأليف كتاب في اللغة يخفي عن مطالعة غيره ما تقدمه ، ذلك أن فرائد اللغة مشتته في عدة أسفار ، ويصعب على المطالع والباحث من جراء هذا الأمر استيعابها والوقوف عليها ، ولو بحث عنها آناء الليل وأطراف النهار (٢) .

هذا المؤلف الذي يريده الشدياق لأهل اللغة ، يجب أن يكون واضحا ومبسوطا في ترتيبه ، ومشملا على قواعد اللغة الهامة والمبسطة ، تلك القواعد التي لا تخضع لأوهام النحاة والصرفيين (٣) ، والتي تكون جماع آراء اللغة وموثقيها ، لأنه اذا كان " أهل اللغة يبهمون التعريف ، فمن يوضحه سواهم " (٤) .

أما محاسن اللغة فتنقسم الى قسمين ، أحدها يتعلق بطرق التعبير وحسن الاساليب (٥) ، بحيث يكون الاسلوب فيه سهلا ، بينا ، واضحا ، حسنا كل الحسن ، ليس فيه تقديم ولا تأخير ، ولا تسقيد ولا خروج عما تقتضيه البساطة الدلبيعية والتناسق الصناعي ، وبحيث لا يمكن تغييره ولا تبديله ، ويكون قدوة لجميع اللغات . ذلك أن كل لغة حادت عن هذا الاسلوب حكم عليها بأنها خالية من التناسق . وهذا الحسن والبساطة من خصوصيات اللغة العربية ، ولو لم يكن لها غيره لكان كافيا في الحكم بأفضليتها (٦) .

(١) الساق على الساق . ص ٣٥٦ .

(٢) الجاسوس على القاموس . ص ٦٧٣ .

(٣) المصدر نفسه . ص ٥٢١ - ٥٢٢ .

(٤) المصدر نفسه . ص ٥٢٢ .

(٥) (٠٠) وذلك عند ضم الكلام بعضه الى بعض كأن تقول : اني ذهبت أمس الى

فلان لأسأله عن شيء فلم أجده اذ كان غائبا ، فلما حضر أخبر بزيارتي

فتأسف كثيرا فلم يلبث أن جاءني ليعتذر لي عن غيابه فلم يجدني فزاد تأسفه

وتأسفت أنا أيضا (٠٠) .

كثر الرغائب . ج ١ . ص ٢٠٢ .

(٦) كثر الرغائب . ج ١ . ص ٢٠٢ .

الفصل الثالث

فلسفة ارتقاء اللغة عند الشدياق

مقدمة

نشأة اللغة

فلسفة ارتقاء اللغة

النهج

مقدمة

إذا اعتبرنا أحمد فارس الشدياق أحد فقهاء اللغة في القرن التاسع عشر ، فلأنه أتى بنظرية لغوية جديدة - على حد تعبيره - لم يسبقه إليها أحد من قبل .

وهذه النظرية بالنسبة إليه لم تأت عفوا ، بقدر ما أتت نتيجة تفكير عميق وانهماك في كشف العثرات اللغوية . والشدياق حين شمر عن ساعديه للسير في الطريق الصعب غير حافل بما يمكن أن يعترضه فيه من انتقاء المنتقدين واعتراض المترمتين ، إنما فعل ذلك بنفسية الواثق من ذاته ، المتمكن من وضع قدمه ورسوخ باعده في اللغة . وهو قد مهد لنظريته سنوات بادئا بمعظياته على الصعيد المدرسي ، ومنتهايا بصاحب نظرية لغوية في كتابه " سر الليال في القلب والابدال " .

ولم تكن تلك النظرية اللغوية وليدة حب العطاء فقط ، بقدر ما كانت وليدة حبه للغة العربية واخلاصه لتلك اللغة ، بحيث أثاره ما أصابها ، وآلمه ما جنسه الزمن عليها ، وأغاظه تيرم الناس بصعوباتها ، وصراع المجتهدين حول مفرداتها وفعالها .

ان نظرية الشدياق اللغوية هذه ، تأتي مكملة لنقده من ناحية ، وعطاء شخصيا جديدا من ناحية أخرى . هذا من جهته ، أما من الجهة المقابلة ، فقد يكون في دراسة هذه النظرية فائدة هامة تتعلق بلفت النظر إليها من قبل الباحثين اللغويين ومن قبل فقهاء اللغة . هذه النظرية التي تعيد اللغة في منشأها الأول الى حكاية صوت ، الى المناغاة المحاكية للغة ، والى بدء الانسان في تكوين انسانيته ومجتمعته وتفكيره . ومع بدء هذا التكوين تكونت لغته وارتقت تدريجيا مع ارتقائه هو ، ومع تدرجه هو .

وان كان ابن جني الذي سبق الشدياق بعصور قد بنى نظريته اللغوية على الاشتقاق ، وقد أخذ بنظريته الكثيرون من اللغويين ، فان الشدياق ذهب بنظريته الى زمن نشأة اللغة . وبهذا تكون فلسفته اللغوية قائمة على أن اللغة كانت في بدء نشوئها بسيطة ، ويجب أن تبقى هكذا بسيطة ، ولكن متطورة بتطور الحياة ذاتها .

نشأة اللفظة

يرى الشدياق ان معظم اللغة مأخوذة من حكاية صوت أو حكاية صفة .
وحكاية الصوت هذه انما تأتي من المضاعف نحو دق ودق (١) .

١ - حكاية الصوت : وتقرير ذلك ، أن الواضع لما وضع مثلا قد ودق ودق لم يقصد بها في أول الامر ان تكون فعلا ولا اسما ، بل مجرد حكاية صوت توهمه بقطع النظر عن شيء آخر . ومن ثم ، لما وصل دق بفاعله قال دق الرجل ، ولما أراد تخصيصه بأن يكون اسما ، قال دق الرجل . ولهذا كثيرا ما تكون صيغة الاسم والفعل في هذا الباب واحدة .

أيضا ، لا يكاد يأتي ثلاثي حكاية صوت الا وكان مقلوبه وما يجانسه
كذلك (٢) . وربما جاءت مواد متعددة مبدوءة بحرف واحد حكاية أصوات (٣) .

في فلسفة اللغة هذه يكون التلخيص أن اللغة مبنية على مبنى طبيعي سهل ،
أى " الصوت ومدلوله " . والفرق يبدو واضحا ما بين حكاية الصوت وعلم الصوت .
فتحت باب حكاية الصوت ، تكون المحاكاة بصورة عامة ، محاكاة الانسان للطبيعة ،
ثم ابراز مدلول هذه المحاكاة . أما علم الصوت فيدخل في باب اللهجة وتطورها .

من حكاية الصوت تكونت اللغة التي هي الرمز للحاجات والعلاقات الانسانية
والطبيعية . والكلمة لا قيمة لها ان لم تكن رمزا للدلالة على شيء معين . كذلك
المعاني ، فهي نشأت مع نشوء الاصوات ، ونظير ما نحن فيه - على حد قول الشدياق -
ما حكى عن الخليل رحمه الله من أنه واضع اوزان العروض على أصوات سمعها من
مطارق الحدادين (٤) .

-
- (١) (٠٠) فقولهم مثلا همز وححث ان هو في الحقيقة الا همز وححث (ح) .
سر الليال في القلب والابدال . ص ٢٢ .
 - (٢) (٠٠) وذلك نحو دق وقد وقس وقص () .
سر الليال في القلب والابدال . ص ٢٢ .
 - (٣) سر الليال في القلب والابدال . ص ٢٢ .
 - (٤) (٠٠) فتوهم الخليل أن بعضها يحكي دق دق وبعضها دق دق فوزن عليها
مستفعلن (٠٠) .
سر الليال في القلب والابدال . ص ٢٥ .

هذه النظرية في فلسفة اللغة ، تلتقي مع مباحث علماء القرن العشرين في الاصوات والتشكيلات وأبعاد اللغة التي اوصلتهم الى المقارنة بين الحرف الواحد وصفاته ، ومدلوله . فنظرية الشدياق تخضع اللغة للعودة الى جذورها العميقة ، ثم البدء معها على اساس تطور منهجي ينطلق من قاعدة الحاجة اليه (١) .

يرفض الشدياق في هذا ، أن تكون اللغة وحيا ، ويتفق مع ابن جني في كونها بدأت بصورتها السمعية الصوتية ، فنان أصل اللغات كلها الاصوات المسموعة (٢) . في حين أن أئمة اللغة العربية يكادون جميعا يؤكدون أن اللغة الهام وتوقيف محتجين بقوله تعالى : " وعلم آدم الاسماء كلها " .

وعليه ، فالشدياق لم يسلم بفترة الالهام في نشأة اللغات ، بل حاول الوصول الى نتيجة قطعية تمكنه من معرفة الصورة التي بدأ فيها الانسان الكلام . وقد استنتج أن الانسان العربي في صحرائه كان يخضع لمؤثرات طبيعية صافية ، نجددها في قدرته على توقيع كلماته الشعرية التي تعتمد على رهافة الاذن الموسيقية . هذه الطبيعية في اللغة بقيت تتفاعل في ذهنه ، وبقي هو يشدد عليها أثناء نبشه الركام اللغوي ، فتوصل الى الاساس في تكوين اللغة كلغة .

ويعترف الشدياق بأن اللغويين غفلوا عن هذه الملاحظة الطبيعية التي تعتبر من أجل خصوصيات اللغة العربية . " فاللغة كلما كانت مبنية على هذا المبنى الطبيعي كانت للنفس أشوق وبالطبع أعلق " (٣) . ويعترف أيضا بأنه لو لم يكن للغة العرب الا هذا الاسلوب البديع ، فهذا الاسلوب يشهد بأنها ألبعض اللغات وابسطها ، وقد يكفيها هذا فخرا .

مع اهمال اللغويين لهذه الخاصة الفريدة في اللغة العربية ، تراهم يخصصون اللغة بأشياء توجد في كل لغة ، ولا يعيرون هذه العزبة الطبيعية الفريدة فيها ، والتي تعتبر من أجل خصوصياتها اي اهتمام . فالحقيقة انه كلما كانت الالفاظ أقصر وأخصر ، كانت اللغة أفضل والى طبيعتها وعفويتها أقرب (٤) .

(١) . يؤكد الشدياق أن من لم يكن يدري شيئا من لغة العرب ، ثم سمع

مثلا لفظة طنطن ودندن وجلجل ورنم وكان ذا ذوق سليم ، فلا بد وأن

يتوهم أنها حكاية أصوات) . " سرالليال في القلب والابدال . ص ٢٥ " .

(٢) الخصائص لابن جني . ١ / ٤٤ - ٤٥ .

(٣) سرالليال في القلب والابدال . ص ٢٥ .

ولا شك في أن الشدياق كان يعني خلطورة نظريته حين تجاسر على اتخاذ الفعل المضاعف أصلاً . وكان قصده في ذلك التوصل الى معرفة معاني الالفاظ دون المساس بقواعد الصرف التي تخضع لها اللغة . وهذا شيء ذليبي لا يؤدي الى انساد اللغة (١) .

ومثل هذا الرأي للشدياق كان في منتهى الجبرأة ، اذ ان المتعارف عليه حتى اليوم هو أن أصل اللغة العربية واخواتها السامية عموماً هو اللفظة الثلاثية الاحرف ، ولكن بعض الباحثين المعاصرين يوافقونه على هذا الرأي اليوم ، ويرون أن الاصل الاول للغات السامية والحامية هو ثنائي الحروف ، ودلالتهم الى ذلك هي كون بعض الكلمات لا تزال تحمل شهادة على ذلك ، فكلمتي : فعل وقتل في اللغات السامية تقابلها كلمتا فل وقتل في اللغات الكرشية وهما تحملان المعنى نفسه (٢) .

يرد الشدياق اللغة اذا الى الثنائية التي اتخذت في العربية صوراً مختلفة ، مركزاً على الفعل المضاعف كأساس ، لا على مدلول الحرف الصوتي وحده ، على ما ذكره بعض فقهاء اللغة وعلى رأسهم ابن جني .

٢ - حكاية صفة : أما نشأة اللغة عند الشدياق كحكاية صفة فتتلخص في

انها عبارة عن " نظم حروف يتوهم الفاظ منها انها تدل على صفة شيء باعتبار ما في تلك الحروف من اللين والترخيم والشدة " (٣) . وفي هذا قد يحصل التباس ما بين حكاية الصفة هذه وحكاية الصوت ، وذلك من حيث أن الذين تكلموا العربية كانوا قبائل شتى ، فلا يحتمل انهم جميعاً نظروا الى الاشياء بنظر واحد ورأى واحد .

(١) يقول الشدياق (٠٠) اذا راعى العلماء جانب هذا النفع العظيم في جانب ذلك الخلاف العقيم ، فان عليهم أن يستحسنوا عملي أو في الاقل أن يخضوا النظر عن تقبيحه) .

سر الليال في القلب والابدال . ص ٢٢ .

(٢) مدخل الى مقارنة قواعد اللغة السامية وأصواتها وتحولاتها . ساباتينو موسكاتي وآخرون . ١١ : ٥ .

(٣) (٠٠) كقولهم مثلاً شيء منمنم أي مزخرف ، فهو نحو توهم الفرنسيين لفظة ميليم للشيء القليل الوجيه (٠٠) .

سر الليال في القلب والابدال . ص ٣١ .

فهنالك جماعة من القبائل كانت تستعمل الالفاظ في معنى (١) ، وجماعة أخرى تستعمل الالفاظ في معنى مضاد (٢) .

لذا كان الاجتهاد الفقهي عند الشدياق يقتضي العودة الى سر نشأة اللغة ، وتركيز تلك اللغة على جعل المضاعف أصلاً ، وفي محاولة لتجاوز الاجتهادات الفقهية القديمة ، واقامة تحليل للغة اكثر منطقاً وبرهاناً .

فلسفة ارتقاء اللغة

في ارتقاء اللغة ، تكون الثنائية عند الشدياق هي نقطة البدء - كما ذكرنا - وبعدها يكون التدرج الى الثلاثي فالرباعي فالخماسي . وقد رأى أن اللغة من الموضوعات البشرية ، وانها تخضع للتطور والارتقاء بمقدار ما يرتقي الانسان معها ويتطور . وهذه اللغة كغيرها من الدنائع ، لا يحدث شيء منها تاماً كاملاً من أول وهلة ، ولكن على التدرج (٣) .

إذا ، فالارتقاء اللغوي يتحدد بـ :

- الفعل المضاعف
- الفعل الاجوف
- الفعل السالم
- الفعل الناقص

- (١) سر الليال في القلب والابدال . ص ٣٣ .
- (٢) (٠٠) فقد حكى صاحب المصباح عند ذكره شعب من الاضداد عن الخليل انه قال : استعمال الشيء في الضدين من عجائب الكلام ، وقال ابن دريد : ليس هذا من الاضداد وانما هما لغتان لقومين (٠٠) .
- (٣) سر الليال في القلب والابدال . ص ٣٣ .
- (٠٠) والاحرى أن نقول : أن الفعل السالم جاء آخر الافعال ، أما الاجوف فانه يأتي غالباً على عقب المضاعف ، كصر وصرأى صوت وجب وجاب . . . أما الناقص فانه صدى غيره من الافعال ، وكأنه نوع من القطعة لغة لبعض نحو صمر وهمى (٠٠) .
- سر الليال في القلب والابدال . ص ٢٥ - ٢٦ .

أما حكم المزيد على المضاعف فلا يكاد يختلف ، إذ أن المرء قلما يرى نسي
المضاعف معنى الا ورايت في مزيده مثله (١) .

بهذا يكون الشدياق قد خالف الاساس الذي قام عليه المرح اللغوي ، الا
أنه يرى أن النفع الحاصل من هذه المخالفة أعظم بثير من الضرر . إذ أن الغاية
من نظريته اللغوية " الوصول الى علم معاني الالفاظ وحكمة مبنائها " ، وليس مخالفة
ما أجمع عليه الفقهاء اللغويون يجب أن يحسب بدعة (٢) .

ولا شك في أن زيادة حرف على المضاعف أفضل من التفتن في النقص (٣) ،
تبعاً لسلم النشو والارتقاء ، وإذا كان هناك من معترض على أن المضاعف لا يمكنه
أن يستوفي جميع المعاني (٤) ، فيجب الاخذ بعين الاعتبار بأن اللغة بحر
لا يدرك قعره من ناحية ، ويجب التسليم من ناحية ثانية بأن العرب تتعمد مسني
من المعاني ثم تنسق عليه الافعال المتفقة حروف فائها وعينها عليه ، فتارة تقصد
نسبة الى المعقول وتارة أخرى الى المحسوس (٥) .

والخلاصة ، أن اللغة العربية لغة متطورة تخضع لنظام الارتقاء . ويحتمد
هذا النظام نشأة اللغة من المضاعف ثم ارتقاءها . وفي الاحوال الخاصة تتخذ بعض
المعاني صفة الاصل - بحكم التداول - ثم تؤخذ منها الافعال تبعاً لمتطلبات تلك
المعاني .

-
- (١) (٠٠) مثلاً : المضاعف في صرّ يدسج في المزيد صراً ، وفي سلّ يصبح سلب (٠٠) .
سر الليال في القلب والابدال . ص ٢٦ .
- (٢) (٠٠) وقد التزمت أن أزيد على المضاعف المختلفة أفعالها من عدة أوجه ما يظهر
في بادئ الرأي انه منقلب من وجه واحد ليكون الاسلوب مطرداً كما في فثنه
وفدغه وفدخه . فاني جعلت فثغه من فث وفدغه من فدّ . وكل فعل
زيد على الثلاثي فلك ، أن سبغى نيه المتشديد انما قصدت الى المبالغة ، نحو هتد
هتدب وحسّ حسم (٠٠) . " سر الليال في القلب والابدال . ص ٢٢ " .
- (٣) (٠٠) لو جعلت السالم أصلاً لزم العدول عنه من الكمال الى النقصان . والاختصار في
الافعال ليس من مذهب العرب ، كما يدل على ذلك الافعال المزيدة . ودليل آخر
أنهم يشبهون الفتحة في آخر الفعل ، فيتولد منها ألف كما في دحب ودحبي (٠٠) الخ .
سر الليال في القلب والابدال . ص ٢٦ .
- (٤) سر الليال في القلب والابدال . ص ٢٧ .
- (٥) (٠٠) مثال ذلك لفظة كسّ أي دقّ دقاً شديداً ، فقد دباغت منه لفظة الكسيس للخبز
المكسور ، ثم قالت كسأ بمعنى ضرب (٠٠) . سر الليال في القلب والابدال . ص ٢٧ .

النحت

واللغة تتكاثر وتتولد بالنحت لا بالاشتقاق ، على قول الشدياق . وهو تعيما

لهذا يشدد على نظريته التالية " أن النحت طريقة حسنة تكثريها مواد اللغة " (١) .
فاللغة العربية برغم غناها غير تامة ، وبخاصة في العصر الحديث حيث العلم والفن
والتقنية الآلية . وتطور اللغة لمسيرة الحداثة ، يكون بالنحت . وليس سوى
النحت يخني العربية بمفردات جديدة تسد مسد الالفاظ الاعجمية ، وكل الاشياء
الزائدة على ثلاثة حروف في اللغة العربية اكثرها منحوت (٢) .

والنحت الذي أصر عليه الشدياق كبديل عن الاشتقاق (٣) ، لم يعتن به

الفقهاء العرب كثيرا ، بل فضلوا عليه في تخريجات الالفاظ اللغوية الاشتقاق بانواعه
الثلاثة : الصغير ، والكبير ، والاكبر . وقد اعتمدت اللغة اليونانية وسائر اللغات الاخرى
النحت كطريقة تتكاثر بها ، أما اللغة العربية فبقيت تأخذ ما تحتاجه من مصطلحات
من سواها (٤) .

وقد يمكن غض النظر عن المفردات الاعجمية الدخيلة على اللغة العربية اذا

لم يوجد في أصل اللغة ما يرادفها ، أو اذا لم يمكن صوغ ما يماثلها بالنحت .
ولكن مع امكان النحت ، فأى دخيل على اللغة العربية هو امتهان لكرامتها وبخس
لحقها (٥) . ولا شك ، بأن الالفاظ البسيطة في اللغة العربية اكثر من المركبة ،
وهي التي تفضل ، الا اذا احتاج الامر الى النحت ، فحينها يكون اللجوء اليه فيما
يتعلق بالمصطلحات الحديثة (٦) .

(١) كثر الرغائب . ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢) كثر الرغائب في منتخبات الجواب . ج ١ ص ٢٠٣ .

(٣) المصدر نفسه . ج ١ ص ٢٠٠ .

(٤) المصدر نفسه . ج ١ ص ٢٠٥ .

(٥) كثر الرغائب . ج ١ ص ٢٠٣ .

(٦) (٠٠) ان قولنا الجغرافية والفلسفة والجومتريا والجيولوجيا كلها ألقاظ يونانية

منحوتة أو مركبة ، ولولا هذا التركيب لما كان للغة اليونانية فضل على غيرها

بشيء . وهي ان فضلت لغات الافرنج لا تفضل لغتنا (٠٠٠) .

كثر الرغائب . ج ١ ص ٢٠٥ .

الفصل الرابع

الرفض في البيان والبديع

في البيان : الحقيقة والمجاز
الاستعارة والتشبيه

في البديع : ثورة على المقامات
نظرية في السجع

١ - البيان

يشتمل البيان على المجاز والكتاتبة والاستمارة والتورية ٠٠٠ وغير ذلك ،
مما ينيف على مئة نوع (١) . ويقرر الشدياق أنه من الصعب جدا بيان هذه
الامور بصورة مفصلة ، اذ أن التفصيل قد يستغرق أجلا ، وربما * قضى الباحث
عمره في علم الاستعارات وحدها ، ومن ثم يموت وهو جاهلها ٠٠٠ * (٢) .

الحقيقة والمجاز

وأصعب متفرعات علم البيان ، المجاز والحقيقة وكيفية التفريق بينهما ،
ومعرفة فيما اذا كان المجاز عرفيا أم لغويا (٣) ، وما هي درجات المجاز .
فهنالك مجاز ذو درجتين ، ومجاز ذو ثلاث او أربع درجات ، او اكثر من
ذلك بكثير .

(٢٥١) الساق على الساق . ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٣) (٠٠٠) ذلك أن من اخترع هذا العلم الجليل لم يكن سلطانا حتى يمكنه
اجبار الناس جميعا على متابعتة ومشايعتة . بل كان فقيرا فأولع بهذا
الشيء ، وشرح الله صدره لتقرير قواعد له ، فكان لا يقع بضره على شيء
الا وخطر بباله طريقة من طرقه ، فاذا نظر الشمس طالعة قال كيف ينبغي
أن يفهم هنا طلوع الشمس ، هل هو حقيقي أم مجازي ، وهل المجاز
هنا عرفي أو لغوي . وكذا لو رأى السبقل نابتا في زمن الربيع ،
قال كيف تأويل قول القائل أنبت الربيع السبقل . فهل يصح اسناد ذلك
الى الربيع وهو انما نشأ عن دوران الارض حول الشمس فهو ولا شك ،
مسبب عنها . ولا ريب أن مدير الارض انما هو الله عز وجل ،
فيكون قوله أنبت الربيع السبقل مجازا بدرجتين ، لان الربيع
مسبب عن دوران الارض ، ودوران الارض مسبب عن تقدير الباري
تعالى ٠٠٠ ومن المجاز ماله أيضا ثلاث درجات ، ومنه ما له
أربع ٠٠ ومنه ما تفوق درجاته درج الأذننة ، ومن هذا الدرج
ما شكله قرقي ومنه حلزوني ولولبي ٠٠ الخ) .
الساق على الساق . ص ١٣٠ - ١٣١ .

الاستعارة والتشبيه

- الاستعارة من المجاز ، وعلماء البيان كبلوا اللغة بأنواعها وأشكالها .
- فهم يقسمون الاستعارة الى تبعية وترشيحية ، والى تصریحية ومكنیة .
- والاستعارة المصرح بها تنقسم الى قطعية واحتمالية ، والقطعية تنقسم الى تخيلية وتحقیقية ، وهي أيضا تنفرع الى أصلية وتبعیة والى مجردة ومرشحة . الخ (١) .

والسؤال عند التدياق ، لماذا يضيع أرباب فن الانشاء وقتهم بهذه الاستعارات والتشبيهات ؟ " ان العالم الحقيقي يتأتى له أن يبدى علمه بعبارة واحدة " (٢) . اذا كانت هذه العبارة رشیقة اللفظ بلیغة المعنى .

والسؤال الثاني ، لماذا يلوك علماء اللغة والبيان اليوم ما قاله فلان عن فلان منذ الف ومائتي سنة ؟ ولماذا سرى هذا الداء الى جميع الكتاب ؟ (٣) .

(١) الساق على الساق . ص ١٢١ .

(٢) المصدر نفسه . ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٣) المصدر نفسه . ص ٢٥٣ .

٢ - في البديع

الجمالية اللغوية عند الشدياق تختلف عن سواه . فاللغة يجب أن تكون فعلا ،
وعملا وتأديسة ، أي مكتسبة درجة الدلوعية المثلى للتعبير عن الحاجات
الانسانية . في ذلك ، يبتعد عن اعتبار اللغة فنا قائما بذاته يحرص على الزخارف ،
ويجري وراء أساليب البيان .

وفي التفريق بين لغتين نقع على : - لغة الحياة
- ولغة الابداع المنطلقة من نظرية
الـفن للفن .

وفي العمل اللغوي دعوة صريحة للبعد عن الزخارف اللفظية . كما أن علي
المؤلف الذي يريد أن يؤلف كتابا في موضوع ما ، الاعتماد عن التتميق اللفظي ،
وعن الاسجاع المبتذلة ، وعليه ألا يتناول الى استعارات باردة وتشبيهات جامدة (١) .
فليس المهم اللفظ وفن التأديسة ، وإنما المهم المعنى .

ثورة على المقامات

وفي ثورة الشدياق على اللغة كأداة ترصيع وزخرفة ، يتعرض فيما
يتعرض له لاصحاب المقامات ومن سار على خطاهم في العصور العباسية المتأخرة ،
وفي الفترة التمهيدية لعصر النهضة . فشان هؤلاء في اللغة هو الزخرفة والتسجيع
والتتميق اللفظي ، لدرجة أصبح للبديع معها مدرسة خاصة به ، وصار مقاياسا
ذوقيا لكل من أراد أن يكتب حرفا . ولكن التجربة أثبتت أن هذه المحسنات التي
تهور فيها أصحاب المقامات ومن هذا حذوهم ، كثيرا ما تشغل القارئ بظواهر
اللفظ عن النظر في باطن المعنى (٢) .

(١) الساق على الساق . ص ٢٦٤ .

(٢) يقول الشدياق : (٠٠ أفليس تأليف كتاب في اللغة بأولى من تأليف المقامات التي
وصف بها الازهار والفاكهة ، وأم الله أن استفادة كلمة واحدة من كلام العرب
ثم افادتها أحب الي من الرتوع في روضة زاهرة ناضرة فيها شجر تحمل كل
فاكهة (٠٠٠) .

الجاسوس على القاموس . ص ٥٢١ - ٥٢٢ .

نظريّة في السجع

في اطار جمالية اللّنة ، يشكل السجع عند الشدياق جانباً هاماً من جوانب الاطار الادبي . وهذا السجع عنده أتى متطوراً وجديداً ، لا مقلداً ومتحجراً . والتطور والتجديد في سجعه نبعا من حبسه له وولعه به ، فوضع من أجله قواعد يجب أن تتبع اذا ما أراد الاديب المحافظة على جمالية اللّغة . وقد رفض سجع أقطاب النثر من الاقدمين كالصابي وابن العميد وابن عباد (١) .

تركز الجمالية في السجع في التمكن من أسراره . فالسرفيه هو أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير الذي اشتملت عليه أختها ، فان كان المعنى فيهما سواءً فذلك هو التطويل بعينه (٢) .

أما شروط السجع فتظهر في حسن اختيار مفردات الالفاظ ، وفي حسن تنسيق تلك الالفاظ ، ومن ثم يجب أن يكون اللفظ في الكلام المسجوع تابعا للمعنى ، لا المعنى تابعا للفظ . وأخيرا ، يجب عدم تكرار المعنى في الفقرتين المسجوعتين . فغاية السجع ليست الاغراق في المحسنات اللفظية ، بل هي اظهار المعنى من خلال جمالية اللفظ (٣) .

وأحسن السجع ما كان مؤلفا من لفظتين لفظتين ، فاذا ما تعدى ذلك الثلاثة او الاربعة ألفاظ ، صار من السجع الطويل وغير المضبوط . والمثال في السجع لغة القرآن الكريم ، والجمالية الاسلوبية يجب أن تنحصر في مواضع معينة ، وبعد تمكن . ففي حقل التأليف يكون "الاسلوب المسجع للمؤلف كالرجل من خشب للماشي ، وعليه عدم التوكؤ عليها" طالما أنه صحيح الجسم (٤) .

وهكذا يكون الرفض البياني عند الشدياق نتيجة مناخ عقلي نصل بواسطته بين اللّغة كوسيلة تعبير ، وبين اللّغة كأداة ترصيع . فالترف في الزخرفة الذي ساد عصرنا ما ، لم يعد مستساغا . وكل من توكأ عليه كان عاجزا أمام البساطة .

x x x

(٢٦١) سر اللّيال في القلب والابدال . ص ٥٢٣ - ٥٢٤ .

(٣) المصدر نفسه . ص ٥٢٤ .

(٤) الساق على الساق . ص ٨٢ .

الفصل الخامس

الرفض الشعرى

مقدمة

الضرورات الشعرية

الشعر والذوق

الملكة الشعرية

الشعر والسجع

أما الشعر ، فيبقى للشدياق معه قصة يرويها لنا في مقدمة ديوانه الذي لم ير نور البياضة ، مع أن عدد أبياته بلغ اثنين وعشرين الذي بيت (١) . ولو شاء لهذا الديوان أن يطلع ، لاتي الينا تحت اسم " المغنى في كل معنى " (٢) . والشدياق في شعره لا يخرج عن كونه شاعرا من الشعراء التقليديين (٣) ، يلترق موضوعاتهم ويسير على نهجهم . وهو في ذلك ، لم يترك فنا من فنونهم الا وولج فيه ، تبعا للمناسبات التي كانت تحتم عليه مثل تلك الموضوعات . والشدياق في هذا ، هجا ، ورثى ، ووصف ، ومدح ، وداعب ، وكان ماجنا . كما انه اغتم المناسبات ، فشكر وهنأ ، وقدم التعزية . وهو أيضا ، لما ضاقت به السبل ، وذاق مرارة العيش ، نثم الدنيا وشكا الزمان . ونحن معه نمر بالمتبني ، وابن الرومي ، وابي نواس وسواهم . والخطرات الشعرية هذه كانت تلح عليه منذ كان طفلا ، وتجرا بعفوية الواثق من نفسه على مداومة ميدان النظم ، فأجاد .

ومع كل هذا ، فالشدياق الشاعر يأتي في المرتبة الثانية بعد الشدياق الناصر . وان حرفة النظم عنده وان نعت عن موهبة ، الا أنه لم يكن يعنىها ، ولم يكن يهيمه أن يكون شاعرا ، بقدر ما كان همه أن يكون ناثرا فذا الاسلوب . ولربما جاء هذا نتيجة ضيق ميدان الشعر عن استيعاب التطلعات الفكرية الانسانية ، وتأكد الشدياق من أن الشعر ليس اكثر من جمال يسعى اليه الناظم على سبيل النزهة النفسية ، وعلى سبيل التعبير عن أحاسيس الجمال والمشاعر القلبية ، على اختلاف تلك المشاعر وترجمتها .

(١) مشاهير الشرق - جرجي زيدان . ج ٢ ص ٨٢ ، وتاريخ الصحافة العربية .
لـ فيليب دي طرازي . ج ١ ص ٦٦ ، وفارس الشدياق . لبولس مسعد .
ص ٤٥ .

(٢) دائرة المعارف القديمة - البستاني . ج ١٠ ص ٤٢٠ . ومقدمة الديوان
موجودة في المكتبة الشرقية تحت رقم
161 F 6 Doss. 6

(٣) مجموعة قصائده موجودة في الجزء الثالث من " كثر الرغائب في منتخبات الجوائب " وفي كتاب " الساق على الساق " بصورة متفرقات .

وقد عبّر الشدياق عن مشاعره هذه تجاه حرفة النظم ، في تفضيله السبع عليه كأداة جمال وإيقاع نشري . وان تصرّفنا لاهتمامات الشدياق الشعرية هو من زاوية اعتباره ناقدا ورائضا أكثر منه شاعرا . ذلك أن الشدياق الشاعر هو غير الشدياق الناقد . وهو مع الشعر كان أمام واقع مفروض عليه . لقد اراده متحررا من قيود المناسبات ، ومن الأساليب القديمة والرواسم المتوارثة منذ الجاهلية . ولسكن ارادته وقفت عند حد مؤلم ، وإذا به في هذا الوقوف يقول الشعر كثيره ، وان كان قد استلج طبعه بدابحه الخاص المتحرر والمتهمك .

أما مع النقد والرفض ، فكان الشدياق مختلفا . كان أمره مع النقد الشعري كما كان في النشر ، كأنه في محكمة وقد اتخذ فيها صفة الادعاء الشخذي . وكما كان داخل القوس كالتقاضي المتجرد من كل شيء الا من نعمة العدالة . وان أحكامه التي أصدرها ، وان أفسحت مجالا للنقاش حولها ، الا انها تبقى بالنسبة اليه معطيات نقدية ذات أهمية . فالنقد عنده استند على البراهين ، وانطلق من المنطق الذي فرضه الواقع الشعري في القرن التاسع عشر ، والذي كان مسبوبا في قالب رث من الركائز وقساوة الالفاظ .

وحكاية الشدياق مع الشعر ومع نقده تبدأ منذ فترة الصبا (١) ، فهو

(١) (٠٠) يقول الشدياق : اني كنت في زمن الصبي مولعا بأربعة أشياء ، أحدها فن الموسيقى ، فكان حزلي منه النخ في القصب في الآلة المسروقة عند أهل الشام بالكرفت والحزف والنبور . والثاني ، تجويد الخط ، فكنت كلما رأيت خطا حسنا أقبلت على محاكاته . والثالث ، النظر في الكلام ، فكنت اذا قرأت شعرا مثلا ، حاولت أن أبدل لفظا منه بلفظ آخر . والرابع ، النظم ، مع أن سني اذ ذاك لم تزد على ثلاث عشرة سنة ، ولم اكن اعرف شيئا من النحو . فما قلته في ست صغيرة كنت أعلمها القراءة :

بروحي من أعلمه وقلبي أسير هواه لا يستطيع صبرا
أغار عليه من حروف يفوه بها فتلثم منه ثغرا)

كموسيقى ، وخطاط ، وباحث عن الكلمة الجميلة ، وكانسان تمتع بالحس الجمالي منذ طفولته ، وبالحس الفني مع عبوره أولى درجات الثقافة والعلم ، فسرق ميدان النقد الشعري من ممالك جمالي ناصح ، وكان عَلمه نابعا من ذاتية متفوقة في ادراك الدقائق من الامور ، مما ينفوت اى انسان عادى ، او اكثر من عادى .

ابتدأت العملية النقدية الشعرية عند الشدياق في سن مبكرة . والريقة كانت تقوم على قراءة الشعر ، ثم ابدال لفظة لا تثير احساسه بلفظة اخرى تكون اكثر انسجاما مع حسه وذوقه . ولا شك في أن عملية الابدال هذه ، تتلبد منه أن يختار الكلمة المناسبة للمعنى البسيطة في التركيب والملائمة لتوازن ، وانطلاقا من سلطان الاحساس عنده (١) .

(١) (٠٠) يقول الشدياق : وكنت أتصدى لنظم كل ما يخطر ببالي من المعاني غيراني كنت أشعر بأن بضاعتي فيه مزجاة . لاني كنت أجد في الكتب من الالفاظ اللغوية ما لم أدرك معناه ، فلم يكن ما أدركته منها كافيا لصوغ المعاني التي اريدها ، الى أن تدر الله تعالى سفرى الى مصر ، فتعرفت اولا في القاهرة بالاديب البارح الجدير بالثناء الخواجه نصرالله الحلبي ، وكان كثير الحفظ والرواية ، ثم كان من حظي أن تعرفت ببعض أدباء المدينة ، وكان أرسخهم في اللغة والطفهم عبارة في النظم والنثر الشيخ محمد شهاب الدين ، فلازمته واستندت منه فوائد جملة في اللغة والادب . وكان وجود الشعراء في القاهرة وقتئذ كوجود الكتب في القلة ، بخلاف ما هو مشاهد اليوم . فطابت نفسي ، لكسني كنت أرى من كلامهم ما يحوج الى مراجعة كتب اللغة ، فاشترت صحاح الجوهرى مع بذل الجهد ، فوجدته غير كاف ، لانه اقتصر على الفصح من كلام العرب ، وكلام شعراء العصر فيه غير ذلك . فازددت حيرة ، فكنت مرة أرغب في النظم ، وذلك حين تاضع علي المعاني ، ومرة أرغب عنه لخلو الصحاح من غير الفصح (٠٠) .

مقدمة الديوان . ص ٣ - ٤ .

هناك نجد بنا التنبه الى أن المشببات لهمة الشدياق في ميدان الشعر والنقد كانت كثيرة ومتنوعة . فالشعر في زمنه كان يردد البناء على الالال وتذكر الاحبة ، وكان أصحابه شعراء بادية وابل وشياه . وكان المؤرخون لعصر النهضة الادبي يرون أن "محمود ساي البارودي" حجر الاساس في عطية اخراج الشعر العربي من أفقه الضيق الى ميدانه الواسع ، ويعتبرونه الممهّد لـ"لجبي" أحمد شوقي رحافاً ابراهيم خليل مطران وسام فيما بعد . في هذا يمكن أن ندرك الى أي حد كانت سوق الشعر التي أراد الشدياق خوض ميدانها مضطربة في المركز الثقافي العربي الاول آنذاك .

من ناحية أخرى ، وجد الشدياق نفسه أنه واقع في أزمة كلامية تعود الى ما رآه في "صحاح الجوهري" الذي حصل عليه مع بذل الجهد . فقد وجد أن هناك فرقا ما بين الفصح من كلام العرب وبين كلام شعراء العصر ، وهذا ما كان يخله في النظم حين كانت الممانى تزدهم عليه ، والالفاظ تفر منه . وبخاصة أن الشدياق لم تفته معرفة أن ما يصلح للشعر من كلام لا يصلح لسواه . وأن اسلوب الشعر يخضع لقواعد يرغم عليها الشعر بارادة او بدونها . من هنا ، ربما كان دخوله ميدان الشعر نوعا من التحدى للاقدمين رافقه طوال حياته ، وقد أقسم مرة بأنه لم يتعمد السرقة من كلام غيره ، وأن جميع ما نظمته كان من اجتهاده الخاص .

وسواءً هنا ، أخذ عن الاقدمين في شعره أم لم يأخذ ، فهذا الاقرار لن يغير من قيمة الرنض عنده . والشدياق ان كلن في النظم شاعرا مقلدا ، فهو في النقد مجددا ورائضا . الا أن هذا التجديد بقي عند حدود

النقد النظري التي لم يتعدّها الى التلخيص (١) .

من هنا ، يمكن الدخول الى ما ساعد الشدياق على اعطاء التثويم النقدي الشعري . فمن خلال اطلاعه قدر الاستطاعة على شعر الاقدمين وضع يده على بعض الادواء الشعرية بذلك الحسن الفني المرفه ، والذي قام على ذوق حسنة الشاعر الدقيقة ، اكثر مما قام على خوض غمار الشعر . انه كأديب رانسف من القرن التاسع عشر ، أراد أن يكون له رأى في الشعر أيضا ، وقد كان .

(١) يقول الشدياق : (. . . فهناك سبب آخر حملني على الزهد في النظم وهو قراءة المشاهير من الشعراء كالمصنعي وأمثاله ، فانما كانت تصغر نفسي التي وتحملني على القنوط من الوصول الى ما وصلوا اليه من اختراع المعاني واختيار الالفاظ وسبك العبارة ، ومن ثم كنت قليل المتابعة لكلامهم . على أن اقتناء دواوين هؤلاء الفحول كان في أيامي متعذرا جدا لندرة الكتب كما تقدم ، فقلما كان يعرض للبيع الا ما كان محرفا او ناقصا . ولهذا أقسم بالله اني لم اتعمد سرقة شيء من كلام غيره ، بل كل ما نظمته كان من اجتهادي واعمال فكري والتي هذا أشكرت بقولي :

شعري كلام مفدح عما أحسن وافكر
ما فيه مجتلب ولا مسروق معنى ينذر
لكن لعلي فيه مسبوق ولم أك أشعر
ان اتفاق خواطر الشعراء لا يستنكر .)

مقدمة الديوان . ص ٤ .

الضرورات الشعرية

لم يفصل الشدياق في نقده للشعر النظم عن اللنة ، ولا النظم عن الكلمة والمعنى . فالبساطة التي أرادها أن تسود النثر ، هي نفسها البساطة التي رغب في أن تكون في الشعر . ولكن باعتبار أن صحة الشعر في عرف القدماء والمعاصرين للشدياق تقوم على الاوزان والقوافي ، كانت النتيجة أما أخضع الكلام للنظم وقوانينه . ولا شك في أن التقيد بهيكل القصيدة وبأوزانها وقوافيها وبتدرج معانيها وأفكارها ، هو بمثابة الكابوس الذي يجم على صدر ذي الموهبة . وهذا التقيد يجعله في أحيان كثيرة يلجأ الى ضرورات تد تسيء الى الشعر وتختقه من بوتقته .

وليس هناك ما هو أكثر إيذاءً للشعر من ارتكاب الضرورات . لذا كان من الواجب تجنبها ، وتجنب ما هو مستساغ منها (١) . وكل من ارتكب الضرورات من الشعراء كان ذلك منه بسبب إهماله وانراطه وانتهاكه حرمت اللنة . فاللفظة واسعة وأساليب التعبير فيها متعددة ، والمتضلع في اللغة يمكنه أن يجد لفظاً مكان لفظ آخر (٢) .

والضرورات وقعت في كلام العرب العاربة ، كما وقعت في كلام سواهم . ومنشأ هذه الضرورات عند العرب العاربة أنهم كانوا يقولون الشعر ارتجالاً . والمثال على ذلك ، زهير بن أبي سلمى ، الذي ارتكب في رأى الشدياق أفحش الضرورات ، مع أنه كان ينظم القصيدة في أربعة اشهر ويتقحها في أربعة ، ثم يعرضها على الفصحاء في أربعة أيضاً (٣) . ولو كان زهير ينقح شعره فصلاً ، لما وقع في مأزق ارتكاب الضرورات في قصيدته المشهورة : " أمن أم أوفى دمنة لم تكلم " .

-
- (١) (٠٠) فأنا تجنبت ما يعد سائفاً من الضرورات كقتصر الممدود مثلاً . فلم استعمله الا اذا وقع قافية ، وخلاف ذلك نادر جداً . أما اذا اتصل بضمير فلا أسوغه أصلاً ، فلا يقال اولياكم في اولياكم (٠٠) .
- مقدمة الديوان . ص ٥ .
- (٢) مقدمة الديوان . ص ٥ .
- (٣) (٠٠) في رواية أخرى ، انه كان ينظم القصيدة في ليلة وينقحها في حول (٠٠) .

والشعراء ارتكبوا الضرورات لفة ولفظا (١) . ومن العيوب التي حملوها
الشعراء السناد ، والاكفاء ، والاقواء (٢) . وهذا يؤكد أن العرب تنطق نسي
اللفظ كما تظن في المعنى (٣) . أما الخلط في المعنى ، فيعتبر من قبيل
الخلط اللفظي (٤) .

والشدياق يفرق بين العرب البائدة والعرب الحاربة . فاذا كانت
الاخيرة قد ارتكبت الضرورات الشعرية ، بالرغم من سليقتها وفادرتها ، فهل ارتكبت
العرب البائدة مثل هذه الضرورات أيضا ؟

من سوء الحظ ، كما يقول الشدياق ، أن المؤرخين تعرضوا لذكر شعر
من الام التي انقرضت ، ولم يذكروا شيئا عن العرب البائدة بدعوى أن أخبارهم
لم تصل اليهم (٥) . وهذا القول غريب جدا في رأي الشدياق . ومن الممكن
أن يكون المتأخرون قد أساءوا الى الشعر اكثر من المتقدمين .

-
- (١) (من الضرورات القبيحة التي رويت عن العرب قول بعضهم :
واشرب الماء ما بي نحوه عطش
الا لان عيونهم سال واديها .
فانه ستن ماء الضمير من عيونهم . وكان يمكنه ان يقول :
الا لأجل عيون سال واديها) .
مقدمة الديوان . ص ١١ - ١٢ .
- (٢) السناد : هو اختلاف حركة الراءين . الاكفاء : وهو تعريف القاموس ،
المخالفة بين اعراب القواني وهجائها . الاقواء : والافساد في آخر البيت ،
وهو أن يخالف بين توافيه ، بعضها ميم وبعضها نون .
مقدمة الديوان . ص ١١ - ١٢ .
- (٣) مقدمة الديوان . ص ١٣ .
- (٤) (. . . نأما غداهم في المعنى - أي العرب - فذكروا منه عدة أمثلة ، اكثرها
عندى من قبيل الخلط اللفظي ، فنن ذلك قولهم :
سأمنعها أو سوف أوصل أمرها
الى ملك أذلانسه لم تشفق .
فجعلوا للملك أدلانا كالشور) . مقدمة الديوان . ص ١٤ .
- (٥) مقدمة الديوان . ص ١٤ .

الشعر والذوق

لم تكن الضرورات فقط هي التي تسيء الى جمالية الشعر وتقلل من قيمته .
فهناك قضية الذوق في الشعر التي تتجاوز كل قواعد الشعر ونظمه . وقد تعرض
الشدياق فيما تعرض له الى الذوقية في الشعر للباهلي . وانتقد شراح المعلقات
الذين اتوا على شرحها ، وغضوا النظر عما قد يخالف الذوق فيها ، كما هو الامر
في معلقة زهير بن ابي سلمى (١) .

يرفض الشدياق الاحتمال الاعتبارية في الشعر . فالحكم في الشعر موكل الى
الذوق ، والذوق بدوره يختلف باختلاف الطباع (٢) . ولا يمكن لاي ناقد ممن
أهل الادب أن يقول بأن هذا البيت من الشعر هو أفضل الابيات في موضوع مسا ،
لان الحكم الحقيقي لا يصح الا باستقراء جميع كلام العرب . وعلى من أخذ على عاتقه
النقد أن يكون مستقفا ثقافة شعرية ، وأن تماشي تلك الثقافة الشعرية الذوق .

من بعض مفاهيم الشدياق الذوقية في الشعر :

- أجمل القوافي ما كان منصوبا ، نحو قليلا ولؤلؤا وبشيرا ونذيرا . . الخ .
- رفض القوافي المتصلة بضمير المذكر ساكنا ، والقوافي المقصورة ، ورفض
الميم الساكنة في العظم والرحوم ، وتائية ابن الفارض . .
- تكرار القوافي في قصائد مختلفة ، وان كانت من بحر واحد .
- تكرار المعاني ولكن دون اعادة اللفظ .
- تضمين كلامه غيره بحيث يشير اليه ، الا اذا كان مشهورا شهرة تمنع
من نسبة الانتحال اليه .

(١) قال زهير : وأن سفاه الشيخ لا حلم بعده وأن الفتى بعد السناهة يحلم .
وكان عليه أن يقول : . . . أن الفتى ان يسفه اليوم يحلم . .
وقال أيضا : سألنا نأعليتم وعدنسا ومن أكثر التسأل يوما سيحرم
وكان عليه ان يقول : ومن يكشر التسأل في الناس يحرم . .
والمستغرب أن القاضي الزوزني شارح المعلقات لم يقل شيئا في عديسن
البيتين (٠٠) . مقدمة الديوان . ص ٥ .

(٢) مقدمة الديوان . ص ١٨ - ١٩ .

• عدم الاكثار من الالفاظ المطلع عليها في العلوم ، فان الشعر علم مستقل بنفسه وانما يسوغ ذلك اذا اقترن بتورية ونحوها (١) .

ويفصل الشدياق ما بين اللغة الصحيحة والذوق . فربما كان الشاعر الذي يرتكب ما يخل بالذوق أعلم أهل زمانه باللغة ويكلم العرب . اذ أن من الاخلال بالذوق ، أن يبدأ الشاعر اليوم قصيدته بالتشبيب بالمرأة ، ثم يذكر اوقات الوصال وتقلب الايام والاحوال ، ثم ينتقل الى الغزل بذكره ، وبعدها الى وصف المنسرة ومجالس الانس والطرب . . أو أن يقف على الادللال ويبيكي ويندب (٢) .

مع هذا ، فالذوق سجية راسخة عند العرب الاولين ، اولئك الذين لم تصتلم ثقافة ولا علم . وقد ساغ ذلك الذوق وحسنه ، من حيث أن حياة القدماء تانست تتطلب الفراق والنبأ اثر الرحيل والتقل . أما اليوم فالعرب أصبحت تسكن المدن ولا تفارقها ، وبالتالي فقد تخير الذوق ، لذلك لم يعد لذكر الملول معنى (٣) .

ولا شك في أن الذوق يختلف من شخص الى آخر ، وليس هو بشيء عام مفروض بقوة التقليد . " فبعض العرب يفتض ابدكار المعاني ليس بطريقة عاصمة يستحسنها كل أديب ، وربما عدّه بعض الادباء حسنا وعدّه البعض الاخر غشنا " (٤) . وفي هذا ، لا يمكن وضع حد معلوم للذوق ، وانما يمكن التقرب منه بسلامة النطبع وسلامة السجية ، وهذا ما يجب أن يتنبه له الشعراء للمناصرون (٥) .

(١) مقدمة الديوان . ص ٢١ .

(٢) الجوائب . عدد ٢٨٢ . السنة التاسعة . تاريخ ٦ نيسان ١٨٦٦ .

ومنتخبات الجوائب . ج ١ ص ١٤٠ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) المصدر نفسه .

الملكية الشعرية

- الشعر ملكة يقتدر بها الانسان على تصوير معان في الفاظ مناسبة (١)
- وأحسن الشعر ما جاء عن عوس أى عن السليقة لا بالتكلف (٢) • وكل شاعر تكلف النظم في كل ما لاح له ، فعليه ترك ذلك (٣) •

ان الشعر - في رأى الشدياق - يشبه الجمال في كونه لا يحد ولا يحرف ولا يكيف ولا يوصف ، فان هو الا سرّ بودعه الله في قلب من يشاء من عباده (٤) • والشاعر ان لم تكن لديه الموهبة الطبيعية لقول الشعر ، قلما ينبغ • وهو ان ينبغ في اجادة القوافي ، فلن ينبغ في سكب المعاني •

- ويفرق الشدياق ما بين صاحب الدليع الشعري ، وصاحب الدليع الفلسفي • فالاول معرض دائما للتأثر بالحوادث الكونية ، ومعرض للقلق والوساوس والمعاناة ، وجميعها تابعة من طبعه الموهب والشاعري • أما الثاني ، فموطن نفسه على كسل ما يعرض ويترزل لديه ، فلا يتأثر بالكوارث ولا تزعزعه المصائب ، بل يبقى كالبلود الراسخ يخضع كل شيء لحكم العقل والمنطق (٥) •

- وقد كان للعرب غالبا الدليع الشعري كما تدل عليهم قصائدهم (٦) • ومن المستحسن عند الشاعر المحدث الا يطرُق ميدان الشعر الا اذا كان ذا دليع شعري راسخ ، حتى لا يقع في تخريجات النظم والقوافي لمجرد التقليد • فالشعر معنى قبل أن يكون وزنا •

-
- (١) مقدمة الديوان • ص ١٨ - ١٩ •
 - (٢) الساق على الساق • ص ٣٥٢ •
 - (٣) المصدر نفسه • ص ٣٥٢ •
 - (٤) مقدمة الديوان • ص ١٨ - ١٩ •
 - (٥) الجواب • عدد ٦٠٥ • السنة ١٢ • تاريخ ٢ تشرين الاول ١٨٧٢ •
 - (٦) الجواب • عدد ٦٠٥ •

السجع بدليل الشبر

ربط الشدياق الشعر بالجمال ، وجعل له وجودا متحررا لا يفتخ فيه السى قيد ينفذ على معانيه وألفاله . والذي يجعل الشعر جميلا متحررا من الضرورات ومن السيوب ، ومن القافية الواحدة والنمط الواحد ، هو السجع . فالسجع يمكنه أن يكسر طوق القصيدة المداولة على نمط واحد وفي أزمته متعددة ، وسواءً أكانت تلك القصيدة قد خضعت لبعض الجديد على أيدي المولدين ، أم حافظت على نظمتها الأصل على يد المحافظين من الشعراء العرب .

وإذا نحن لم نخلق بعيدا في الخيال ، يكون الشدياق أول من اقترب من نمط الشعر الحديث بالسجع . فالشعر الحديث اليوم لا يتقيد بشكل القصيدة التقليدية ، وهو ينطلق الى تنويع القافية او تخيير الأوزان . ومن هنا ، تكون حرية هذا الشعر الحديث قسرية من حرية السجع الذي دعا اليه الشدياق ليحرر الشعر من ارتكباته وضروراته وقيوده . وبمعنى آخر ، يكون المقطع الواحد من الأسلوب المسجع قادرا على أن يحل محل الشطر من البيت الشعري . وفي هذا يستطيع الشاعر أن يملأ هذه المقاطع بما يشاء من أفكار ، دون أن تضلّه قيود البحور الستة عشر او التزامات القافية .

ولم يفضل الناس الشعر على السجع الا لأنه موزون مما يسهل حفظه ، وفي وقت لم يكن فيه التدوين منتشرا ، ولدرجة جاء معها اكثر أمثال العرب بشكل موزون (١) ، في حين أن هذا الالتزام بالوزن يشين طريقة التعبير . ومهما يكن للشعر من مزايا ، فلا ينبغي تفضيله على السجع تفضيلا مالمقا (٢) . فالسجع لا يسوغ فيه الاقتضاب بخلاف الشعر ، والسجع يلائم على التعبير اكثر من الشعر . والشعر فستح بابا للضرورات المخالفة لقواعد الحربية والجحفة بأصول اللغة ، ومراعاة اللغة مقدمة على كل شيء (٣) .

-
- (١) مقدمة الديوان . ص ٢٢ .
 - (٢) المصدر نفسه . ص ٢٦ .
 - (٣) المصدر نفسه . ص ٢٦ .

خاتمة

فهرس المصادر والمراجع

المؤلف	الكتاب	مكان وتاريخ الطبع
الاسير يوسف :	رد الشهم للشهم	الاستانة ١٢٩١ هـ
الباشا الخورى قسطنطين :	مذكرات تاريخية (جمعها)	حريصا - لا ت
بالمرو روبرت ٠/٠ :	تاريخ العالم الحديث (ترجمة الدكتور محمود حسين الامين)	الموصل ١٩٦٤
البستاني بطرس :	قصة اسعد الشدياق	بيروت ١٨٦٠ و ١٨٧٨
البندادى اسماعيل باشا :	هدية العارفين	استامبول ١٩٥١
خلف الله احمد محمد :	احمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والادبية	القاهرة ١٩٥٥
الدبس المطران يوسف :	تاريخ سورية - المجلد الثامن	بيروت ١٩٠٥
راندال حبون هرمان :	تكوين العقل الحديث (ترجمة الدكتور جورج طعمة)	بيروت ١٩٥٥
الزكلي خير الدين :	الاعلام ج ١	لا ت
زيدان جرجسي :	بناة النهضة العربية	القاهرة ١٩٥٨
" "	تاريخ اداب اللغة العربية ج ٤	مصر ١٩١٤
" "	مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ج ٢	مصر ١٩١١
سركيس يوسف النيان :	معجم المصطلحات العربية والمعربة	مصر ١٩٢٨
السندوبي حسن :	اعيان البيان	مصر ١٩١٤
شبلبي انطونيوس :	الشدياق واليازجي	١٩٥٠
الشدياق احمد فارس :	البناموس على القاموس	القسطنطينية ١٢٩٩ هـ
" "	الساق على الساق فيما هو السفاريات	بيروت - منشورات دار مكتبة الحياة لا ت
" "	سرالنيال في القلب والابدال	الاستانة ١٢٨٤ هـ

- الشدياق احمد فارس : شرح طبائع الحيوان ج ١ مالمطة ١٨٤١ م .
- الشدياق احمد فارس : غنية الطالب ومنية الراغب : في النحو والصرف . الاستانة ١٢٨٨ هـ .
- الشدياق احمد فارس : كشف المخبا في فنون اوروا مطبوع مع الوساطة الى معرفة مالمطة .
- الشدياق احمد فارس : اللفيف في كل معنى لطريف القسطنطينية ١٢٩٩ هـ .
- الشدياق احمد فارس : مقدمة ديوان شعر . لا ت .
- الشدياق احمد فارس : الوساطة الى معرفة مالمطة تونس ١٢٨٣ هـ .
وكشف المخبا عن فنون اوروا
- الشدياق سلم فارس : كثر الرغائب في منتخبات الجوائب الاستانة ١٢٨٨ - ١٢٩٨ هـ .
- الشدياق طنوس : اخبار الاعيان في جبل لبنان بيروت ١٨٥٩
- الشهابي الامير حيدر : تاريخ احمد باشا الجزائر ، بيروت ١٩٥٥
- شهابيوس بنده خليفه . سره الاب انطونيوس شبلي والاب غناطيوس بنده خليفه .
- لبنان في عهد الامراء الشهابيين بيروت ١٩٦٩
- المعروف بالغرر الحسان في اخبار ابناء الزمان (تحقيق فواد افرام البستاني واسد رستم) .
- شيخو لوييس : الاداب العربية في القرن التاسع بيروت ١٩٢٤
- عشر ج ٢ .
- المخطوطات العربية للمكتبة النصرانية بيروت ١٩٢٤
- صفيير يوسس : مجالي الغرر لكتاب القرن التاسع عشر بعيدا ١٨٩٨
- طرازي الفيكونت فيليب دي : تاريخ الصحافة ج ١ بيروت ١٩١٣
- عبود مارون : جدد وقدماء بيروت ١٩٥٤
- رواد النهضة الحديثة بيروت ١٩٥٢
- سقر لبنان بيروت ١٩٥٠

- ١٩٦٠ حريصا : تاريخ الادب العربي : فاخوري حنا
١٨٩٦ مصر : اتقاء التنوع بما هو ملجوع : فاندريك ادوارد
١٩٥٨ بيروت : الاصول التاريخية : مسعد بولس ونسيب وهيبه الخازن
١٩٣٤ القاهرة : فارس الشدياق : مسعد بولس
١٩٤٨ بيروت : احمد فارس الشدياق : نجم محمد يوسف
١٩٦٢ صيدا : رواد النهضة الادبية في لبنان : يازجي كمال

الحديث

١٨٠٠ - ١٩٠٠

CHEVALIER Dominique : La société du Mont Liban à l'époque
de la révolution industrielle en Europe. 1971

PERES Henri : Les première manifestations de la renaissance
littéraire arabe en Orient au XIXe siècle
(in: Annales de l'Institut d'études Orientales
Tome I, 1934-1935) pp. 233 - 256.

TIBAWI A.L. : American interests in Syria 1800-1901. 1966

الصحف والمجلات

- اوراق لبنانية : لصاحبها يوسف ابراهيم يزبك بيروت
- الجواب ١٨٦٨ - ١٨٧٢ : لصاحبها احمد فارس الشدياق الاستانة
- المقتطف : لصاحبها يعقوب صروف وفارس نمر بيروت ، ثم القاهرة
- الهلال : لصاحبها جرجي زيدان القاهرة

=====

=====

=====

=====

=====

الفهرس العامّة

فهرس الاعالم
=====

٥٣	ابراهيم باشا
١٧٦	ابن قريـب
٢١٠ ٥ ١٧٦	ابن دريـد
١٧٦	ابن حيـان
١٧٦	ابن خالويـه
١٧٦	ابن السـكيت
١٧٦	ابن فارس
١٧٦	ابن المعتز
١٧٦	ابن سيـده
٢١٨ ٥ ١٧٦	ابن عباـد
١٧٦	ابن عزـز
١٧٦	ابن منظـور
١٧٦	ابن مالـك
١٧٦	ابن شرف محمد
١٩٩	ابن عبـاس
١٩٩	ابن اليزيـدي
٢٠٨ ٥ ٢٠٦	ابن جـني
٢١٨	ابن العميـد
٢٢٠	ابن الرومـي
١٧٦	ابو الاحـوص
١٩٩ ٥ ١٧٦	ابو زيـد
٢٢٠	ابو نـواس
٨١	اسـترن

١٩٩	١٧٦	الازعـــــــــرى
١٩٦	١٧٦	الاصـــــــــمعي
	١٧٦	الالوســـــــــي
٧١	١٧	الباى احمد باشـــــــــا
٣٨	٣٧	البستاني ، المعلم بطرـــــــــس
	١٧٦	الجوهـــــــــرى
٤٣	٢٣	الحاج يوحناـــــــــا
	٢٢٣	حافظ ابراـــــــــهيم
٦١	٣٣	حبيش ، البطريرك يوسف
	٤١	حبيش ، الخورى نقولا
	٣٦	الحتوني ، منصور
	٦٠	الامير حسن علي
	٥٠	الحصري ، المقدم خاطر
	٥٦	الحلو ، البطريرك يوحنا
٢٢٢	٦٤	الحلي ، نصرالله
	٥٧	الخان صالبي
	٨٢	الخان ، نسيب وهيبه
	١٥	خلف الله ، محمد احمد
٢١٠	٢٠٧	الخليـــــــــل
	١٧٦	الخفاجـــــــــي
	٣٥	خورشيد احمد باشـــــــــا
	٣٨	الدسوقي ، محمود
	٢٦	زيادة ، يوسف
	٢٤	زيدان ، جرجي
٢٢٧	٢٢٥	زغير بن ابي سلمى
	٢٢٧	الزوزونـــــــــي

٥٨	الامير سليمان سيد احمد
٢٣	السمعاني ، يوسف سمعان
١٥ ، ٦٤ ، ٧٨	السندويي ، حسن
١٧٦ ، ١٦٦	ســـــــــبيويه
١٧٦	الســـــــــيوطي
١٥ ، ٢٩ ، ٥٠ ، ٥١	شبلي ، الاب انطونيوس
١٩٩	الشـــــــــافعي
٢٣ ، ٢٦ ، ٣٣ ، ٤٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤	الشدياق ، اسعد
٦٣ ، ١٦٣	
٥٥	الشدياق ، بطرس
٢٣	الشدياق ، سليم فارس
٦٧	الشدياق ، ضاهر
٢٣ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤	الشدياق ، طنوس
٢٩ ، ٣٠ ، ٥٩ ، ٦١	الشدياق ، غالب
٢٩ ، ٣٠ ، ٥٩ ، ٦١	الشدياق ، منصور
٢٦ ، ٥٧ ، ٥٩	الشدياق ، يوسف
٢٦	الشهائي ، الامير احمد حيدر
٢٣ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٥٢ ، ٦١	الشهائي ، الامير بشير الكبير
٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١	
٣٨ ، ٦٠	الشهائي ، الامير سلمان
٥٥	الشهائي ، الامير ملحم
٦٤ ، ٧٨	شهاب الدين ، محمد
٢٢٣	شوقي ، احمد
١٦	شيخو ، الاب لويس

١٧٦	السيرطي
١٩٦ و ١٧٦	سيويده
٢١٨	الصابي
١٧٦	الصخاني
٤٣ و ٢٣	طرزي ، الفيكونت فيليب
٣٦	الطياري ، ب .
٧٨ و ٧٧ و ٦٤	الطهطاري ، رفاعه
٥٨ و ٥٢	عبد الله باشا
١٥	عبود مارون
٣٥	عماد ، الياس
٣٧ و ٢٩	العماد ، علي
٤٣ و ٢٣	عواد ، البطريك سمعان
٤٣ و ٢٣	عواد ، البطريك يعقوب
١٥	الفاخوري ، حنا
٤٣ و ٢٣	فرحات ، المطران جرمانوس
١٩٦	الغراء
٥٥	فهد ابو يونس
١٧٦	الفيروز آبادي
٥٤	كرايه ، بطرس
٤٠	كرم ، المطران بطرس
١٩٦ و ١٧٦	الكسائي
٧٧ و ٧٦ و ٧٤ و ٦٤	محمد علي باشا
٢٢٤ و ٢٢٠	المتنبسي
٢٣ و ٢١ و ٢٦ و ٤١ و ٤٣ و ٤٦ و ٥٠	مسعد ، بولس
٥١ و ٥٤ و ٥٥	

٥١ ، ٥٠ ، ٤٣

٢٢٣

١٥

٥٨

١٧٧

١٧٧

المشروقي ، شاهين

مطران ، خليل

نجم ، محمد يوسف

النكدي ، حمود

اليازجي ، ابراهيم

اليازجي ، ناصيف

Byron	81 - 82
Boeurd - Isaac	38 - 45
Calvin	172 - 173
Chatterton	82
Chateaubriand	71 - 82
Cléland - Johne	81
De Beaufort	81
Didro	83
Goethe	82
Homère	81
Hugo	82
Joinine - Charles	53 - 54
Lamartine	71 - 81 - 83
Lee	81
Lobeth De Cordoba	23 - 27 - 53 - 54
Luther	172 - 173
Napoléone	74
Perceval	81
Pérès Henri	30
Quatremère	81

Racine	81
Rousseau, Jean Jacques	21
Renan Ernest	82
Renault	81
Sheller	81 - 82
Swift Dine	81
Tasso	81
Voltaire	82 - 83
Volny	24

فهرس المؤلفات
=====

١٦	الآداب العربية في القرن التاسع عشر
٢٣ ٥٥ ٥٩	أخبار الاعيان في جبل لبنان
٢٣ ٢٧ ٥٤	الاصول التاريخية
١٥ ٦٤ ٦٦ ٧٥ ٧٨	ايعان البيان
٣٠	الباكورة الشهية في نحو اللغة الانكليزية
٧٨	بحث المطالب
٢٤ ٧٦ ٧٧	تاريخ آداب اللغة العربية
١٥ ٦٦	تاريخ الادب العربي
٢٣ ٤٣ ٢٢٠	تاريخ الصحافة العربية
٣٦	تاريخ المقاطعة الكسروانية
١٦٢	تاريخ العالم الحديث
١٦٢ ١٧٢ ١٧٣	تكوين العقل الحديث
٧٨	التلخيص في المعاني
١٧٦ ١٩٦	التهديب
١٧ ٨٣ ١٧٦ ١٧٩ ١٨٠	الجاسوس على القاموس
١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٥ ١٨٦	
١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١	
١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٦ ١٩٧	
١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٣	
٢١٧	
١٥ ٣٦ ٦٣ ٦٧	جدد وقدماء
١٥٢ ١٥٣ ١٦٤ ١٦٩ ١٧٠	الجوائب
١٧١ ١٧٢ ٢٢٨ ٢٢٩	

١٧٦	الجمهورية
٢٠٨	الخصائص
١٧٦	ديوان الأدب
٢٢٠	دائرة المعارف القديمة
٢٣	الزبور
١٧٦	الروائع
٧٨	الرسالة السنوية
١٥١٧٠١٦	الساق على الساق
٢٦٦	
٢٥٠	
٢٤٠	
٢٢٠	
٢١	
٢٠٨	
٢٠٦	
٢٠٤	
٢٠٢	
٢٠٠	
١٩٨	
١٩٦	
١٩٤	
١٩٢	
١٩٠	
١٨٨	
١٨٦	
١٨٤	
١٨٢	
١٨٠	
١٧٨	
١٧٦	
١٧٤	
١٧٢	
١٧٠	
١٦٨	
١٦٦	
١٦٤	
١٦٢	
١٦٠	
١٥٨	
١٥٦	
١٥٤	
١٥٢	
١٥٠	
١٤٨	
١٤٦	
١٤٤	
١٤٢	
١٤٠	
١٣٨	
١٣٦	
١٣٤	
١٣٢	
١٣٠	
١٢٨	
١٢٦	
١٢٤	
١٢٢	
١٢٠	
١١٨	
١١٦	
١١٤	
١١٢	
١١٠	
١٠٨	
١٠٦	
١٠٤	
١٠٢	
١٠٠	
٩٨	
٩٦	
٩٤	
٩٢	
٩٠	
٨٨	
٨٦	
٨٤	
٨٢	
٨٠	
٧٨	
٧٦	
٧٤	
٧٢	
٧٠	
٦٨	
٦٦	
٦٤	
٦٢	
٦٠	
٥٨	
٥٦	
٥٤	
٥٢	
٥٠	
٤٨	
٤٦	
٤٤	
٤٢	
٤٠	
٣٨	
٣٦	
٣٤	
٣٢	
٣٠	
٢٨	
٢٦	
٢٤	
٢٢	
٢٠	
١٨	
١٦	
١٤	
١٢	
١٠	
٨	
٦	
٤	
٢	
٠	

سر الليال في القلب والابدال ١٦ ١٧ ٨٣ ١٧٨ ١٧٩

١٨٧ ١٨٨ ١٩٢ ١٩٥

٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩

٢١٠ ٢١١ ٢١٨

٧٨	الســــلم
	السند الراي في الصرف
٣٠	الفرنسيــــار
١٥ ٦ ٢٩ ٦ ٤١ ٦ ٤٢ ٦ ٤٦ ٦ ٥٥ ٦	الشدياق واليازجي
٥٧ ٦ ٥٩ ٦ ٦٠ ٦ ٦١ ٦ ٦٣ ٦ ٦٤ ٦	
٦٥ ٦ ٦٦ ٦ ٧٠ ٦ ٧١ ٦ ١٧٧ ٠	
٣٠	شرح طبائع الحيوان
٧٨	شرح الكافي
١٩٩	شفاء الغليل
١٩٧ ٦ ٢٢٢ ٦ ٢٢٣	الصحاح
١٥ ٦ ٦٧	صقر لبنان
	الغرر الحسان في أخبار
٢٦ ٦ ٣٥ ٦ ٥٢ ٦ ٥٧	أبناء الزمان
٣٧ ٦ ٤٥	قصّة أسعد الشدياق
١٧٦	القاموس
٣٠	كتاب قراءة للصغار
٢٠١	كتاب العيين
١٠ ٦ ١٨ ٦ ٨١ ٦ ٨٢ ٦ ٨٣ ٦ ٨٤ ٦	كشف المخبا في فنون اوربا
٨٥ ٦ ١٦٤ ٦ ١٦٥ ٦ ١٦٦ ٦ ١٦٧ ٠	
٧٨	الكنز
	كنز الرغائب في منتخبات
	الجوائــــب
١١ ٦ ٢٨ ٦ ٩٤ ٦ ١٠٤ ٦ ١٠٥ ٦ ١٢٢ ٦	
١٢٧ ٦ ١٣٢ ٦ ١٣٣ ٦ ١٣٨ ٦ ١٣٩ ٦ ١٤٠ ٦	
١٤١ ٦ ١٤١ ٦ ١٤٥ ٦ ١٤٦ ٦ ٢٠٣ ٦	
٢٠٤ ٦ ٢١٢ ٦ ٢١٣ ٦ ٢٢٠ ٦ ٢٢٨ ٠	
١٧٦	اللسان

٣٠	اللفيف في كل معنى طريف
١٩٧	لسان العرب
١٧٦	المجمل
١٩٦ و ١٧٦	الحكم
١٧٧	مجمع البحرين
١٥	محاضرات عن الشدياق
	المحاورة الانسية في
٣٠	اللغتين العربية والانكليزية
	مشاهير الشرق في القرن
١٥ و ٦٦ و ٦٧ و ١٧٧ و ٢٢٠	التاسع عشر
٢٢٠	المفنى في كل معنى
٢٠٠ و ٢٠١ و ٢٠٢ و ٢٢٠ و ٢٢١	مقدمة الديوان
٢٢٢ و ٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢٢٦ و ٢٢٧	
٢٢٨ و ٢٢٢ و ٢٣٠	
٢٣	المكتبة الشريفة
	الواسطة في معرفة
١٨ و ٦٥	احوال مالطة

فهرس الألكنة

=====

١٨	٣٥	٦٥	الآستانة / استانبول
٧٦			الازهر
١٧	٤٨	٦٣	أوروبا
٨١	٤٤	٨٦	
١٦٤	١٦٥	١٧٨	
٨١			أوكسفورد
٧١	٨١	٨٤	انكلترا
١٢٧			الاندلس
٣٢			إيطاليا
١٧	٨١	٧٧	باريس
٣٥	٥٦		بسنكتا
٣٧			بعبدا
٣٦	١٧٢		بيروت
٣٢			بيزا
٤٣	٦٣	٧٢	تركيا
٥٩			تل منين
١٧	٦٣	٧١	تونس
٥٥			حارة البطم
٥٥			حدث بيروت
٥٠			حصن رون
٥٠			حصن
٤٢			دير مار جرجس علمنا
٥٦			زحلة

٥٠ ٦ ٢٦ ٦ ٢٣	سوريا
٥٦	شمسطار
٥٦	الشوير
٥٤	الشويقات
٣٧	طرابلس
٥٠	الحراق
٥٧ ٦ ٥٥ ٦ ١٧	عشب قوت
٥٢	عكا
٣٦	عين طرة
٤١ ٦ ٣٧	عين ورقية
٦١	غزير
٦٠	فتوح كسروان
٨٤ ٦ ٨١	فرنسا
٢٢٢	القاهرة
٣٩ ٦ ٣٧ ٦ ٣٣	قنوبين
٥٧ ٦ ٣٥	كسروان
٨١	كمبريدج
١٦٦	كنتربري
٦ ٥٠ ٦ ٤٨ ٦ ٣٢ ٦ ٣١ ٦ ٢٩ ٦ ٢٣	لبنان
١٧٨ ٦ ٧٨	
١٦٦ ٦ ١٦٥ ٦ ٨٥	لندرة
٣٢	ليكورنو
٦ ٤٨ ٦ ٤٦ ٦ ٣٢ ٦ ٣١ ٦ ٣٠ ٦ ٢٩ ٦ ١٧	مالطة
٦ ٧١ ٦ ٦٦ ٦ ٦٥ ٦ ٦٤ ٦ ٦٣ ٦ ٦١ ٦ ٦٠	
١٧٨ ٦ ٧٦ ٦ ٧٥	

٧١	مارسـيليا
١٧ ٠ ٢٣ ٠ ٢٩ ٠ ٤٦ ٠ ٥٠ ٠ ٦٣ ٠ ٦٤ ٠	مصر
٦٦ ٠ ٦٧ ٠ ٦٨ ٠ ٧٠ ٠ ٧٤ ٠ ٧٦ ٠ ٧٧ ٠	
٧٨ ٠ ١٧٨ ٠ ٢٢٢ ٠	
٥٤	معلقة الدامور
٥٨	نهر انطلياس
٨١	النمسا
٨١	اليونان
١٦٦	يورك
